فرانسوا مورياك

صحراء الحب

روايات جائزة نوبل

4

ترجمة فتحى العشرى

الدار المصرية اللبنانية

4

روايــات جائــزة نــوبـــل

سلسلة تصدرها

الـدار المصرية اللبنــانية

المــديــر العـــام : **محمد رشــاد**

رئيس التحـريـــر : **فتحي العشرى**

الإعداد والصياغة : **محمد فتحـى**

١٦ش عبد الخـالق ثـروت ـ القاهرة

تليفون: ٣٩٢٣٥٢٥ ـ ٣٩٣٦٧٤٣

فاكس: ٣٩٠٩٦١٨ ـ برقياً: دار شادو

ص.ب: ٢٠٢٢ ـ القاهرة

رقم الإيداع: ٣٣٢٢/ ٩٤

الترقيم الدولى: 0 - 134 - 270 - 977

الطبعة الأولى : ١٤١٤ هـ ـ ١٩٩٤ م.

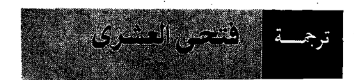
الطبعة الثانية : ١٤٢٢ هـ ـ فبراير ٢٠٠٢ م



DESERT DE L' AMOUR

فرنسوا مورياك

نوبل / 1952




الفصل الأول

ظـل «ريمون كوريج » لسنوات يمنى نفسه بلقاء «ماريا كروسى» التى تمنى كثيراً أن يشفى غليله منها بالثأر . . ولَكَمْ لاحَقَ فى طريقه من العابرات، معتقداً أنها هى التى يبحث عنها . ومع الزمن هدأت نار البغضاء ، وعندما هيأ له القَدر مواجهة هذه المرأة ، لم يشعر على الإطلاق فى البداية بنوع من الفرح ممزوج بالغضب ، وهو الأمر الذى كان لابد أن يحدثه مثل هذا اللقاء .

فى ذلك المساء توجه إلى حانة شارع ديفو ، ولم تكن الساعة قد تجاوزت العاشرة ، ومطرب فرقة موسيقا الجاز يردد أغنياته ويغنى من أجل مستمع واحد ، هو المشرف على عمال الحانة ، تلك الحانة الضيقة التى يتوافد روادها إليها تباعاً ، من قبيل منتصف الليل فى ثنائيات . كانت هناك مروحة كهربائية تئز مثل ذبابة كبيرة ، ولم يكن « ريمون » قد وجد ردًّا على الحارس الـذى قـال له مندهشاً : « لم يعودنـا السيد على رؤيته فى مثل هـذا الوقـت المبكر » ، ولكنه أشار إليه بيده حتى يوقف هذا الأزيز . ولم يفلح الحارس فى إقناعه بأن هذه المروحة تمتص الدخان بدون أن تحدث تياراً من الهواء ، فنظر إليه ريمون نظرة صارمة ، جعلته يتراجع حتى مكان الاحتفاظ بالملابس ، وكفَّ المروحة المعلقة بالسقف عن الحركة ، وكأنها ناقوس توقف صوته عن الرنين .

وما إن مرق بين المفارش البيضاء وخطوطها الناصعة ، وتبين من خلال المرايا صورة وجهه التى عادت إلى ما كانت عليه فى أحلك أيامه ، حتى سأل نفسه : « ما الذى لا يسير على ما يرام » ؟ لاشك أنه كان يكره الأمسيات الضائعة ، وهذه الأمسية ستضيع بسبب هذا الحيوان « آدى » الذى كان لابد من إجباره على المجىء إلى الحانة بعد اصطحابه إليها من بيته . واعتذر « آدى » أثناء تناول الطعام عمَّا بدا عليه من اضطراب ، وما أصابه من صداع ، وكان يجلس على حافة المقعد ، وحركات جِيدِه تُعبر عن تململه ، لانشغاله بانتظار لذةٍ مَّا كان يتعجلها ، وما إن انتهى من احتساء القهوة حتى مرق هارباً بحركة خفيفة ، وقد لمعت نظرته ، واحمرَّت أُذنه ، وانتفخ أنفه . وكان ريمون قد ظل طوال اليوم يُمنى نفسه بالصورة الجميلة الساحرة التى تخيلها لهذه الأمسية ، وتلك الليلة ، إلاَّ أن النعيم الذى صادف « آدى» كان أكثر إنعاشاً من أى حوار على الإطلاق .

تعجب ريمون ؛ لأنه لم يشعر بالإحباط فحسب ، بل بالاكتئاب والحزن أيضاً ، وأفزعته حقيقة أن يتحول أقل أصدقائه قيمة إلى قيمة ثمينة بالنسبة إليه ، وبدا له هذا الإحساس شيئًا جديداً فى حياته ، فقد كان حتى سن الثلاثين غير قادر على التجرد من المصلحة ، كما تقتضى الصداقة ، لانشغاله الدائم بالنساء ، وهذا هو السبب فى أنه كان لا يبالى بها لايتحول إلى هدف يمتلكه ، وكانت شراهته تدفعه إلى القول : « أنا لا أحب إلا ما يمكن أن ألتهمه » . ولهذا لم يكن يستخدم الأصدقاء فى هذه المرحلة من حياته إلا كشهود عيان ، أو أمناء سر ، وكان الأصدقاء عنده آذاناً صاغية قبل أى شىء ، وكان يحلو له التأكد من أنه يسيطر عليهم ، وأنه يوجههم

كيفما يشاء ، وعموماً فقد كان مُدَلَّلاً يحب السيطرة ، وكان معجباً بقدرته على أن يثنى عزائمهم بشكل منتظم .

فلو تمكن «ريمون» من تسخير رغباته فى مهنة محددة ، وكف عن السعى وراء ملذاته الوقتية ، لاستطاع أن يجلب زبائن كزبائن جده الجراح ، وأبيه الطبيب ، وعمه الأكبر ، إلا أنه قد وصل إلى السن التى لم يعد يمكنه فيها عمل ذلك ، وكل ما كان يعرفه هو ضمان أكبر قدر من اللذة لأصدقائه التابعين ، وكان الأصغرون منه سنًّا يتوقون إلى أصدقاء من جيلهم ، ليتلاءموا معهم ، الأمر الذى قلل من زبائنه ، ولا غرابة فى ذلك ، ففى عالم الحب يكثر الصيد ، علماً بأن الصحبة التى يختارها من بين هؤلاء الذين يعيش معهم يقل عددها عاماً بعد عام . وكان «ريمون» يبغض أن يكون فى مثل سنه هؤلاء الباقون على قيد الحياة من بقايا الحرب القاتمة الذين شربوا من كأسها ، سواء من تورط فى الزواج ، أو مَنْ شوهته مهنة القتل ، فهو يكره شَعْر أجسادهم الأشمط وبطونهم الضخمة ، وتلك الجمجمة البارزة العظام ، ودائماً ما يتهمهم بأنهم هم الذين فتكوا بشبابهم ، وغدروا بهذا الشباب قبل أن يُوَلِّى .

أما هو فقد كان مزهوًّا بأنه من جيل ما بعد الحرب ، وفى ذلك المساء داخل تلك الحانة التى كانت لا تزال خالية إلا من صوت الماندولين الخافت ـ راح ريمون يحدق فى وجهه من خلال المرايا ، وفى رأسه بشعره الغزير ، وفى ملامحه التى تترفق بها سن الخامسة والثلاثين ، وخلص بتفكيره إلى أن الكبر قد أصاب حياته قبل أن يصيب جسده ، وأن الغرور قد يصيبه عندما تتساءل عنه النساء : « من يكون هذا الشاب الكبير » ؟ ومع هذا فقد كان

يعلم أن الشباب الفطن فى سن العشرين أصبح من جيل مختلف ، فها هو ذا صاحبنا « آدى » على سبيل المثال ، ألم يكن الأجدر به والأليق أن يقدم على شىء آخر غير التباهى بنفسه حتى مطلع الفجر وسط ضجيج الساكسوفون ؟ وربما كان فى الوقت نفسه فى حانة أخرى لايفعل غير الكشف عن مكنوناته إلى شاب آخر من مواليد 1904 ، يقاطعه بين الحين والآخر وهو يقول له : « وأنا أيضاً » ، أو وهو يقول : « تماماً مثلما حدث لى».

وفجأة دخلت مجموعة من الشباب تهيأت لعبور الردهة بزهو وتعال ، وما إنْ وجدوا الحانة خالية حتى أحسوا بالضيق وأحاطوا « بالبارمان » . أما «ريمون» فلم يكن ليقبل قط أن يعانى بسبب الآخرين ، صديقة أو صديق، لهذا أخذ يُسائل نفسه حتى يتبين بطريقته الخاصة عدم التناسب بين ضآلة قيمة « آدى » وحالة القلق التى تسبب فيها غيابه . وقد أسعده ألاَّ يشعر بمقاومة حينما حاول أن ينزع من نفسه مكمن عاطفته ، وتبلد إحساسه ، حتى إنه تصور أنه سيطرده فى اليوم التالى ، آملاً دون اهتزاز ألاَّ يلقاه بعد ذلك ، وقال لنفسه بسرور : « سوف أُنحيه وأبعده من طريقى » . . وما إنْ توصل إلى هذا حتى تنفس الصعداء ، ومع هذا كان يشعر بأن ضيقًا لايزال يثور فى أعماقه ، ضيقاً لا دخل لآدى فيه ، ذلك أن مصدره كان هذه الرسالة التى تحسسها بيده داخل جيب رداء السهرة ، والتى لم يجد مبررًا لقراءتها مرة ثانية ؛ لأن الدكتور « كوريج » اعتاد أن يستخدم عند مخاطبته ابنه لغة مقتضبة سهلة ، كقوله : « أُقيم فى الفندق الكبير طوال أيام انعقاد

المؤتمر الطبى ، ومتفرغ لك صباحًا قبل التاسعة ، ومساء بعد الحادية عشرة» . والدك بول كوريج .

تمتم «ريمون » قائلاً : « أكثر مما . . . » ثم بدت على وجهه – رغماً عنه – سمات التحدى ، كان عاتباً على والده الذى لم يكن من اليسير عليه أن يستهين به استهانته ببقية الأسرة ، فكان قد طالب والده بدون استجابة ـ وهو فى سن الثلاثين ـ بالحصول على قيمة صداق مماثلة لتلك التى حصلت عليها أخته ، فلما رفض طلبه ، قطع صلته بوالده ووالدته ، والواقع أن «مدام كوريج » كانت هى صاحبة الثروة ، وكان « ريمون » على يقين من أن والده كان سيُظهر كرماً لو أن له حق التصرف فى الثروة ؛ لأن المال فى رأيه لا يساوى شيئاً . وكرر « ريمون » ما قاله : « أكثر مما . . . » غير أنه يقاوم فكرة أَلَحَّتْ عليه بشدة ، وهى أن الرسالة المفاجئة هذه تحمل نوعاً من النداء لاستئناف العلاقات ، فوالده لم يكن فى جحود والدته التى كانت دائماً ما تردد ، حينما يستفزها برود زوجها وجفاؤه ، قولها : « ماذا يهمنى من طيبة قلبه طالما لا ألمس منه ذلك ؟ ترى ماذا كان سيحدث لو أنه شرير؟ » .

تململ « ريمون » من نداء الوالد الذى يصعب عليه أن يكرهه ، لهذا فلن يرد أبداً على رسالته ، ولكن هل يصح ذلك مهما كانت الأسباب ؟ وفيما بعد كان « ريمون » يتذكر ـ كلما استعاد ملابسات تلك الليلة ـ مرارة الألم الذى ألمَّ به وهو يدخل من باب الحانة الصغيرة الخالية ، ولكنه كان ينسى أسباب هذا الألم التى تتلخص فى تخلف واحد من أصدقائه ، هو « آدى » وخاصة أن والده فى باريس . وكان « ريمون » يعتقد أن حِدَّة مزاجه نبعت فى تلك الليلة من شعور داخلى ، ذلك أن صلة ما نشأت بين حالة قلبه وبين

الحادث الذى يقترب من حياته ، ويؤكد وقوعه منذ تلك الأمسية ، فلا «آدى » وحده ولا والده فقط كانا يمكن أن يجعلاه فى هذه الحالة من الكآبة ، فما كاد يجلس ليحتسى كأساً من « الكوكتيل » حتى أحس بروحه وجسده معاً ـ وبشكل غريزى ـ باقتراب تلك السيدة التى كانت فى تلك اللحظة تبحث فى حقيبة يدها وهى تقول لمرافقها بعد أن تركا سيارة الأجرة عند ناصية شارع ديفو : « يزعجنى أنى نسيت أحمر الشفاه » ويجيبها الرجل بقوله : «لابد أنه يوجد أحمر شفاه فى الحانة » . قالت : « يا للبشاعة ! حتى أصاب . . » فقال لها : « ستعطيك « جلاديس » أحمر شفاه » .

ودخلت المرأة وهى تضع على رأسها قبعة تشبه الناقوس ، تخفى أعلى الوجه، ولا تكشف إلا عن الذقن ، المكان الذى يسجل فيه الزمن عمر النساء ، لقد طرقت سن الأربعين ، كما يكشف أسفل الوجه الذى شحب لون جلده وبرز لُغْدُه [1] ، أما جسدها ففى حاجة إلى تنسيق داخل الفراء ، ذلك أنها بدت كالثور الذى اندفع على غير هُدى نحو مُصارِعه حين وقفت عند مدخل الحانة المتلألئة الأضواء ، وعندما لحق بها مرافقها ـ وكان قد تأخر بسبب نقاش بينه وبين سائق سيارة الأجرة قال « ريمون » لنفسه ـ ولم يكن يعرفها : « قد رأيت هذا الوجه فى مكان ما . . إنه وجه من مدينة بوردو» . ثم فجأة ورد على لسانه ، وهو يُمعن النظر فى وجه الرجل ابن الخمسين الذى بدا هادئاً راضياً ، اسم « فيكتور رورسيل » . . وما إنْ تأكد حتى ازدادت ضربات قلبه وراح يتفحص من جديد وجه المرأة التى أدركت أنها الوحيدة التى ترتدى قبعة ، فنزعتها بسرعة ، وهزت شعرها المقصوص حديثاً وهى تنظر فى المرآة ، وهنا ظهرت عيناها الواسعتان الهادئتان وجبهتها

---

(1) اللُّغد : اللحمة بين الحنك وصفحة العنق .

العريضة ، وإنْ كان تصفيف شعرها الأسود الفاحم قد حدد تلك الجبهة تحديداً دقيقاً فى سبعة مواضع ، ذلك أن كل ما تبقى من شباب هذه المرأة قد تجمع فى أعلى وجهها . . عرفها « ريمون » برغم شعرها المقصوص وجسدها الذى ازداد ، وذلك الترهل الخفيف الذى مس جزءًا من الرقبة وزحف نحو الثغر والخدين . . عرفها وهو يستعرض فى خياله صباه . . عرفها على الرغم من أن أشجار الفرو التى كانت تظلل طريقه قد اجتثت . وأخذ يعد السنين، ثم قال لنفسه بعد لحظة : « بلغَت الأربعين من عمرها . . وعندما كنت أنا فى الثامنة عشرة كانت فى السابعة والعشرين » . . وكان « ريمون » مثل غيره يخلط بين السعادة والشباب ، ولايميز انقضاء الزمن ، برغم انتباهه إليه وقياس هوته المندثرة ، فما من شخص لعب دوراً فى حياته إلا وضعه فى مكانه ، بحيث يكفى أن يرى وجهه حتى يتذكر أدق التفاصيل .

« هل ستعرفنى ؟ . . وهل تدير وجهها لو عرفتنى ؟ لقد اقتربت من مرافقها وتحدثت إليه حديثاً لا يخلو من توسل لكى تبرح المكان ؛ لأنه أجابها بصوت مرتفع يدل على أنه من النوع المُحب للإعجاب وهو يقول : «لا ، لا ، إن المكان لا يدعو إلى الكآبة ، سترين أنه سيمتلىء بعد ربع ساعة على الأكثر . قال ذلك وهو يدفع منضدة على مقربة من تلك التى كان «ريمون » يتكىء عليها ، وجلس إليها فى تثاقل وقد بدا على وجهه الزاخر بالدم وعلامات التيبس نوعٌ من الرضا غير مشوب ، فلما ظلت المرأة واقفة بلا حراك استوضح الأمر قائلاً : « لِمَ لا تجلسين ؟ ماذا تنتظرين حتى تجلسى ؟ واختفى الرضا فجأة من عينيه ومن شفتيه الغليظتين المحتقنتين . وواصل حديثه ظنًّا منه أنه يتكلم بصوت منخفض : « طبعاً . . يكفى أن يطيب لى الجلوس هنا حتى تغضبى . . » ومن المؤكد أنها قالت له : « حَذارِ

فالناس تسمع » ، فقد صاح قائلاً : « أعتقد أننى أعرف قواعد السلوك التى تجعلنى أحسن التصرف فى الأماكن العامة ، حتى لو سمع الناس » .

جلست المرأة فى طمأنينة على مسافة غير بعيدة من المكان الذى يجلس فيه ريمون ، بحيث كان عليه أن ينحنى ليراها ، فى حين كان تجنب النظر إليه يتوقف عليها ، ولم يفته أن هذا الوضع يضمن لها الأمن ، وأدرك فجأة . . وقد استولى عليه الفزع ـ أن هذه الفرصة التى تمناها منذ سبعة عشر عاماً من الممكن أن تفلت منه ، وخُيل إليه بعد انقضاء هذه السنوات أن أمنيته فى إذلال تلك المرأة التى أذلته ، مازالت قائمة كما كانت قبل ، فهو يريد أن يُريها أى نوع من الرجال هو ، هؤلاء الذين لايقبلون أن تسخر منهم أنثى أو تلهو . وكثيرًا ما سعد خلال سنوات عديدة وهو يصور لنفسه الظروف التى ستهيىء له الالتقاء بها وجهًا لوجه ، ومقدار ما سينتج من حيله فى إذلال وإبكاء تلك المرأة التى كان عليه أن يقف منها فيما مضى موقفاً يرثى له .

كان فى تلك الأمسية يتصور مكان هذه المرأة وكل إنسان قام بدور ثانوى فى حياته وهو لايزال طالباً فى سن الثامنة عشرة . تصور مثلاً زميله الذى كان يفضله فى تلك المرحلة ، والمشرف الذى كان يرغبه فى المدرسة كلما استشعر فى نفسه الحقد عند رؤيته وهو شاب ، تخطى اليوم هذه المرحلة من العمر ، ولكن الوضع يختلف بالنسبة لهذه المرأة ، ألم يتخيل نفسه ـ مثلما حدث فى أحد أيام الخميس من شهر يونيه عام 1919 ، وفى ساعة الغسق على وجه التحديد ـ واقفاً على أحد طرق الضواحى ، يحيط به التراب ، وتفوح منه رائحة الزهور ، وهو يقف أمام بوابة كبيرة لم يتمكن من دق جرسها بعد ذلك اليوم ؟ إنها « ماريا » . . ماريا كروس ، التى يرجع إليها الفضل فى تحويله

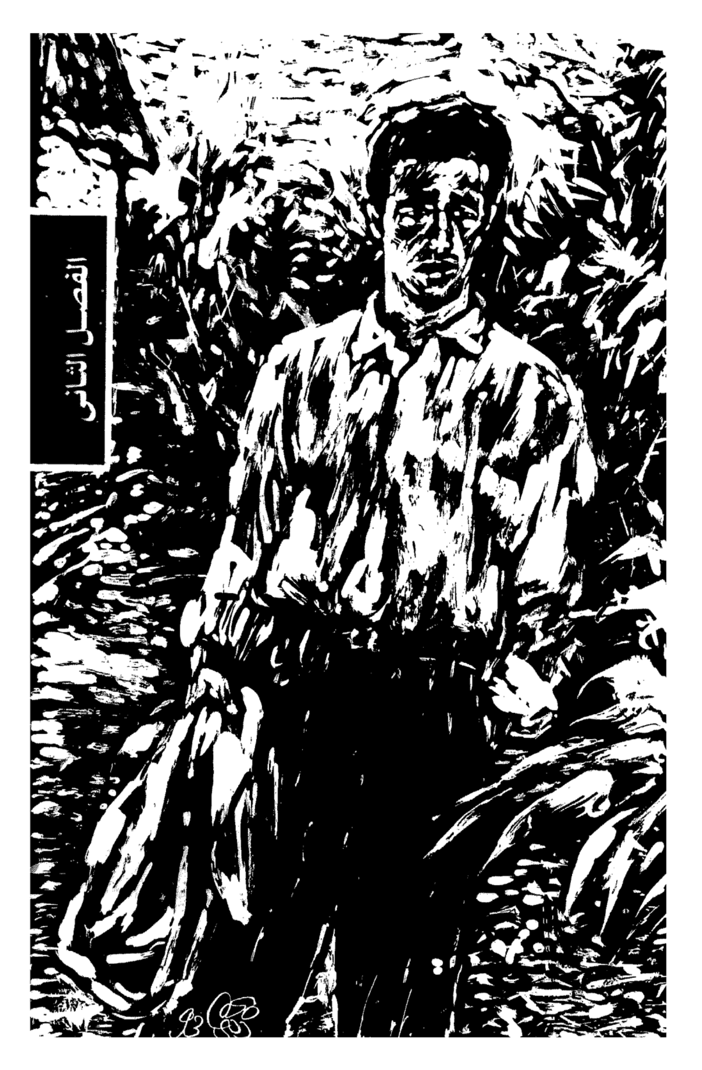
من مراهق متحفز خجول إلى إنسان جديد ، اكتسب رجولة دائمة ، أما هى فلم يصبها من التغيير إلا القليل ! والعجيب أن تظل عيناها ، وكما كانتا ، تحملان معنى التساؤل ، وأن يبقى جبينها مليئًا بالنور . وقال ريمون لنفسه : « صديقى المفضل فى عام 19 أصبح فى هذا المساء رجلاً مكتز اللحم ، أصلع الرأس ، له لحية ، فى حين أن وجوه النساء تظل تفيض شباباً ، بل طفولة حتى فى سن النضج . وقد تكون طفولتهن الدائمة هى التى تؤكد حبنا لهن ، وتحمى هذا الحب من الزمن ، فها هى ذى « ماريا » لا تختلف فى شىء ـ بعد سبعة عشر عاماً من المغامرات الخفية ـ عما كانت عليه ، مثلها فى ذلك مثل العذارى السُّود ، فلم يستطع لهيب زمن الإصلاح أو زمن الإرهاب أن يغير من ابتسامتهن ، وهاهو ذا الرجل الشديد البأس ، الذى ينفق عليها ، مازال طبعه كما هو ، وخطره أيضًا » .

لم يكن مَنْ ينتظرهم الرجل قد وصلوا بعد عندما قال : « جلاديس هى التى عطلت مجيئه ، أنا أراعى مواعيدى وأكره الذين لا يفعلون مثلى ، والعجيب أننى لا أحتمل انتظار أحد لى ، هذا أمر لا دخل لى فيه ولا قدرة لى عليه ، لقد صار الناس غير مهذبين ؛ لأنهم يجهلون السلوك الحسن » .

ربتت « ماريا كروس » على كتفه ، ومن المؤكد أنها كررت قولها : « الناس تسمعنا . . » لأنه صاح مدعياً أنه لم يقل شيئاً يمكن أن يسمعه أحد ، وأنه من غير المعقول أن تكون هى التى ستعلمه السلوك الاجتماعى .

إن وجودها وحده أعاد « ريمون » من جديد إلى ما كان قد انتهى إليه ، بدون سلاح أو دفاع ، فإذا كان قد حافظ دوماً على الصورة واضحة لما حدث فيما مضى ، فإنه كان يكره أن يستبعد تفاصيلَ معينة ، وكان لا يخشى شيئاً قدر خشيته من ثورة الأشباح والأطياف . ولكن كان لابد مما لا

لزوم له ، كان لابد أن يستمع إلى دقات الساعة وهى تعلن السادسة ، وصوت أدراج المدرسة وهى تُغلق ، وهطول الأمطار بقدرٍ غير كافٍ لتقليل إثارة التراب ، وإضاءة الترام غير الكافية بالقدر الذى يسمح له بإتمام قراءة قصة إفروديت ، ذلك الترام المزدحم بالعمال الذين كَسَا العناء وجوههم بتعبيرٍ ينم عن العذوبة والرقة ، كل هذا نتيجة لتحرك سيل الوجوه فى مخيلته بسبب وجود « ماريا » .


الفصل الثاني

كان « ريمون » يجد خلاصه وإنقاذه فى المدة التى تقع بين وجوده فى المدرسة مطرودًا من قاعة الدرس ، هائماً على وجهه بين الأروقة فى ثيابه المتسخة ، أو ملتصقاً بأحد الجدران ، حتى ووصوله إلى بيت العائلة فى الضواحى ؛ لأن رحلة العودة إلى المنزل مستخدماً الترام كانت طويلة ، بحيث يخلو فيها إلى نفسه ، فركاب الترام لا يهتمون به ولا يلتفتون إليه ، وكان فصل الشتاء بصفة خاصة يعزله عن العالم ، ذلك أن ليالى هذا الفصل من فصول السنة متصلة الظلام على امتداد الطريق ، إلا إذا مزق الظلام - من حين إلى آخر - نور صادر ، إما عن أحد الفوانيس ، أو عن واجهة زجاجية من واجهات الحانات ، بل كان يعزله فى سياج تفوح منه رائحة ملابس العمال الصوفية المبتلة ، ورائحة التبغ المنطفىء ، ولا يزال عالقاً بشفاه المدخنين المسترخية ، والركاب الذين أسدلوا وجوههم ذات التجاعيد السوداء من الفحم ، وقد سقطت جرائدهم من أيديهم الغليظة ، وهذه السيدة ذات الشعر الكثيف التى كانت تضع فى ضوء المصابيح قصة بين طيات الجريدة ، وفمها لايكف عن الحركة ، كما لو كانت تصلى ، ودائماً ما كان ينزل بعد كنيسة « تالانس» تاركاً هؤلاء جميعاً على غير رغبة منه .

كان مرور الترام - وكأنه الصاروخ المتحرك - يضىء لومضة قصيرة بروز إحدى الدور الخاصة ، ثم صوت ضجيج العجلات يخفت شيئاً فشيئاً عند

الطريق الذى يغوص فى المستنقعات ، وتفوح منه رائحة الخشب التالف وقد اختلط برائحة أوراق الأشجار . كان ينزل ويسير فى الطريق الضيق الذى يجاور حديقة العائلة ، يدفع باب الدار الرئيسى الموارب دائماً . وكان مصباح حجرة الطعام هو الذى يضىء هذا الممر المواجه للدار ، حيث تزرع فيه خلال الربيع أشجار الزهور الحمراء المتدلية ، والتى تعيش فى الظل . وما كان يصل «ريمون» إلى هذا الموقع حتى تتصلب جبهته ، ويتقارب حاجباه فى خط واحد كثيف فوق عينيه ، ويتدلى الجانب الأيمن من فمه شيئاً مَّا ، ثم يدخل غرفة الاستقبال وهو بهذه الحالة ، فيلقى بتحية المساء إلى جميع الملتفين حول مصباح خافت الضوء ، ولا تلبث أمه أن تلومه على تكرار التنبيه عليه بمسح الحذاء فى الممشى ، وتسأله إذا كان فى نيته تناول الطعام بيديه المتسختين ، وكانت الجدة التى تميل لزوج ابنتها تقول بصوت منخفض : « إنك تعرفين ماذا يقول « بول » ، فلا داعى لاستثارة أعصاب الطفل » . وهكذا كان وصوله يسبب تبادل الكلمات الجارحة . كان «ريمون » يجلس فى الظلام ، وكانت الأخت « مارلين » تمسك بإبرة التطريز وهى منحنية على المشغل ، لاترفع رأسها عند دخوله ، وكأنه لايثير اهتمامها ، بعكس أى كلب من كلاب الطريق ، وكانت تعتبر ريمون «وباء العائلة » ، وكثيراً ما كانت تكرر قولها : « يا له من عربيد » ! وكان « جاستون باسك» زوجها يضيف قوله : « خاصة وهو ضعيف للغاية» .

وكانت « مارلين » ترفع رأسها وتصغى لثانية ثم تقول : « ها هو ذا جاستون » وتترك ما تطرزه ، فتجيبها الأم قائلة : « لم أسمع شيئاً » . فتقول «كلا ، كلا ، هاهو ذا » . ومع أنه لم تكن هناك أُذن غير أذنها تسمع هذا الصوت . كانت « مارلين » تقف وتهرول نحو الباب وتختفى فى الحديقة ،

يدفعها إلهام لم يخب قط ، كما لو كانت تابعة لنوع من الحيوانات يختلف عن الأنواع الأخرى حيث الذكر ـ لا الأنثى ـ هو الذى له رائحة تجذب من خلال الظلام ، وفعلاً يسمع أفراد العائلة صوت رجل وضحكة دعابة ، واستكانة من « مارلين » ، فقد كانوا يعرفون أن الزوجين لا يخترقان غرفة الاستقبال ، وأنهما يصعدان من باب خلفى إلى غرفة النوم ، ولا ينزلان حتى يدق جرس الطعام للمرة الثانية .

كانت المائدة تجمع ـ تحت النجفة ـ الأم ، ولوسى زوجة ابنها ، والزوجين الشابين ، وأربع طفلات يتشابه شعرهن ونبرات صوتهن ، وفى لون أبيهن «جاستون باسك » ، ويرتدين أثواباً متشابهة ، ويتلاقين فى جلستهن ، كما تأتلف الطيور على فرع من فروع الشجر ، وكان الملازم « باسك » قد أصدر أوامره بألاَّ يوجه أحد الحديث إليهن جميعاً ، فإذا خاطبهن أحد فإن العقوبة تقع عليهن وليس على المتحدث .

أما مكان الطبيب على المائدة فيظل شاغراً فترة طويلة ، حتى ولو كان موجوداً بالمنزل ، وكلما وصل إلى البيت فى منتصف الوجبة وهو يحمل حزمة من المجلات ، كانت زوجته تسأله إذا كان قد سمع دق الجرس وتقول : «لايمكن الاحتفاظ بالشغالين إذا اضطروا للعمل بهذه الطريقة غير المنتظمة، وكان الطبيب لايفعل أكثر من تحريك رأسه ، كما لو كان يهش ذبابة ، ثم يأخذ فى تصفح إحدى المجلات ، لم يكن يفعل ذلك متصنعاً ، بل من باب الاقتصاد فى الوقت ، وهو رجل مثقل بالعمل ، تكتنف ذهنه اهتمامات زائدة ، ويحدد قيمة الوقت . وكانت عائلة باسك تتخذ ركناً من أركان المائدة تنعزل فيه ، غير عابئة بكل مالا صلة لها به ، سواء فيما يتعلق بالوالدين أو بأطفالهما . وكان الضابط باسك يروى ما اتخذ من إجراءات مع

العميد حتى لاينقله من بوردو ، وكتب العميد للوزارة بهذا الشأن ، وكانت زوجته تستمع إليه بدون أن تغض البصر عن مراقبة الأطفال ، بلا حاجة إلى قطع حديثه ، سوى قولها لأحد الأطفال من حين لآخر : «لاتجفف الطبق بالمنشفة » ، أو : « ألا تعرف كيف تستخدم السكين ؟ » . أو « لا تشد جسدك هكذا » . أو : « ضع يدك لا مرفقيك على المائدة » ، أو : « اعلمْ أنك لن تتناول خبزاً أكثر مما تناولت » . أو : « كفاك ما شربت » .

لعائلة « باسك » وأفرادها بحر من الأسرار والحذر والريبة ، ولهذا كانت السيدة « كوريج » تقول عنها باستمرار : « إنهم جميعاً لا يُطلعوننى على شىء » . وكان كل ما تعيبه على ابنتها أو تأخذه عليها ينصب أساساً على هذا الاعتقاد ، الذى تؤكده بقولها : « إنهم جميعاً لايطلعوننى على شىء » . وكانت تشتبه فى أنَّ مارلين حامِلٌ ، الأمر الذى دعاها إلى مراقبة قوامها ، وإرجاع كل وعكة تصيبها إلى هذا الحَمْل ، فلم يكن يسعدها على الإطلاق أن يعلم الشغالون بما يجرى من أمور قبل أن تعلم هى بها . وكانت تعتقد أن « جاستون » مُؤَمِّنٌ على حياته ، ولكنها لا تعرف شيئاً عن قيمة المبلغ المُؤَمَّن به ، كما كانت تجهل قيمة ما ورثه بالضبط بعد موت والده .

فى غرفة الاستقبال ، وبعد تناول طعام العشاء ، كان « ريمون » يمتنع عن إجابة والدته التى تنهره بقولها : « لماذا تجلس هنا ؟ أليست لديك دروس عليك أن تستذكرها ؟ أليس لديك موضوع إنشاء عليك إعداده؟ » وكان يمسك بواحدة من بنات أخته الصغيرات ويضغط عليها بيديه القويتين، ويرفعها إلى ما فوق رأسه حتى تلمس سقف الحجرة ، وكأنه يدكها دكًّا مكوناً من هذا الجسم المرن تشكيلات دائرية ، فى حين تصرخ «مارلين» مثلما تصرخ الدجاجة المنزعجة على فراخها ، ولم يكن يمنعها من الهجوم عليه

وإيذائه ، سوى ابتهاج الصغيرة بهذه المداعبة ، فتقول له : «حَذارِ ! ستبتر جسدها أيها الفظ » ! وعندئذ تلقى الجدة مافى يدها من شغل الإبرة، وترفع منظارها السميك وقد كست وجهها ابتسامة متصيدة لصالح « ريمون » ، وتقول فى حماسة شديدة : ياللعجب ! إنه يحب الأطفال إلى درجة العبادة ، وليس لنا أن نستنكر عليه ذلك ، فلا يرتاح إليه سوى الأطفال . ثم تستطرد السيدة العجوز فى التأكيد على أنه طيب القلب، محب لهم بقولها : « على من لا يعرفه أن يراه مع بنات أخته ، حتى يتأكد من أنه ليس إنساناً سيئاً » .

فهل كان يحب الأطفال حقًّا ؟ كلا ، ولكنه كان يجعل من كل شىء غضٍّ دافىء نابضٍ بالحياة ، سلاحاً دفاعيًّا ضد كل من يسميهم بالجثث .

تذكر « ريمون » كيف ألقى بالجسد الصغير على المقعد ، واتجه ناحية الباب ، وأطلق ساقيه للريح فى الطرقات المليئة بأوراق الشجر . كان ضوء السماء حين يزداد بريقه بين غصون الأشجار العارية يقود خطواته . لقد كان مصباح والده الطبيب مضاءً فى الطابق الأول خلف الزجاج . سأل ريمون نفسه : هل يذهب إلى الفراش الليلة أيضاً بدون أن يُقَبِّلَ أباه ؟ كلا، كفى ما عاناه فى الصباح على امتداد ثلاثة أرباع الساعة من صمت أبيه غير الودى ؛ لأنه منذ الفجر والقطيعة تتملك الوالد والولد معاً ، وظلا على تلك الحال إلى أن غادر « ريمون » المنزل ، وسار فى الشوارع حتى وصل إلى مدرسته ، فى حين واصل الوالد الطبيب طريقه حتى المستشفى ، ثلاثة أرباع ساعة قضاها فى تلك المواصلة ـ التى تزكم الأنوف برائحة الجلد القديم والعظم ـ إلى جانب والده ، بين لوحين من الزجاج ، يقطر منهما الماء . وحاول الطبيب الفصيح عبثاً ـ قبل شهور ـ أن يجد كلمة يقولها لهذا المخلوق فلذة كبده ، هذا الجالس إلى جواره ، مع أنه يتحدث كثيراً وكثيراً جدًّا ، حديث

الرجل صاحب السلطة ، لا إلى مرءوسيه فحسب ، بل إلى تلاميذه أيضاً ، فكيف يمكن بالتالى أن يشق طريقاً إلى قلب ابنه ويتغلب على مقاومته ؟ وذات يوم اعتقد أنه اهتدى إلى هذا الطريق ، فوجه إليه كلاماً طال تفكيره فيه قبل ذلك ، وكان لايدرى ماذا يقول ، فصوته الساخر الخشن كان يخونه على الرغم منه ، فإن مصدر عذابه دائماً هو عدم قدرته على التعبير عمّا فى نفسه من مشاعر وعواطف .

إن طيبة القلب التى تميز الطبيب « كوريج » لم تكن معروفة للناس ، برغم أن أعماله كانت تفصح عنها ، نعم هذه الأعمال دون غيرها هى التى كانت تكشف عن هذه الطيبة فى أعماقه الدفينة ، كان من الصعب أن يتقبل كلمة شكر أو تقدير بغير أن يهمهم بكلمات لا تُفهم ، أو يكتفى بتحريك أكتافه . وكم مرة أدرك الطبيب وهو يهتز فى جلسته إلى جوار ابنه فى الصباح الباكر ، ما كان يعتمل فى صدره بمجرد النظر إلى وجهه ، هذا الوجه الملائكى المكدر ، الذى ترتسم على ملامحه أعماق شجنه ، برغم محاولته إخفاء ذلك ، وبرغم جمال عينيه وما يحيط بهما من علامات الإرهاق الشديد . كان الطبيب يقول لنفسه : « يا له من مسكين ! ! يعتقد أننى عدوٌّ له ، وله العذر فى ذلك ، فأنا المسئول عن اعتقاده ؛ لأننى لم أكن أعلم أن لدى المراهقين بصيرةً تمكنهم من معرفة من يحبهم » . كان ريمون يسمع هذا النداء بدون أن يخلط بين والده وبين الآخرين ، ولكنه كان يصم أذنيه برغم ذلك ، ولا يدرى من ناحية أخرى كيف يتوجه بالحديث إلى والده ؟ وماذا يقول لهذا الرجل الذى يخجل من ابنه ؟

لم يستطع الطبيب الأب - برغم كل هذا - أن يدارى تحذيره ، وإن أورده بشكل هادىء ولطيف ، محاولاً أن يعامل ابنه معاملة الصديق أو الزميل ، فيبادره بقوله : « كتب إلىّ ناظر المدرسة مرة ثانية بشأنك ، فتصرفاتك مع

هذا الأب خارج المسكن نحو الجنون ! وجميع الدلائل شاهدة على أنك المتسبب فى إطلاق هذه النبذة عن قسم الولادة فى المدرسة . . ويبدو أنك سرقتها من مكتبى ، ومع هذا فإن تصوير الأب وحنقه يبدو مبالغاً فيه ، هذا ما يجب أن نعترف به ، والآن أصبحت فى سن لا مفر من معرفة الحياة فيها ، والجدير بك أن تقتنى الكتب الجادة قبل أى شىء آخر . . وقد كتبت هذا المعنى للناظر ، غير أنهم وجدوا فى المدرسة أيضاً عدداً من مجلة الفكاهات المكشوفة بين الأوراق ، وهم يشكُّون بالطبع فيك ، إنهم يحملونك كل الخطايا . . فحذارِ يا صغيرى ، وإلاَّ فسينتهى الأمر إلى طردك من المدرسة ، ولم يبق على الامتحان غير ستة أشهر » رد قائلاً : « لا » .

فقال له : « ولِمَ لا ؟ ». قال : « لأن احتمالات عدم رسوبى فى هذا الامتحان كثيرة ، فأنا أُعيد السنة ، وهم لهذا لن يطردونى ، إنى أعرفهم جيدًا ـ تخطىء لو اعتقدت أنهم يفرطون فى واحد ممن يُحتمل نجاحهم ! ولتعلم أنه حتى إذا طردونى ، فإن اليسوعيين سيتلقفوننى . . إنهم يفضلون أن أحمل العدوى للآخرين ، كما يقال ، على أن يفقدوا واحداً من جملة الثانوية فى بياناتهم الإحصائية ، وهكذا يسهل تخيلك لصوت خارج وهو يُدَوِّى يوم توزيع الجوائز قائلاً : «تقدَّمَ للامتحان ثلاثون طالباً ، نجح منهم ثلاثة وعشرون ، واثنان لا يزالان قيد القبول ! وهنا تضج القاعة بعاصفة من التصفيق . . يا لهم من أوغاد! » .

كلا ، كلا ، يا صغيرى .

قالها الطبيب وهو يضغط على نداء « يا صغيرى » ، فلعلها تكون اللحظة التى يمكنه أن يتسلل فيها إلى ذلك القلب المستحيل ، علماً بأنه لا يجهل أن ابنه لم يكن يقبل ، منذ زمن طويل ، أى شىء يمكن أن يُفسر على

أنه تنازل عن مواقفه ، غير أن ومضة من الثقة لمعت هذه المرة من خلال كلماته الساخرة ، ولكن كيف يستطيع أن يقنع ابنه بكلمات لا تضايقه ؟ وكيف يؤكد له أن بعض الذين يجرحون مشاعرنا إنما يفعلون ذلك لمصلحتنا؟

كان الطبيب يبحث عن أفضل الصيغ التى تؤدى هذا المعنى ، حينما انتهى طريق الضواحى إلى أحد الشوارع ، فى ذلك الصباح الصحو والمكفهر معاً ، حيث يزدحم ببائعى اللبن وعرباتهم الصغيرة ، وكان لم يبق على النزول سوى بضع دقائق عندما يظهر صليب « سان جين » الذى يقدسه حجاج « سان جاك دو كومبو ستيل » ، والذى لم يعد يهتم به سوى مراقبى السيارات العامة . لم يجد الوالد فى النهاية كلاماً يقوله لولده ، فأمسك بيده الدافئة بين يديه بحنان ، وكرر قوله بصوت منخفض : « يا صغيرى » ، غير أنه لاحظ أن « ريمون » أسند رأسه فى تلك اللحظة إلى لوح زجاجى واستسلم للرقاد تقريباً .

كان الصبى قد أغمض عينيه حتى لا يخونه ضعفه فيبدى رغبة الاستجابة لوالده . كان وجهه كأنه صخر ، لم يبق فيه شىء ينم عن الحسن غير رفَّتَيْن فى جفنيه ، فجعل يسلم يده لأبيه بدون أن يستشعر شيئاً .

وجود هذه المرأة فى حياته ، هل كان قبل المشهد الذى دارت أحداثه عند سيارة الأجرة أم بعده ؟ هذه المرأة الجالسة قريباً منه ، لا يفصلها عنه سوى مائدة، بحيث يمكنه أن يخاطبها من مكانه بدون حاجة إلى رفع صوته . هى تبدو الآن رابطة الجأش ، تشرب بدون خوف من أن يعرفها «ريمون » ، ومع هذا تصوب نظراتها إليه من حين إلى آخر ثم تتحول عنه بسرعة ، غير أنه تبين صوتها الذى علا فجأة وسط ضجيج الحانة وهى تقول : « هاهى ذى جلاديس » حين لمحت اثنين يدخلان من باب الحانة ويجلسان بينها وبين

مرافقها ، وأخذ الجميع يتحدثون فى وقت واحد قائلين : « إننا لا ننتهى من إيداع الملابس ـ ودائماً ما نصل قبلكم ـ المهم أنكم وصلتم » .

كلا ، لابد أن دخولها فى حياته قد حدث قبل مشهد مائدة الطعام ـ بينه وبين والده ـ بعام واحد ، ذلك المشهد الذى حدث فى أواخر أيام الربيع ، ولم يكن مصباح غرفة الطعام مضيئاً ، عندما قالت الأم لزوجة ابنها : «أعرف يا لوسى لمن هذه الأبسطة البيضاء التى شاهدتها فى الكنيسة » .

وظن « ريمون » أن هذه العبارة ستكون مقدمة لحديث لاينتهى ، تموت عباراته الكثيرة التى لامعنى لها عند أذنى الطبيب ، والتى غالباً ما تدور حول الأعمال المنزلية . كانت كل منهما تدافع عن الشغالين ، فالإلياذة الحماسية المشئومة تدور بجوار المطبخ حيث يحتدم الشجار ويتأجج ، فى حين تبدو غرفة الطعام كأنها جبل الأوليمب ، حيث تأوى الآلهة وهى تمنح الحماية والوقاية من الشرور والآثام . ففى تلك الآونة كانت العائلات تتنازع الشغالات ممن يعملن باليوم ، فتقول الأم لمارلين باسك إذا شكت من أن ملابس أطفالها فى حاجة إلى الإصلاح : « مع أنك تستعينين دائماً بترافايوت» فترد قائلة : ما علينا ، فلو أنك أرسلت فى طلب ماريا ذات الأنف المكسور! » . فتقول : « لا ، ماريا ذات الأنف المكسور أبطأ بكثير فى العمل من ترافايوت ، كما أنها تلزمنى بدفع أجرة الترام » .

غير أن الفكرة التى نجمت من مشاهدة الأبسطة البيضاء فى الكنيسة ، تسببت فى إثارة شجار أكثر خطورة من سابقه ، فقالت الأم مستطردة : «لقد فرشت هذه الأبسطة من أجل ابن ماريا كروس الصغير ، فقد مات بعد إصابته بالتهاب السحايا ، ويبدو أنها طلبت أن تكون التجهيزات فى

الكنيسة من الدرجة الأولى . قالت مارلين : « يا لها من قلة ذوق ! » .

وما إن أبدت الزوجة هذه الملاحظة ، حتى رفع الطبيب عينيه ، وكان مستغرقاً فى قراءة إحدى المجلات وهو يتناول الحساء ، وهنا غضت الزوجة الطرف ، كما كانت تفعل دائماً ، إلا أنها أخذت تقول غاضبة : « من المؤسف أن القس لم ينبه هذه المرأة لتراعى الاحتشام ، وهى الماجنة التى يعرفها سكان المدينة ، والمتباهية بذلك البذخ السفيه ، وبتلك الخيول والعربات وغيرها . مد الطبيب يده وهو يقول : « دعونا من الحكم عليها ، فلسنا نحن الذين تعمدت جرح مشاعرهم » . قالت : « والنصيحة أليس لها حساب ؟» .

وما إن ظهرت على وجه الطبيب علامة اشمئزاز ، تبين أنها غير مهذبة فى ألفاظها حتى جاهدت فى خَفْضِ صوتها ، وإن عادت إلى الصياح من جديد وهى تقول : « مثل هذه المرأة كثير فى نفسها النزاع والكراهية لهذا البيت الذى عاشت فيه طويلاً صديقتها القديمة مدام بوفار حماة فكتور روسيل ، والذى تسكن فيه الآن امرأة تعد من عجائب الزمن ، فكلما مرت من أمام الباب أصابتها مرارة فى القلب » .

قاطعها الطبيب ، بصوت هادىءلا تكاد تظهر نبراته ، وهو يقول : «ليس فى البيت هذا المساء ، غير أم تجلس إلى جوار فراش وليدها الميت » . وهنا قالت الزوجة بعد أن رفعت أصبعها الصغير إلى أعلى كمن يعلن حكماً من أحكام القضاء : « إنه عدل الله » .

سمع الصغار صوت المقعد وقد أزاحه الطبيب فجأة بعيداً عن المائدة ، ثم وضع المجلات فى جيبه ، وتوجه نحو الباب ؛ بدون أن يتفوه بكلمة

واحدة ، وهو يخطو خطوات حاول تهدئة سرعتها ، ومع ذلك سمعت العائلة بأجمعها وقع أقدامه وهو يصعد السلم الذى كان يقفز درجاته أربعاً. أربعاً دفعة واحدة .

قالت السيدة « كوريج » ونظراتها تقول بعد أن أمعنت النظر فى وجه حماتها : « إنه مريض » .

لم يبد على السيدة العجوز ما يؤكد أنها سمعت ما قالت زوجة ابنها ، فلم تغير من جلستها ، بل ظلت على وضعها . انفجر « ريمون » ضاحكاً، فقالت له أمه : « اخرج من هنا واضحك بعيداً عنا ، ولا تعد إلاَّ بعد أن تنتهى من الضحك » .

ألقى «ريمون » بالمنشفة وخرج إلى الحديقة ، ثم قال لنفسه : « ما أروع الهدوء ! يبدو أن الربيع ينتهى » . . إنه الربيع ؛ لأن « ريمون » تذكر أنه رأى الطيور وهى ترفرف فى طيرانها ، وتذكر أنه أنهى طعامه بفاكهة الفراولة . جلس وسط المروج على حجر من أحجار الحوض الدافئة التى تحجز المياه . كان يرى وهو جالس هكذا خيال والده وهو يتوارى فى الطابق الأول بين النوافذ ، وهذا الغسق الهابط على إحدى القرى القريبة من « بوردو» ، أخذت أجراس الكنيسة تدق دقات متباعدة حزنا على وفاة ابن هذه المرأة ، التى كانت تفرغ كأسها فى تلك اللحظة ، وهى على مقربة من ريمون الذى يستطيع أن يلامسها إذا مد يده قليلاً . لاحظ « ريمون » أن « ماريا كروس » أخذت تنظر إليه بعد أن شربت الشمبانيا بتحرر ، غير مبالية بمعرفته لها . لا يكفى أن يصفها الإنسان بأنها مازالت شابة ، فعلى الرغم من شعرها القصير وعدم ارتدائها شيئاً مما يتمشى مع أزياء هذا الشتاء ، فإن جسدها لايزال محتفظاً بتناسقه مع أزياء عام 1919 ، فهى شابة حقا ، ولكن شبابها

متفتح إلى أقصى درجة ، وقد ثبت على هذا الحال منذ خمسة عشر عاماً متصلة ، وهى شابة من نوع لم يعد موجوداً ، لم تكن جفونها تستطيع أن تكون أكثر انكساراً حينما كانت تقول لريمون : عيوننا متآخية .

تذكر « ريمون » أنه كان يشرب الكاكاو باللبن فى غرفة الطعام منذ الفجر فى اليوم التالى الذى غادر فيه والده المائدة ، وكان يرتعد فى جو معبق برائحة البن الطازج ؛ لأن نوافذ الغرفة كانت مفتوحة يخيم عليها الضباب ، كان الطبيب قد تأخر فى الخروج هذا الصباح عندما دخلت السيدة «كوريج» على ابنها وهى ترتدى أحد ثياب النوم برقوقى اللون ، وشعرها على تصفيفه وتجديله الليلى . . طبعت قُبلة على جبين ابنها وهو يتناول طعامه وقالت له : ألم ينزل أبوك بعد ؟ . . ثم قالت : إن لديها رسائل تريد أن تعطيها إياه ليضعها فى صندوق البريد . . ومع هذا لم يغب عن ريمون سبب حضورها فى هذا الوقت المبكر ، ففى هذه الأسرة التى يشاكس بعضهم بعضاً تتأصل عادة الشك وسوء الظن لدى كل فرد من أفرادها ، فضلاً عن حب الاستطلاع والتجسس ، ومفاجأة الجار متلبساً بأى عمل ؛ ولهذا كانت الأم تقول عن زوجة ابنها : « إنها لا تبوح لى بشىء ، ومع هذا فأنا أعلم عنها كل شىء » . وهكذا كان كل فرد يدعى أنه يعلم عن الآخرين كل شىء ، وأنه الوحيد الذى لايمكن أن يعرف عنه أحد أى شىء. وكان « ريمون » يعتقد أنه يعلم سر مجىء والدته ، إنها تريد فى الواقع أن تصحح خطأها ؛ لأنها ظلت تحوم حول زوجها منذ حادث اليوم السابق فى محاولة لكسب رضاه وعطفه ، فقد كانت الزوجة دائماً تكتشف بعد فوات الأوان ، أن لاشىء أقدر من كلامها على إغضاب زوجها الطبيب، وكانت كل محاولة تبذلها للتقرب إليه تزيده بعداً عنها ، وتحولها

بالنسبة إليه إلى كابوس فى أحلامه المزعجة ، ولم يتمكن من اعتبار كل ما تفعله أو تقوله شيئاً فشيئاً سلبياً ، فكانت كلما مدت إليه ذراعيها تحسساً لمواقع الرضا منه ، ارتدت إليها ذراعاها بعد أن تكونا قد نالتا منه ما يناله وخز الإبر والجروح .

ما إنْ سمعت السيدة « كوريج » صوت باب غرفة الطبيب فى الطابق الأول يُوصَدُ حتى أفرغت القهوة الساخنة فى القدح ، وخاصمت الابتسامة وجهها الذى أرهقه السهد والأيام المتشابهة المجهدة ، تلك الابتسامة التى خبت بسرعة لمجرد ظهور الطبيب ، وبادرته بلهجة فيها تعالٍ وريبة وهى تقول : هل ترتدى ثوب الرسميات والمناسبات ؟ فقال : لعلك ترين ذلك جيداً . فقالت له : أذاهِبٌ إلى حفل زواج أم إلى جنازة ؟ قال : إلى جنازة . قالت : ومن الذى مات ؟ قال : إنسان لاتعرفينه . فقالت : لا مانع مع ذلك من أن تذكره لى . قال : كروس ، الطفل . قالت : ابن ماريا كروس؟ هل تعرفها ؟ لم تذكر ذلك من قبل ، فأنت لا تقولْ لى شيئاً على الإطلاق ، على الرغم من أننا نتحدث على المائدة أحياناً عن هذه المرأة الماجنة .

عند هذا الحد وقف الطبيب وتناول قدح القهوة ، ثم أجابها بصوت حاول أن يكون هادئاً ، ولكنه كان يكشف عن حنق شديد ، وهو يجاهد فى تخفيف حدته : ألم تدركى بعد ـ برغم مرور خمسة وعشرين عاماً على زواجنا ـ أننى لا أتحدث عن زبائنى إلاَّ بمقدار يسير ؟ .

الواقع أنها لم تفهم ذلك ؛ لذا أصرت على ادعاء الدهشة لعدم علمها بغير طريق الصدفة بأن الطبيب يعالج سيدة من معارفها ، واستطردت تقول : تخيَّلْ موقفى عندما يقول لى الناس : كيف ؟ ألا تعرفين ؟ فأجد نفسى مضطرة إلى إخبارهم بأنك لا تثق بى إطلاقاً ، ولا تحكى لى أى شىء

على الإطلاق . . ولكن قل لى : هل كنت تعالج هذا الصغير حقًّا ؟ وما سبب وفاته ؟ عليك أن تخبرنى ، فأنا زوجتك ولا أفشى الأسرار ، وإن كان الإفشاء لا يضير مثلهم .

هب الطبيب منتصباً ، وكأنه لم يسمع شيئاً ، وكأنه لا يراها ، وارتدى معطفه وصاح مخاطباً « ريمون » : أسرع . الساعة دقت السابعة منذ فترة طويلة . فراحت السيدة « كوريج » تهرول خلفهما وهى تردد : ما الذى أغضبك فيما قلت ؟

أغلق باب العربة الصغيرة التى حجبتها الأشجار وقد بدأ ضوء الشمس يمزق الظلام ، فلم تتمكن من العودة إلى البيت إلاّ وهى تحدث نفسها بكلمات غير واضحة .

داخل العربة كان « ريمون » يرقب أباه فى فضول زائد تدفعه رغبة قوية وشوق عارم فى معرفة سر من الأسرار ، فمن يدرى ؟ لعلها تكون اللحظة التى يستطيعان فيها التقارب ، ولكن الطبيب كان شارد الذهن ، بعيداً بأفكاره عن الصبى الذى ودَّ دائماً أن يستحوذ عليه ، ويستأثر به فريسة صغيرة تقدم إليه نفسها . . ولكنه ظل غافلاً عنه ، وبدلاً من انتهاز هذه الفرصة لتقريب ابنه إليه ، أخذ يتمتم بكلمات غير واضحة ، كما لو كان وحيداً فى العربة ، وأخذ يقول لنفسه : « كان علىَّ أن أستدعى طبيباً جرّاحاً ! كان لابد من المحاولات مهما كانت صعبة ! » . وطوح قبعته المرتفعة المنتفخة إلى الوراء ، وفتح الزجاج ، وأخرج رأسه غزيرة الشعر نحو الطريق الملىء بالعربات ، وما إن وصل إلى السياج حتى قال لابنه : إلى اللقاء عند المساء . ومع هذا لم تُتابع عيناه ابنه « ريمون » .



الفصل الثالث

في الصيف التالى كان « ريمون » قد بلغ سبعة عشر ربيعاً ، ويذكر أنه كان صيفاً شديد الحرارة ، بلا ماء ، لم يأتِ بعده صيف مثله ، فقد أرهق المدينة برغم كثرة مبانيها الحجرية ، فصار الجو غير محتمل، ومع هذا فهو يتذكر شهور الصيف فى « بوردو » ، تلك المدينة التى تحميها التلال من رياح الشمال ، وتظللها أشجار الصنوبر فى أطرافها ، فضلاً عن أكوام الرمال التى تتجمع وتتركز فيها الحرارة ، تلك المدينة التى تفتقد الأشجار، فيما عدا حديقتها العامة.، بحيث كان يعتقد الأطفال وهم يموتون عطشاً أن الخضرة تنتهى فى العالم ، أو توشك على الانتهاء خارج أسوار الحديقة المشهورة .

لربما خلط « كوريج » وهو يتذكر ، بين حر الصيف فى تلك السنة وبين اللهيب الذى كان يستعر فى قلبه ويدمره مع ستين صبيًّا من عمره ، احتُجِزُوا داخل أسوار فناء يفصله جدار دورات المياه ، وكان على اثنين من المشرفين الوقوف فى وجه قطيع الصبية الموشكين على الموت ، والرجال المقدمين على الحياة ، أما الأطفال النامون فكانوا كأنهم غابة إنسانية توزع نماء نباتها الرقيق على بضعة أشهر ، ذلك النبات الذى ما كان لينمو لولا الإنماء الطبيعى فى بيئة يحيط بها الضعف من كل جانب . وفى الوقت الذى كانت

فيه الدنيا وما يحدث من تشذيب سلالات هؤلاء جميعاً ، كان «ريمون كوريج» يقذف فيها بكل طاقته من قلة الأدب والحياء ، كان يبث الخوف والرعب فى نفوس أساتذته ، لدرجة أنهم عزلوه مزاراً عن باقى زملائه ، كانوا يعزلون الصبى بوجهه الممزق على حد تعبيرهم ، والواقع أن جلده لايحتمل أبداً موسى الحلاقة . وكان « ريمون » فى رأى زملائه المجتهدين تلميذاً قذراً، يخفى فى حافظة أوراقه صور النساء ، ويقرأ وهو فى الكنيسة رواية أفروديت التى يخفيها تحت كتاب الصلوات ، ولهذا يقولون عنه إنه فقد الإيمان . . وكانت هذه العبارة تنشر الفزع والخوف فى المدرسة ، مثلما يحدث عندما تنطلق إشاعة فى أحد ملاجىء المجانين ، بأن أكثرهم خطورة اتجه إلى الحدائق مجرداً من ملابسه بعد أن حطم صديرى التكيف . وكان الجميع يعلمون أن « ريمون » كان فى أيام الأحد ـ التى نادراً ما يفلت فيها من عقاب الحجز بالمدرسة ـ يقذف بالزى وغطاء الرأس المزدان باسم العذراء ، وسط الأشجار ذات الأشواك ، وكان يرتدى بديلاً لذلك معطفاً من المعاطف الجاهزة بسوق الملابس المستعملة ، ويضع على رأسه قبعة تثير السخرية ؛ لأنها تشبه قبعات رجال الشرطة فوق الملابس المدنية ، ثم ينطلق إلى الأكواخ المشتبه فيها بمنطقة السوق ، وقد شُوهد فى ملعب الملاهى وهو يضم إلى صدره غانية يصعب تحديد عمرها .

وما إن حل يوم حفل إذاعة النتائج وتوزيع الجوائز المهاب ؛ حتى أعلن المسئولون بالمدرسة على الحاضرين الذين أرهقتهم حرارة الجو فى هذا المكان الذى تكاد أوراق أشجاره تدخن من شدة القيظ – أن الطالب «ريمون كوريج» نجح ، بتقدير أقل من المتوسط . وكان هو الوحيد الذى يدرك مدى الجهد الذى بذله بشكل منتظم برغم ما يسود حياته من اضطراب

وفوضى حتى لا يرسب فى الامتحان . وكانت قد سيطرت عليه فكرة ثابتة خالية من أى تردد ، خففت عنه عسف الساعات الطويلة التى كان يقضيها واقفاً فى وجه الحائط الطينى لهذا السجن حين يعاقبه مدرسوه ، وهى فكرة الرحيل والهرب فى فجر أحد أيام الصيف عبر طريق إسبانيا الكبير الذى يمر من أمام بيت آل كوريج ، وهو طريق تزيد من كثافته كتل البلاط الضخمة المرصوف بها ، والتى تذكرنا بالإمبراطور ومدافعه وحملاته . وكان يسعد وينتشى بكل خطوة من شأنها أن تبعده قليلاً عن جو المدرسة وعن عائلته الكئيبة . وكان من المتفق عليه أن يأخذ « ريمون » مائة فرنك من والده ، ومائة أخرى من جدته كمكافأة عند نجاحه فى الامتحان ، وكان يملك ثمانمائة فرنك ، ومعنى هذا أنه سيملك ورقة من فئة الألف فرنك ، يمكنه بها أن يطوف حول العالم ، وأن يصنع بها طريقاً لا نهاية له بينه وبين أقربائه .

وهذا سر تحمله الاستذكار فى أوقات حجزه بالمدرسة غير مبالٍ بلهو الآخرين . وكان يغمض عينيه أحياناً ويستغرق فى أحلامه ليرى الغناء الصداح بين أوراق شجر الصنوبر فى الطرق التى سيسلكها . كان يتخيل أنه سينزل فى حانة باردة ومظلمة ، ويجلس فاتر القوى فى قرية لا يعرف لها اسماً ، مرة فى ضوء القمر الساطع الذى يوقظ الديكة ، ويجعله يستأنف على الفور سيره ، وكسرات الخبز باقية بين أسنانه ، ومرة نائماً تحت كومة قش تحجب عن عينيه نجمة سماوية ، حتى توقظه يد الصباح الباكر الندية .

ومع هذا لم يهرب « ريمون » ، الذى أجمع أساتذته ووالده على أنه لا يتردد فى عمل أى شىء ، وأنه لا يتراجع أمام أى عائق ، ومع هذا كان خصومه أقوى منه دون أن يشعروا بذلك ؛ لأن هزيمة أى مراهق تبدأ عن

طريق اعتقاده بأنه يائس ، وخاصة وهو فى سن السابعة عشرة ، فهو يقبل عن طيب خاطر ما يفرضه عليه الآخرون . وبرغم أن « ريمون » كان جميلاً فى الحقيقة ، فقد كان لا يشك لحظة فى أنه شديد القبح والقذارة ، فلم يكن يدرك سمات وجهه النقية ، مقتنعاً بأنه لايثير لدى الغير سوى الاشمئزاز ، مستبشعاً نفسه ، متيقناً أنه لن يقدر يوماً على رد معاداة العالم له ؛ لهذا لم تثر فيه الإجازة الدراسية الرغبة فى الهرب ، بل أثارت فيه الرغبة فى الانزواء ، ليس هذا فحسب ، بل الرغبة كذلك فى إخفاء وجهه عن الناس ، وعدم الرغبة فى التصدى لكراهية من لا يعرفهم .

غير أن الصبى المنحرف الذى كان أبناء الحى يخشون لمس يده ، كان يجهل مثلهم كل شىء عن المرأة ؛ لأنه كان يرى أنه غير جدير بأحقر امرأة دنسة ، فهو يخجل من تكوين جسده ، ولم يستطع والده ومدرسوه تبين نزعة التحدى البائس لهذا المراهق السعيد بالفوضى والقذارة ، لكى يقتنعوا جميعاً بأن بؤسه من ذلك النوع الذى سعوا هم إليه يوماً ، وأن ما يرونه ليس سوى كبرياء جريح لمرحلة من العمر ذليلة يائسة من كل أمل .

كانت إجازته ـ بعد نجاحه فى درس البيان ـ إجازة خالية من فكرة الهرب، فقد قضى هذه الفترة فى جُبن خفى ؛ لاعتقاده بأنه يرى الازدراء فى عينى الخادم التى ترتب غرفته ، ولم يكن يجرؤ على مواجهة النظرة القوية العميقة التى يلقيها عليه والده الطبيب أحياناً .

حل شهر أغسطس ، فذهبت عائلة باسك إلى أركاشون لقضاء عدة أيام، فلم تبق مع ريمون أجسام الأطفال الغضة كالنباتات ، والتى كان يحلو له أن يداعبها بشىء من العنف .

وإن كانت السيدة « كوريج » ترضى بقولها من حين إلى آخر : « إنه لشيء لطيف أن يشعر الإنسان أنه وحده فى بيته بدون شريك ، وكانت بهذا تثأر لنفسها من قول ابنتها : أنا وجاستون فى حاجة إلى العزلة كعلاج » . ومع هذا فقد كانت السيدة المسكينة تعيش فى واقع الأمر على أمل أن تتسلم من ابنتها رسالة يومية . وكانت كلما هبت العاصفة واشتدت تتصور عائلة باسك مكتملة ، تقبع فى بيت صغير لا يقوى على مقاومة الريح . خلا البيت من نصف ساكنيه ، وكانت غرفه الشاغرة تؤذى مشاعرها ، فماذا ينتظر من هذا الصبى الذى لا يكف عن الجرى فى الطرقات ثم يعود وهو يتصبب عرقاً ، لا يشفى غضبه غير الانقضاض على الطعام كالدابة ؟

فإذا قيل لها : ولماذا الشكوى من الفراغ ولك زوج ؟

تقول : لا تَنْسَىْ ما ينتظر « بول » من عمل ، إنه مشغول حقًّا .

وإذا قالت الابنة : ولكنه يا أمى لم يعد يحاضر الطلبة ، كما أن أغلب زبائنه يقضون فترة الصيف فى مدن المياه .

تقول : إن الفقراء من زبائنه لا يرحلون ، كما أن لديه عمله بالمعمل والمستشفى ، وكذلك كتابة المقالات الطبية .

كانت الزوجة دائماً تهز رأسها فى مرارة وتبرم لهذا النشاط الذى يمارسه زوجها الطبيب ، وكانت تعلم أن حجم هذا النشاط لن يقل يوماً ، وأنه حتى لحظة الموت ، لن يستطيع أن ينعم بفترة راحة واستجمام يمنح فيها زوجته لحظات من حياته . لم تكن تحسب أن ذلك ممكناً ، ولم تكن تحسب أن الحب يمكنه دائماً أن يشق طريقاً ويحفر مكاناً ، حتى فى قلوب أكثر الناس انشغالاً ، لدرجة أن رجل الدولة المشحون بالعمل يوقف شئون البلاد

إذا اقتربت اللحظة التى ستكون فيها خليلته بالقرب منه . كان جهلها بهذه الأمور يعفيها من تحمُّل هذه المعاناة ، وإن كانت قد خَبَرَتْ يومًا ذلك النوع من الحب الذى يجعل الحبيب يتعقب عزيزاً لديه ولا يكف عن متابعته، فضلاً عن عدم حصولها على نظرة اهتمام منه ، فجعلها تؤمن بأن زوجها الطبيب لايمكن أن يهتم بامرأة أخرى ، لقد أصبح مستحيلا أن تتخيل امرأةً فى الوجود قادرة على لفت نظر الطبيب وجذبه خارج دائرة هذا العالم المبهم ، حيث الإحصاءات والملاحظات ، وتراكم بقع الدم والصديد بين قطعتين صغيرتين من الزجاج . إنها سيدة عاشت لسنوات بدون أن تعلم أن زوجها كان يهجر معمله فى أمسيات كثيرة ، وأن المرضى كثيراً ما انتظروه بدون جدوى ليخفف من آلامهم ، وبدلاً من أن يسرع لنجدتهم ، كان يفضل البقاء فى حجرة صالون مظلمة لا يتحرك ، وقد حبس أنفاسه واتجهت نظراته نحو امرأة ممددة على الفراش .

كان الطبيب يُضاعف من نشاطه حتى يوفر لنفسه خلال أيام العمل تلك اللحظات السرية ، فيجتهد فى إبعاد كل مايعترض طريقه أو يتراكم حوله ؛ لكى يهنأ بلحظات التأمل والحب الصامت الذى يقنع به من خلال النظرات الطويلة ، إلاَّ أنه كان يتسلم أحياناً قبل الموعد المنتظر رسالة من «ماريا كروس» تبلغه فيها أنها لن تلقاه ؛ لأن الرجل الذى ينفق عليها دعاها إلى تناول الطعام فى أحد مطاعم الضواحى ، عندئذ كان الطبيب ينهار ولا يجد مبرراً للحياة أو حافزاً ، إلا إذا قرأ فى نهاية الرسالة عن موعد آخر فى يوم آخر حددته له « ماريا كروس» ، وهنا تتعلق آماله بالموعد الجديد الذى يمس كيانه كما تفعل المعجزات وتدعوه لمواصلة الحياة ، وبرغم أن العمل كان يستغرق كل وقته فإنه كان كلاعب الشطرنج الماهر ، يمكنه بنظرة

خاطفة فتح الثغرات التى ينفذ منها ، بعد أن يكون قد أعد الترتيبات اللازمة ، حتى يجلس فى اللحظة المرتقبة فى حجرة الصالون ، بدون حراك ، هانئاً بالفراغ ، محتبساً أنفاسه ، موجهاً نظراته نحو المرأة الممددة فى فراشها ، فإذا مرت الساعة التى كان ينبغى فيها أن يلحق بها فى حالة عدم اعتذارها ، يسعد وهو يقول لنفسه : لو تم اللقاء لاتنتهى كل شىء ، أما الآن فأمامى من الوقت ما يمنحنى السعادة والأمل .

الواقع أن أعماله كانت كافية لشغل الأيام التى لا يلتقيان فيها ، وكانت هى الملاذ الذى ينسى به شعوره بالوقت والحب معاً ، أما أبحاثه العلمية فكانت تلغى الزمن تماماً ، بحيث تمر الساعات ولا يشعر بها ، حتى يكتشف فجأة أن الوقت حان للتوجه إلى بيت « ماريا كروس » خلف كنيسة « تالانسى » حيث عليه أن يدق بابها .

كان الطبيب فى هذا الصيف أقل رعاية لابنه من أى صيف آخر ، نظراً لكثرة مشاغله ، وكان يردد بسبب ما يحتفظ به من أسرار مخجلة ، قوله : «إننا نعتقد دوماً أن الحوادث المختلفة لا تعنينا فى قليل أو كثير ، وأن حوادث الاغتيال والانتحار والآداب تخص غيرنا » ومع هذا لم يعرف وقتها - وكان شهر أغسطس شديد القيظ - أن ابنه كان على وشك التورط فى عمل من الصعب معالجته ، كان « ريمون » يريد أن يهرب ، غير أنه فى الوقت نفسه لم يكن يرغب فى أن يراه أحد ، فلم يعد يجرؤ على الدخول فى أى مقهى أو محل ، وقد يحدث أن يمر أمام أحد هذه الأبواب مرات بدون أن يحاول فتحه ، هذه الهيبة وذلك التردد جعلا فكرة الهروب مستحيلة ، برغم ما يعانيه فى البيت . وكم مرة بدا له حين يهبط المساء أن الموت هو أسهل طريقة للخلاص ، ففى إحدى الأمسيات فتح درج المكتب ، حيث كان أبوه يخفى

مسدساً قديماً ، ولكنه لم يعثر على طلقاته . وبعد ظهر أحد الأيام خرج من البيت ومضى عبر الكروم ، ثم مشى فى اتجاه بركة الماء أسفل المروج الجدباء ، وكان يأمل فى أن تلتف الأعشاب بساقيه ، بحيث لايتمكن من التخلص من الماء الموحل ، فيؤدى الأمر إلى امتلاء فمه وعينيه بالوحل ، فضلاً عن أمله فى ألاَّ يراه أحد ، ولا يرى هو أحداً . كان البعوض يتراقص فوق الماء ، فى حين أخذت الضفادع المنتشرة فى المنطقة تثير الانزعاج فى الظلمة ، ورأى «ريمون» شيئاً أبيض اللون وسط الظلام الحالك ، رأى حيواناً ميتاً ، كان قد اشتبك ببعض الشجيرات . وكان الذى أنقذ ريمون من الموت فى ذلك اليوم الاشمئزاز وليس الخوف ! .

ولحسن الحظ لم يكن ريمون وحيداً فى كل الأحيان ، فأرض التنس ببيت آل كوريج كانت تجذب شباب البيوت المجاورة ، وكانت السيدة « كوريج» تلوم عائلة باسك على تمسكها بتحمل نفقات هذه اللعبة ، ومع هذا فقد سافروا فى الوقت الذى كان عليهم أن يبقوا ليمارسوا اللعبة ، فلم يكن يفيد من هذا الوضع سوى الغرباء ، ومعهم صبية جمع الكرات بملابسهم البيضاء ، بعد أن يَصلوا فى صمت ، نتيجة لأحذيتهم الكاوتشوك التى لا تُحدث صوتاً ، حتى فى وقت القيلولة الذى يأخذ فيه الناس قسطًا من الراحة، كان هؤلاء الغرباء يجيئون فى ذلك الوقت ويلقون التحية على السيدات ، وكانوا يسألون عن «ريمون» ، ثم يعودون وضوء النهار لا يزال يتلألأ فى كبد السماء . وكانت السيدة « كوريج» تئن وهى تقول : « إنهم لا يكلفون أنفسهم حتى القيام بإغلاق الباب » .

كان أنينها وغضبها بسبب الحرارة التى تتسرب إلى داخل غرفتها من جراء ترك الباب مفتوحاً . وكان من الممكن أن يوافق «ريمون» على الاشتراك فى

للعب ، غير أن وجود الفتيات كان يجعله يهرب من الساحة ، خاصة وجود ماري تيريز ، وماري لويز ، ومارجريت ، وهن ثلاث شابات من عائلة كوسروج ، شقراوات ، بدينات ، يُصَبْنَ بالصداع بسبب شعرهن الغزير ، لأنه كان لا مفر من أن يحملن فوق رءوسهن هذه الكومة العالية ذات الجدائل الصفراء التي لا تكفيها الأمشاط لشبكها وإحكامها ، مما يجعلها مهددة بالتفكك والانهيار . كان ريمون يكرههن ويقول متعجباً : ما الذي يُضْحِكُهن باستمرار ؟ فقد كُنَّ دائمات الضحك بصوت مرتفع ، وكن يَجِدْنَ أن الآخرين مدعاة للضحك باستمرار ، ومع أنهن لايضحكن أبداً من «ريمون» وهذه حقيقة ، فإن عيبه كان يدفعه إلى الاعتقاد بأنه مثار سخرية العالم أجمع . وإلى جانب هذا كان يكرههن لسبب آخر أكثر دقة ووضوحاً ، ففي الليلة السابقة على سفر عائلة باسك لم يتمكن من رفض طلب زوج أخته بتدريب الحصان الضخم للركوب ، والذي تركه الملازم في الحظيرة ، ذلك أن « ريمون » وهو في هذه السن كان إذا امتطى صهوة جواد واستقر على سرجه يصيبه الدوار ، ويجعله أكثر الفرسان مدعاة للسخرية والتهكم ، أما شابات أسرة كوسروج اللواتي شاهَدْنَهُ ذات صباح في طرقات الغابة متشبثاً بسرج الجواد ، ثم مُلْقىً بقوة على الرمال ، فلم يكن يحلو له أن يراهن، لأنه سرعان ما كان يتذكر ضحكاتهن الساخرة العالية التي أُطلقت عليه وقتها ، هذا إلى جانب أنهن كن كلما قَابَلْنَهُ يحلو لهن أن يذكرنه بواقعة سقوطه من فوق الجواد ، وكانت أكثر المداعبات رقة تثير في قلبه الصغير عاصفة ، وكان في بغضه لَهُنَّ جميعاً لايفرق بين واحدة وأخرى ، فكان يرى فيهن كتلة مخيفة ثلاثية البدن ، ودائمة العرق ، تقبع تحت الأشجار الساكنة في أيام أغسطس ، وبعد الظهيرة مباشرة .

كان « ريمون » يركب القطار أحياناً ويجتاز « آتون بوردو » إلى أن يصل إلى أرصفة السفن ، حيث الماء الراكد بلا حياة ، والخالى إلا من بقع الزيت والنفط المتخلفة من المراكب ، وقد اختطلت ألوانها وتجمعت فصارت تشبه قوس قزح ، وحيث ترتع أجساد هزلت من البؤس والمرض ، ومع هذا يضحكون ، ويتعقب بعضهم البعض الآخر بأقدامهم العارية التى تترك آثارها المبتلة الضعيفة وهى تدق الأرض المغطاة بالبلاط .

عاد أكتوبر من جديد ، وكانت مرحلة الانتقال قد تمت ، واجتاز «ريمون» أخطرها فى حياته ، وأصبح على شفا الإنقاذ ، بل لعله قد نجا فعلاً بعودته إلى المدرسة فى بدء العام الدراسى يحمل كتبه الجديدة التى كان يحب أن يشم رائحتها ، فهى التى أمدته فى ذلك العام بكل الأحلام والسبل الإنسانية جميعاً ، فى الوقت الذى بدأ يتقبل فيه الأمور على علاتها . وكان على شفا الإنقاذ ليس بفضل جهوده وحدها ، فالوقت كان قد حان لدخول امرأة فى حياته ، إنها هذه المرأة ذاتها التى كانت تمعن النظر فيه هذا المساء من خلال دخان التبغ وزبائن الحان الصغير ، برغم أن الزمن لم يُغير من سمات جبينها العريض الهادىء أى شىء .

كان خلال أَشْهُر الشتاء التى أمضاها قبل لقائه بهذه المرأة فريسة للخمول المطبق ، الممزوج بالسذاجة والبَله ؛ ولهذا لم يعد هو الطالب الذى يُعاقَب من مدرسيه بشكل دائم لأنه كان ينفذ كل الأوامر بطيب خاطر ، مع مراعاته للنظام ، وهو الذى استبدت به خلال الإجازة وعذبته فكرتا الهرب والموت . وصار يتذوق أكثر مما مضى طعم العودة اليومية إلى المدرسة والرحلة المسائية من ضاحية إلى أخرى ، فما إنْ يجتاز عتبة المدرسة ، حتى يندمج فى معالم الطريق الصغير الرطب الذى يعبق برائحة الضباب أحياناً ،

وأحياناً أخرى يعبق بقسمات البرد الجاف ، وكان يألف أيضاً تلك السمات الغائمة المكفهرة أحياناً ، الصافية أحياناً أخرى ، وقد زينتها الكواكب ، أو أضاء القمر سُحُبَها المشدودة من الداخل حتى لا تُرَى . بعد ذلك يترامى له مكتب الضرائب ، والترام الذى يندفع نحوه المراهقون الطيبون بملابسهم الرثة ، وكان المستطيل الأصفر الكبير يتوغل فى مناطق شبه ريفية وسط الحدائق الموحشة الصغيرة التى تمتلىء بالماء فى الليل ، وفى ذلك الوقت من الشتاء .

أما فى البيت فلم يكن يشعر أنه تحت المراقبة المستمرة ؛ لأن الاهتمام الأكبر كان موجهاً نحو « الطبيب » بتركيز شديد . وكانت السيدة « كوريج » تقول لحماتها : أحواله تزعجنى ، ولكن ما أسعدك أنت ، لأن مزاجك لا يُعَكَّرُ بمثل هذه الأمور ! إننى أحسد من هن فى طبعك ! إن « بول » مرهق بالعمل ، ولا شك أنه يعمل كثيراً ، ولكن رصيده من الصحة لا يجعلنى أطمئن عليه » .

وهزت كتفيها غير مبالية بما كانت تُتَمْتِمُ به حماتها العجوز قائلة : « إنه ليس مريضاً ، ولكنه يعانى من الإجهاد » .

وعادت السيدة « كوريج » تقول : « ليس كالأطباء من هم أكثرُ إهمالاً فى علاج أنفسهم » . وكانت ترقب كل حركاته على المائدة أثناء تناول الطعام ، فأدار وجهه المنقبض نحوها وهو يقول : اليوم الجمعة ، لماذا تقدمين لى ضلح اللحم ؟ فقالت له : لأنك فى حاجة إلى نظام خاص فى الغذاء لبعث القوة . فقال لها : وماذا تعرفين أنتِ عن نظام التغذية الخاصة الباعثة للقوة وغير الباعثة لها ؟ فقالت له : لماذا لا تستشير أنت « دويلاك » فالطبيب لايمكنه أن يعالج نفسه ؟ فقال : ولكن لماذا تُصرين أنتِ ، يا لوسى

المسكينة على أنى مريض ؟ فقالت له : لأنك لا ترى نفسك ، إن منظرك مخيف ، هذا ما يلاحظه الجميع ، وبالأمس فقط لا أذكر من الذى سألنى بقوله : ماذا أصاب زوجك ؟ إنه يبدو مريضاً ، وبالتأكيد الكبد هو السبب فى كل هذا . قال لها : ولماذا الكبد دون أى شىء آخر ؟ .

وهناك قالت بصوت حاسم كمن يدلى بتصريح هام : لدىَّ هذا الإحساس ، فقد كانت تعتقد يقيناً بأن علته فى الكبد ، ولم يكن فى مقدور أحد أن يثنيها عن رأيها أو يبعدها عنه ، وكانت تلاحق الطبيب بتحذيراتها التى كانت تزعجه أكثر من إزعاج الذباب ، فتقول له مثلاً : تناولت فنجانين من القهوة ، سأنبه عليهم بعدم ملء الوعاء حتى لا تأخذ كل هذه الكميةُ ، وهذه ثالث سيجارة تدخنها بعد الأكل ، لا تَنْفِ ، فها هى ذى الأعقاب الثلاثة أمامك فى المنفضة .

وفى ذات يوم قالت لحماتها : الدليل على معرفته بمرضه أنى فاجأته أمس واقفاً أمام المرآة ، برغم أنه لايهتم بصحته كما تعرفين ، وقد أمعن النظر فى وجهه ، وأخذ يمر عليه بأطراف أصابعه وكأنه يحاول بسط تجاعيد جبينه ، وفَتَحَ فمه وفَحَصَ أسنانه .

كانت السيدة « كوريج» الأم تتفرس من تحت منظارها ، فى وجه زوجة ابنها كما لو كانت تخشى أن تكون قد تبينت فى وجهها الملىء بالحذر شيئاً يزيد على مجرد القلق ، الشك مثلاً ، وكانت العجوز قد أحست قُبلة ابنها بالأمس وقد صارت ضاغطة أكثر من ذى قبل ، وربما كانت تعلم ما يعنيه ثقل رأس هذا الرجل إذا ما عانى من الإهمال لحظة واحدة ، فقد اعتادت منذ بلغ ابنها سن الحلم أن تعالج أوجاعه التى لايقدر على تطبيبها فى

الوجود كله غير من تَسَبَّبَ فيها ، ولكن الزوجة لم تكن تعتقد إلا فى المرض الجسدى ، برغم أنها جُرحَت فى عواطفها نحوه منذ سنوات ، وكانت تقول له كلما جلس فى مواجهتها معتمداً وجهه الناطق بالألم والحسرة بين يديه : لابد من استشارة « دويلاك » ، هذا ليس رأيى وحدى ، بل هو رأينا جميعاً ، فيقول : دويلاك لن يقول شيئاً لا أعرفه . فترد : هل تستطيع أن تفحص نفسك أنت ؟

وكان الطبيب لايجيب عن السؤال لانشغاله بآلام قلبه المتقلص ، كما لو أن يداً أمسكت به وضغطت عليه . . وكان يعد نبضات قلبه بعناية أكثر مما يفعل مع أى مريض آخر ، وخاصة إذا كان قلبه لا يزال يدق على أثر تسليم نفسه لوصال « ماريا كروس» ، فيالها من صعوبة أن يبحث عن كلمة رقيقة أو إثارة فى حديث عاطفى مع امرأة تبدى له الاحترام ، وتفرض عليه صفة مقدسة هى الأبوة الروحية !

كان الطبيب يستعيد ظروف تلك الزيارة : ترك سيارته على الطريق الكبير أمام كنيسة تالانس ، وسار على قدميه فى طريق ملىء بالمستنقعات . مَرَّ وقت الغسق بسرعة ، لدرجة أن الليل هبط قبل أن يتخطى هو عتبة الباب ، وكان فى آخر الممر غير الممهد مصباحٌ يسقط لوناً أحمر على ألواح الزجاج فى الطابق الأرضى من مسكن قليل الارتفاع . لم يدق جرس الباب ، ولم يتقدمه خادم وهو يعبر غرفة المائدة ، بل دخل بدون استئذان غرفة الصالون حيث كانت « ماريا كروس » متكئة على أريكتها ، لم تقم لتلقاه ، وظلت تتابع القراءة للحظات ، بعدها التفتت إليه وهى تقول : حَسَن أيها الطبيب ، هأنذا تحت أمرك ، ثم قدمت إليه يديها ، وأزاحت قدميها قليلاً

حتى يجلس إلى جوارها وهى تقول مرة أخرى : لاتجلس على هذا المقعد ، إنه مكسور ، هنا نعيم وبؤس كما تعلم .

فى هذا البيت الريفى أسكن «لاروسيل» « ماريا كروس » سجاجيده ممزقة يتعثر فيها الزائر ، وستائره القديمة تخفى التشققات . ظلت « ماريا » صامتة ، فى حين أن الطبيب الذى يريد أن يبدأ حديثاً يتفق والاعتراف الذى يسعى إلى البوح به لم يسعد بوجود تلك المرأة فوق الأريكة التى تعكس وجهاً أكلته اللحية ، وعينين داميتين أتلفهما الميكروسكوب ، وجبيناً أصيب بالصَّلَع المبكر منذ أن كان يعد نفسه للعمل كطبيب امتياز ، ولكنه برغم هذا كله قرر أن يجرب حظه معها ، فما كاد يرى إحدى يديها ملقاة تلامس السجادة ، حتى أخذها بين يديه ، وقال لها فى صوت هادىء « ماريا » . . فلم تسحب يدها المستكينة الآمنة وقالت له : دكتور ، لستُ مصابة بالحُمَّى ، ولا حرارة عندى . ثم واصلت حديثها عن نفسها كما هى العادة دائماً : فعلتُ يا صديقى ما ستوافقنى عليه ، أخبرت « لاروسيل» أن العربة لم تعد لازمة لى ، وأن فى إمكانه بيع خيولها و إعفاء الحوذى «فيرمان» . ولكنه ضحك ؛ لأنه - كما تعلم - لا يستطيع أن يدرك نُبل العاطفة ، وبرغم أنه لا داعى لكل هذا الانقلاب بسبب نزوة لن تدوم سوى بضعة أيام ، فإنى مُصرة على ألاَّ أستخدم بعد الآن وبشكل دائم سوى الترام فى تنقلاتى ، بل وأستخدمه من اليوم وأنا عائدة من المقابر . لقد ظننت أنى عندما قررتُ ذلك أنك ستكون مسروراً . . وغير ذلك يشعرنى بأنىَ لم أكن جديرة بطفلنا الصغير الذى مات . . وأنى أصبحت أتمتع بحرية أكثر » .

وما إن أَنْهَتْ آخر لفظ فى آخر عبارة حتى رفعت إليه عينين مغرورقتين تتوسلان وتستعطفان ، فى محاولة للحصول على موافقته . وجاءتها موافقته

على الفور فى صوت عميق بلا حرارة ، فلم يسعه إلاَّ الموافقة على قرارها ؛ لأنها لاتكف عن دعوته باستمرار ، وبقولها : أنتَ ، يا من فى درجة عظيمة . . أنت ، يا أنبلَ مخلوق عرفته على الإطلاق . . أنتَ يا من يجعلنى مجرد وجودك أومن بالخير .

أراد أن يمنعها من الاسترسال فقال لها مقاطعاً : أنا لستُ كما تظنين يا «ماريا» أنا رجل مسكين توقظه غريزته كغيره من الرجال . فأجابته قائلة : إنكَ لو لم تحتقر نفسك ، لما كنت على هذا القدر من القداسة ، فقال : لا، لا ، يا «ماريا» . . لست قديساً ! فليس فى استطاعتك أن تعرفى .

كانت تنظر إليه فى إعجاب واهتمام ، ولكن لم يحدث مطلقاً أن قلقت مثل « لوسى كوريج» ولم تلحظ اعتلال صحته . غير أن هذا التقديس الذى خصته به هذه المرأة جعله يائساً فى حبه ، كما أسلمه إلى القنوط ، وحصر غريزته فى حدود الإعجاب . كان المسكين يقنع نفسه بأنه إذا ابتعد عنها فإنَّ أى عقبات يمكن لحب مثل حبه أن يتغلب عليها ، ومن جديد عندما يلتقى بها تبدَى نحوه كل احترام ، وتتضح له الحقيقة حتى قبل أن تبادله الحديث، الحقيقة المؤلمة التى لا سبيل إلى الخلاص منها ، وهى أن طبيعة علاقتهما لا يوجد ما يغيرها ، فهى ليست حبيبته أو خليلته ، وإنما هى تلميذة معجبة ، وهو معلم ومرشد وليس حبيباً أو خليلاً ؛ ولهذا تصور أنه إذا مد إليها ذراعيه ، أو حاول استمالتها أو اجتذابها ، فإنه سيكون فى جنونه هذا كالذى يقدم على كَسْر مرآة تماماً ، ولم يكن يشك فى أنها تنتظر انصرافه بفارغ الصبر . أما هى فكانت فخورة بأنها تثير اهتمام الطبيب ، وكانت ترى فى علاقتها بطبيب معروف قيمة كبيرة ، نتيجة لحياتها الهابطة ، ومع هذا فإن مجلسه كان يضايقها ! ومع أنه لم يكن يدرك أن زياراته ثقيلة

على قلبها ثقل الصخور فإن شعوره كان يزداد يومًا بعد يوم بأن مكنون قلبه يخفى عليها ، إلى حد عدم اكتراثه بها ، وهو التفسير الوحيد لعدم إحساسها بحبه . على أنها لو أحست بشىء من الحنين نحوه ، لَمَلأ سمعها وبصرها بحبه ، ولكن ـ للأسف ـ فى إمكان المرأة أن تغيب بروحها عن رجل جالس أمامها ، حتى ولو كانت تقدره حق قدره ، وتبجله التبجيل كله ، فهو يعاملها بطريقة تجعلها تتيه إعجاباً ، ولكنها تتبرم بمجلسه ، وتستثقل ظله، هذا ما اكتشفه الطبيب بنفسه ، وكان فى اكتشافه هذا ما يكفى لإرهاقه وتحميله ما فوق طاقته .

وقف الطبيب مقاطعاً « ماريا » حينما قالت : آه ، إنك لا تحسن توقيت مواعيد زياراتك ، ولكن إذا كان هذا عيبا فيك ، فما ذنب المرضى المساكين الذين ينتظرونك ؟ إننى لا أريد أن أكون أنانية ، . فأستبقيك لتكون لى وحدى!

لم يتركها تسترسل ، واتجه إلى غرفة المائدة الخالية من أى إنسان ، ثم إلى الدهليز ، وأخذ يستنشق عبير الحديقة البارد ، كما أخذ يفكر ـ وهو جالس فى العربة فى طريق عودته إلى البيت ـ فى زوجته لوسى ووجهها المركَّز عليه ، والممتلىء بالكآبة والحزن ، ذلك الوجه القلق عليه من كثرة غيابه ، والمترقب انتظاره ، وردد فى نفسه : علىَّ قبل أى شىء ألاَّ أجعل الآخرين يتألمون ! يكفى أن أتألم أنا ! يجب ألا يتألم الآخرون ! .

• • •

قالت له السيدة كوريج : تبدو هذا المساء أسوأ حالاً عمَّا كنتَ عليه قبل ذلك ، ماذا تنتظر لكى تذهب إلى « دوبلاك» ؟ إذا كنت لا تريد أن

تستشيره بشأن صحتك من أجلك ، فافعل هذا من أجلنا ، فالأمر لايتعلق بشخصك ، إنه يعنينا جميعاً » .

وأكدت مدام كوريج على صحة رأيها بشهادة ابنتها وزوجها باسك اللذين قطعا حديثهما الدائر همساً ليعلنا انضمامهما بكل جوارحهما إلى هذا الرأى . فقالت مارلين : نتمنى جميعاً من كل قلوبنا أن تعيش لنا أطول مدة ممكنة .

وما إن سمع الطبيب هذا الصوت الذى يكرهه ، حتى اعتراه الخجل مما كان يعتمل فى صدره ضد صهره ، فقال فى نفسه : « إنه على الرغم من كل شىء رجل طيب ، . . وأنا المخطىء فى حقه خطأ لا يغتفر » . ولكن ليس من السهل أن ينسى الأسباب التى حملته على كراهيته . لقد ظل الطبيب لسنوات طويلة لا يرى فى الزواج شيئاً يتفق وما كان يحلم به غير هذا الفراش الصغير القائم ناحية فراش الزوجية الكبير ، يشخص إليه هو وزوجته كل مساء ليتمتعا بالنظر إلى مارلين أول أولادهما وهى نائمة ، أنفاسها لا تُحَس ، ويلمحان قدمها وقد أزاحت الأغطية ، وتدلت يدها اللينة من بين قضبان فراشها الصغير ، كانت طفلة هادئة يمكن تدليلها بدون خطر . وكان حب أبيها لها يرضيها بحيث تبقى ساعات طويلة تمرح بدون ضجة فى مكتبه . وكثيراً ما كان يكرر قوله وهو ينظر إليها : وتقولون إنها ليست كثيرة الذكاء ، إنها هكذا أفضل من أن تكون ذكية . ومرت الأيام ، وأصبح يحلو له أن يلتقى بالناس وفى صحبته ابنته الشابة ، هو الذى كان يكره الخروج مع زوجته السيدة كوريج . وكان يقول لابنته فى بهجة وسرور : الناس يعتقدون أنكِ زوجتى . اختار لها عندئذ «فريد روبنسون» من بين الطلاب ؛ لأنه الوحيد الذى يشعر بأنه يفهمه ، وكان الطبيب يدعوه بقوله : يا ولدى،

وكان ينتظر أن تبلغ ابنته ثمانية عشر عاماً ليزوجه بها ، ولكن ، ما إن حان أول ربيع ظهرت فيه فى المجتمع حتى أبلغت أباها إتمام خطبتها إلى الملازم «باسك» كانت مفاجأة سيئة قاومها الطبيب مقاومة شديدة ، وظل معترضاً على هذه الخطبة على مدى شهور ، إلاَّ أن معارضته كانت غير مفهومة ، لا من العائلة ولا من المجتمع نفسه ، إذ كيف يرفض هذا الضابط الثرى ، العريق الأصل ، اللامع المستقبل ، ويفضل عليه طالباً بسيطاً ، لايملك شيئاً ، مجهول النسب ؟ وكان الناس يعللون سلوك الطبيب بأنانية العالِم .

كانت أسباب الطبيب ـ فى هذا التفضيل ـ أسباباً خاصة ، بحيث لا يمكنه أن يفضى بها إلى المحيطين به أو المقربين منه . كان يشعر فى قرارة نفسه منذ عارض رغبة ابنته أنه أصبح عدوًّا لها ، لدرجة تخيل فيها أن موته يسعدها ، وأنه فى نظرها لايزيد على جدار قديم يفضل هدمه ؛ ولهذا ازداد عناده حتى بلغ أقصاه ، وأصر على رأيه وتشبث به ، لكى يرى إلى أى مدى يمكن أن تكرهه ، برغم أنها المفضلة لديه . ولم يبال حتى بأمه العجوز التى لم تقف إلى جانبه ، بل كانت تقامر ضده مع ابنته وخطيبها . ودبرت فى بيته ألف مؤامرة حتى يتمكن الخطيبان من اللقاء بدون علمه . وعندما استسلم مؤخراً للأمر الواقع ، وقبَّلته ابنته على خده ، رفع شعرها قليلاً كما كان يفعل من قبل ، ليلمس بشفتيه جبينها ، ومن حوله من يقول : إن «مارلين» تحب والدها إلى حد العبادة ، وهى المفضلة لديه دائماً ، ولاشك أنه سيظل يستمع لابنته تناديه حتى النهاية بقولها : يا أبى العزيز .

كان لابد من تحمل مخالطة هذا «الباسك» إلى أن يحل الأجل ، فقد كانت كراهية الطبيب له تظهر برغم الجهد الكبير فى إخفائها ، إلى درجة أن السيدة كوريج كانت تقول : من العجيب أن لابنتى «بول» صهراً يفكر بالطريقة

نفسها التى يفكر بها فى كل شىء . ومع هذا فهو لا يحبه . كان الطبيب يأخذ على هذا الشاب ـ بروحه الميالة إلى التشويه ـ سخريته من أفكاره هو نفسه ، ولم يكن يستطيع أن يوجه إليه اللوم . ويقول : إن هذا الملازم يُحَمِّلنا فوق طاقتنا فى موافقته على آرائنا ، فيحملنا على الشك فى حقائق نحن على استعداد لإراقة دمائنا من أجلها .

● ● ●

قال «باسك» موجهاً كلامه للطبيب : حقًّا يا أبى ، اهتم بصحتك من أجل أبنائك ، وتحمَّل دفاعهم عنك ضد نفسك .

ما إن سمع الطبيب هذا الكلام حتى ترك الغرفة بدون أن ينطق ، واتجهت عائلة باسك بأكملها إلى غرفتها ، تلك الغرفة المقدسة التى تقول السيدة كوريج عنها : إنى لا أطؤها بقدمى أبداً ؛ لأنى أدركت من كلام «مارلين» أن ذلك لا يروق لها ، وأنا لستُ فى حاجة لأن يُقال لى مثل هذا القول مراراً ، لأنى قادرة على فهمها لمجرد التلميح . كانت أسرة باسك تغير ملابسها فى صمت ، وكان الملازم جَاثِياً على ركبتيه ، ورأسه مختبىء فى الفراش حين التفت إلى زوجته فجأة وهو يسألها : هل البيت فى حيازة والدك؟ فلما لم ترد قال : أريد أن أقول ، هل اشتراه وَالِدَاكِ منذ زواجهما؟

كانت «مارلين» تعتقد ذلك ، ولكنها لم تكن واثقة .

قال الزوج : هذا شىء يهمنا معرفته ؛ لأنه فى حالة ما إذا تركنا والدك المسكين ، فسيكون لنا الحق فى النصف .

وعاد إلى الصمت من جديد ، ثم راح يتحدث فجأة عن سن « ريمون» وبدا عليه الضيق عندما علم أنه لم يبلغ السابعة عشرة بعد .

قالت « مارلين» وهى تناقشه : ماذا يهمك فى هذا ؟ ولماذا تسألنى عنه ؟

قال : بدون هدف .

كان يظن أن القاصر يعقد الأمور ، فبعد أن توقف عاد يقول : آمل ألاَّ يتركنا والدك المسكين قبل بضع سنوات .

كان الفراش العريض الشاسع ينفتح أمام الزوجين فى الظل ، وكانا يذهبان إليه كذهابهما وجلوسهما إلى المائدة عند الظهر ، أو فى الساعة الثانية وقت إحساسهما بالجوع .

وفى أثناء هذه الليالى كان « ريمون» يستيقظ أحياناً ، فلا يدرى ما الشىء الساخن الذى يسيل على وجهه ويملأ حلقه ؟ . كانت يده تتحسس عود ثقاب ، فإذا وجده وأشعله رأى الدم يتدفق من فتحة أنفه اليسرى ، وقد غطى قميص وملاءة السرير ، فكان يهب واقفاً مرتعداً ينظر فى المرآة ، ويمسح فى صدره أصابعه اللزجة من أثر الدم ، ويتفحص وجهه الملطخ ، مهيئاً لنفسه أنه القاتل والمقتول فى الوقت نفسه .

الفصل الرابع



كانت أمسية كغيرها من الأمسيات ، فى أواخر شهر يناير ، وقت زوال صقيع الشتاء ، حين تعجب ريمون عندما رأى أمامه هذه المرأة فى ترام العمال ، كان قد أقنع نفسه بأنه من المهاجرين حتى لا يضيره الاختلاط كل مساء بتلك الكتلة الآدمية ، فيعتقد أنه جالس على ظهر سفينة تشق الظلمات وسط الأشجار كأنها شعاب المرجان ، والمارة والعربات كأنها مخلوقات غامضة تسكن الأعماق . كانت مسافة الطريق قصيرة بحيث لا توحى بالشعور بالمذلة ، فكل راكب من الركاب كان على شاكلته رث الثياب، مهمل المظهر ، حتى إنه إذا تلاقت نظراته بنظرات أحدهم لا يشعر بما ينم عن السخرية ، بل لاحَظَ أن قميصه أنظف من قميص الجالس أمامه ، والذى يبدو كأنه دابة ارتدت قميصاً يغطى الشعر الغزير . وكان ريمون يشعر بالارتياح وهو جالس بين هؤلاء الناس ، بعيداً كل البعد عن مجرد الشك فى أن كلمة واحدة تكفى فى أجواء أخرى لأن تُظهر فجأة تلك الصحراء التى تفصل بين الطبقات كما تفصل بين الأفراد ، فى حين أن اتصاله بهؤلاء الناس يبلغ درجات التوافق والتجانس وهم داخل الترام الذى يقلهم ويشق بهم الضواحى تحت جنح الليل المظلم .

كانت شراسة « ريمون » وصلابته فى المدرسة تتحولْ إلى استرخاء يجعله لا

يكلف نفسه إيقاف اهتزاز رأسه ، كما لو كان الإعياء قد بلغ مبلغه ، فأرخى النعاس جسده وتفكك مثل زهور الباقة .

رأى « ريمون » فى ذلك المساء ، تلك المرأة ، وهى تجلس أمامه بين رجلين تلوثت ملابسهما بالشحم ، وكانت ترتدى رداءً أسودَ ، ووجهها مكشوف . سأل ريمون نفسه فيما بعد عن السر فى أنه لم يشعر بالخجل عندما رمقته بالنظرة الأولى كما حدث له مع آخر الشغالات ، بل على العكس ، لم يخجل ولم يرتبك . ربما كان ذلك لإحساسه بأنه فى الترام مجهول ، وبأنه لم يكن يتصور أنه ستأتى مناسبة تنشأ فيها علاقة بينه وبين هذه التى لايعرفها ، وخاصة أنه لم يتبين على وجهها شيئاً ينم عن الفضول أو السخرية أو الازدراء ، مع أنها ظلت ترمقه بنظراتها . . لابد أنها كانت تقول فى نفسها بأسلوب المرأة حين تهتم بشىء : سأجد فى هذا الوجه سلواى خلال تلك الدقائق التى لامفر من قضائها فى هذه المركبة ، وأنى أستغنى عن العالم أجمع وأنا أشاهد هذه الصورة الملائكية العابسة ، لن يقوى أى شىء على تكدير صفوى ، فمشاهدتها تخلصنى من هذا الضيق ، فأنا أتمثله وهوجالس أمامى يُحاكى بلداً مجهولاً ، وأرى جفونه كأنها شواطىء بحر قد دمرت ، ورموش عينيه تحف بأطرافها بحيرتان نائمتان من الخجل . أما هذا الحبر على أصابعه ، وهذه « الياقة » ، وهذه الأكمام الزرقاء ، وهذا الزر المقطوع ، فليس سوى التراب الذى يلوث الفاكهة الطازجة التى فصلتها فجأة عن غصنها يد متحفظة حريصة ، ومع هذا سقطت على الأرض فبادرت بالتقاطها » .

وكان «ريمون» هو الآخر يتأملها بنظرة هادئة مستمرة كتلك التى نركزها مثلاً على أحد الكواكب . . وكان يشعر بالاطمئنان ، ولا يخشى مطلقاً من

أن توجه إليه هذه السيدة المجهولة أى كلام ؛ لأن شيئاً لا يربط بينهما . لَكَمْ ظل جبينها صافياً ! وهو يختلس النظر إليه فى ذلك المساء وقد غمره ضَوْءٌ لا يأتى من تلك الحانة الصغيرة المتلالئة ، وإنما هو ضوء الذكاء غير المألوف فى وجوه النساء ؛ لأنه إذا أشرق فى وجه امرأة اختلجت له عواطفنا وأدركنا كيف كانت المخيلة والفراسة والفطنة والبصيرة كلمات مؤنثة .

عند كنيسة « تلانس» وقفت السيدة الشابة فجأة ، ثم نزلت بدون أن تترك وراءها لهؤلاء الرجال الذين كانت تجلس بينهم غير رائحة عطرها التى تبددت قبل أن ينزل « ريمون» فكان الجو قليل البرودة فى ذلك المساء من أيام شهر يناير ، وكان الضباب كثيفاً ، والأرض لاتزال عارية وإنْ كانت قد استيقظت من رقادها .

لم يلحظ « ريمون» شيئاً فى ذلك المساء أثناء جلوسه إلى مائدة الأسرة لانشغال باله ، برغم أن المرض لم يبد على وجه والده مثلما كان بادياً إلى درجة أن السيدة «كوريج» ظلت صامتة طوال الوقت ، ولم تزد على قولها لعائلة باسك بعد مغادرة الطبيب غرفة المائدة مع أمه : « يجب عدم المخاطرة بتوجيه كلام قد يؤلمه » . وأخذت على عاتقها استشارة الطبيب « دولاك» خفية . كان الدخان المنبعث من السيجارة التى ينفضها الضابط يملأ برائحته الكريهة جو الغرفة عندما وقف أمام المدفأة وهو يكرر قوله : « ليس فى الأمر خطأ يا أمى ، إنه مصاب بالقلب » . كان كلامه - برغم إيجازه وغمغمته - يحذر أو ينذر ، فقالت «مارلين» التى تعارض أمها فى هذا الرأى : ربما لاتكون المسألة أكثر من مجرد أزمة . . فقاطعها الملازم بقوله : لا يا «مارلين» ، الحالة جد خطيرة ، ولاشك فى أن أمك على حق ، فلما همت الزوجة بمعارضته صاح فيها قائلاً : ولكنى قلتُ لك إن أمك على حق ، ألا يكفى ما قلتُ لإقناعك ؟ .

طرقت السيدة «كوريج» باب حجرة ابنها فى الطابق الأول طرقاً خفيفاً ، وكان جالساً أمام بعض الكتب المفتوحة . لم توجه إليه سؤالاً أيًا كان ، ولكنها جلست تغزل الصوف فى صمت ، فقد تطوعت بالمجىء إليه ، وهى على استعداد لسماع كل ما يريد ابنها أن يقوله ، إذا كان قد ضاق بطول الصمت أو ثقل عليه الكتمان وأراد أن ينفس عن نفسه بالكلام ، ففطرتها الواعية قد منعتها من إثارة أى سر من الأسرار ، أما هو فقد فكر للحظات فى عدم كبت تلك الصيحة التى كانت تضيق بها أنفاسه ، ولكن كان عليه أن يعود إلى الماضى البعيد ، وأن يسترجع فى مخيلته سلسلة آلامه كلها حتى يصل بها وتصل به إلى ما جدَّ فى هذا المساء من ألم . . وإلاَّ فكيف يفسر هذا التفاوت بين ألمه وبين السبب فى وجوده ؟ كيف ولم يحدث أكثر مما سيأتى ذكره . . ذهب الطبيب فى الموعد المتفق عليه إلي منزل «ماريا كروس» ، فلما أخبرته الشغالة أن السيدة لم تعد إلى البيت بعد ، أحس بأول ضيق يلم به ، ولكنه رضى أن ينتظر فى غرفة الصالون الخالية ، وكانت ساعة الحائط تدق دقات أبطأ من دقات قلبه ، واحد المصابيح يضىء بنوره أعمدة السقف الشامخ ، وبالقرب من أحد المقاعد مائدة عليها منفضة تضم عدداً كبيراً من أعقاب السجائر ، مما جعله يقول فى نفسه : إنها تدخن أكثر مما يجب . . إنها تسمم نفسها بإرادتها ، يالها من كتب كثيرة تمتلكها ! كانت الصفحات الأخيرة من هذه الكتب غير صالحة للقراءة ، تتبعت عيناه آثار تمزق ثنايا الستائر الكبيرة المصنوعة من الحرير وقد زالت الألوان ، فقال فى نفسه : ترف وبؤس ، بؤس وترف . ونظر إلى ساعة الحائط ثم إلى ساعة يده، وقرر أن يرحل بعد ربع ساعة ، فقد بدا له أن الوقت يمر سريعاً . منع نفسه من التفكير فى معمله ، وفى التجربة التى أوقفها قبل مجيئه حتى لايبدو

له مرور الوقت على تلك الصورة من القصر ، فقام على الفور واقترب من المقعد ثم جثا على ركبتيه ودفن رأسه فى الوسائد ، بعد أن ألقى نظرة على الباب تنم عن الخوف ، ولما نهض طقطقت ركبته اليسرى كالمعتاد ، فاتجه إلى المرآة ، ولمس بأصبعه صدغه الأيسر المتورم ، وأفصح عن إحساسه بهيئته التى لو رآه أحد عليها فى تلك اللحظة لاعتقد أنه مجنون . وكما هى عادة عمله عندما يحيل كل شىء إلى قوانين ، قال : « نحن مجانينُ إذا ما خلونا إلى أنفسنا ، نعم ، فسيطرتنا على أنفسنا لاتقوم إلا إذا ساندتها السيطرة التى يفرضها علينا وجود الآخرين ، غير أن التدليل على تلك الحجة كان كافياً للأسف للقضاء على ربع الساعة الذى منحه لنفسه .

كيف يشرح لأمه إذن ـ وهى تترقب أن يفصح لها عن مكنون سره فى تلك اللحظة ـ عدوله الذى فرضته الضرورة ، فانتزع من تلك السعادة اليومية على بؤسها ، والتى يجدها فى حديثه مع « ماريا كروس» ؟ لم يكن السبب هو استدعاء السر ، ولا حتى الاطمئنان إلى من يأتمنه عليه ، وإنْ كانت الأم ذاتها ، فمن منا يتمتع بعلْم يمكنه من جعل سامعه يلم بعالمه الداخلى من خلال كلمات قليلة ؟ وكيف يتأتى له أن يفصل إحساساً معيناً دون غيره من هذا النهر الجارى ؟ الواقع أن الإنسان يعجز عن قول شىء بمجرد أن يكون فى استطاعته قول كل شىء . ثم هل تستطيع هذه المرأة العجوز الجالسة بالقرب منه أن تفهم فى موسيقا ابنها التى يصعب إدراكها ، خاصة النشاز المؤثر فيها ؟ هذا الصبى الذى ينتمى فيه تقديرها إلى سلالة أخرى ـ لأنه من جنس آخر ، ولا شىء غير ذلك ـ يباعد بينه وبينها ما يفوق المسافة بين كوكبين من الكواكب المعروفة . . هاهو ذا الطبيب يتذكر أمام أمه آلامه ، ولكنه لايكشف عنها . يذكر أنه التقط قبعته وهَمَّ بالخروج بعد يأس من

انتظار « ماريا كروس» ، فإذا به يسمع وقع أقدام فى ممر البيت ، فتعلقت أنفاسه ، فلما انفرج الباب لم تظهر المرأة التى كان ينتظر قدومها ، بل ظهر «فيكتور لاروسيل » الذى قال له : إنك تدلل « ماريا » يا دكتور أكثر مما ينبغى .

لم يكن فى صوت الرجل ما يدل على أى شك ، مما دعا الطبيب إلى الابتسام أمام هذا الرجل الخالى من العيوب ، الدموى اللون ، الذى يرتدى زيًّا أسمر اللون ، ويسطع وجهه بالرضا والأمل وهو يقول : يا له من صيد ثمين لكم أيها الأطباء ذلك النوع من النساء ضعيفات الأعصاب المريضات بالوهم ! أليس كذلك ؟ كلا . . كلا . . إنى أمزح ، فأنا أعلم نزاهة مقصدك ، وأعتبر نفسى محظوظاً لوقوع « ماريا » على طائر نادر الوجود مثلك . . والآن ، هل تعلم السبب فى عدم عودتها حتى هذه اللحظة ؟ لأنها رفضت استخدام عربتها ، وهذا آخر ما توصل إليه مزاجها . . واسمح لى أن أقول لك فيما بيننا ، إنه شىء من الجنون كما أعتقد ، وإنْ كان جنوناً يزيد المرأة الجميلة فتنة ، أليس كذلك ؟ ما رأيك ؟ ما رأى السيد «كوريج» الطبيب النابغة ؟ إن رؤيتك تسعدنى ، هل تعلم ذلك ؟ فلتبق لتناول العشاء معنا . . هذا سيسعد « ماريا » المولعة بك ، كلا . . كلا . . لابد أن تبقى على الأقل حتى عودتها ، فأنا لا أستطيع التحدث عنها إلا معك .

« لا أستطيع التحدث عنها إلا معك أنت » . استعاد الطبيب هذه العبارة القصيرة المؤثرة وهو جالس فى العربة التى استقلها عند عوته ، ثم أفصح عن شعوره نحو هذا الرجل البدين بقوله : « إن غرامه بماريا تنتشر أخباره فى المدينة كلها ، وهذا الغرام هو كل ما لديه ـ هذا الأبله ـ من سمات الشرف ، فقد اكتشف وهو فى سن الخمسين أن جوانحه مملوءة بالشجن من أجل امرأة ، ومع أنه انتصر عليها فإن الانتصار بهذا النوع لم يعد كافياً له ،

وإنْ كان عالمه الخاص وأعماله وحظيرته تشغله ، فإن له بعد ذلك مبدأه وفلسفته فى الألم خارج نطاق هذا العالم . . ومن يدرى ، فربما لا يكون كل شىء عنها فى عالم العواطف الجارحة بمفهومها الرومانى . أما « ماريا كروس» فيالها من « ماريا»! الألم كل الألم فى عدم رؤيتها ! وما معنى أنها لم تفكر فى إخبارى عن سبب غيابها ؟ أنا إذن لا أساوى شيئاً فى حياتها ، فهى تتخلف عن لقائى بدون أن تكلف نفسها مشقة التفكير فى هذا التخلف لحظة واحدة . . هذا فى الوقت الذى لايتوقف فيه تفكيرى خلال لحظات انتظارى لها » .

رددت الأم بعض الكلمات ، فكانت سبباً فى أنه أفاق من تفكيره العميق، فلم تكن تطيق صبراً على الصمت أكثر مما فعلت ، بعد أن راحت هى الأخرى تستعرض أمورها الخاصة . لم تكن تفكر فى جراح ابنها المجهولة، وإنما عادت إلى التفكير فيما يضايقها بإلحاح ، إلى علاقتها بزوجة ابنها ، فبدأت بقولها : « إنى أتخذ موقف الحياد ، فلا أجيب عن شىء إذا سُئلت عنه إلا بقولى : كما يحلو لك يا ابنتى . . أو ، كما تَوَدِّين ! لأنى لا أحب أن أكون سبباً للغضب » وذلك منذ عمدت « لوسى » إلى إقناعى بأنها هى صاحبة الثروة . . ولكنك أنت الآخر تدفع ما يكفينا من مال ، وصحيح أنك عندما تزوجتها كان أمامك مستقبلك المشرق ، ولكن لا شىء غير ذلك . أما هى فكانت مستندة إلى أحد أفراد عائلة « بولاسييه» الثرية فى مقاطعة « البيف» ! أعلم تماماً أن مصانعهم لم تكن فى ذلك الوقت كما هى الآن ، إلا أنها ـ كما قالت لى يوماً ونحن نتحدث عن مارلين ـ كانت فى وضع يمكنها من الزواج بمن هو أغنى منك . . عموماً ، لا داعى للشكوى ، وثق أن الأمور ستسير حتى لو لم يصبح عندنا شغالون . قال الطبيب : « ما

يزعج فى حياتنا يا أماه ، هو أن يقوم بالخدمة فى مطبخنا شغالون لايتبعون المخدومين» . قال ذلك ثم طبع قُبلة خاطفة على جبين أمه تاركاً الباب مفتوحاً حتى تستطيع الرؤية من خلاله ، وأخذ يكرر بشكل تلقائى قوله : «مايزعج فى حياتنا » . .

فى اليوم التالى ، كان اهتمام « ماريا كروس » بالركاب مازل مستمرًّا ، فقد رأى « ريمون » السيدة المجهولة جالسة فى المكان نفسه بالترام وقد تركزت عيناها على وجهه ، وراحت تحوم حول جفنيه ، وتُتابع تموجات شعره الفاحم الأسود ، وتتمهل عندما تلتقى بشعاع الضوء المنبعث من أسنانه وشفتيه . تذكر أنه لم يحلق ذقنه منذ يومين ، فتحسس بأصابعه خده النحيل، وأَرْخَى يديه تحت ملابسه فى خجل وارتباك . غضت السيدة المجهولة طرفها ، ولم يكن قد لاحظ أن جوربه انزلق لعدم وجود رباط ، فكشف عن ساقه ، ولكنه لم يجرؤ على سحبه إلى أعلى ، فلم يستطع إلاَّ أن يعدل من جلسته بما لا يكدر صفوه ، فقد كان يكره فى الآخرين الضحك والابتسام ؛ لأنه كان يتوجس خيفة من أقل حركة لانفراج الفم عن ثناياه ، فهو يعرف ماتدل عليه الشفة السفلى إذا عضت عليها الأنياب ، غير أن هذه السيدة كانت تطيل النظر إليه ، فيبدو وجهها غريباً ، وينم عن الذكاء والعفوية فى الوقت نفسه . . نعم ، كان وجهها كوجه دابة غريبة لا ترتسم عليه المشاعر ولا الضحك ، وكان يجهل أن أباه يأخذ كثيراً على « ماريا كروس» ممازحاً إياها أنها حين تضحك تشبه من يضع قناعاً مصطنعاً ، فإذا سقط ظلت ملامح الوجه والنظرات على ماهى عليه من الكآبة المتصلة .

ولما نزلت أمام كنيسة « تالانس» لم يعد « ريمون» يرى غير جلد مقعدها الهابط نتيجة لجلوسها ، ولم يداخله شك فى أنه سيراها فى الغد ، وبرغم أن

ثقته هذه لا يوجد ما يدعمها فإنه كان واثقاً من ذلك. حمل « ريمون » فى ذلك المساء إبريقين مليئين بالماء المغلى إلى غرفته بعد تَنَاوُلِ العشاء ، وأحضر الطست ، وفى اليوم التالى استيقظ مبكراً نصف ساعة ؛ لأنه قرر أن يحلق ذقنه كل صباح .

كانت أسرة « كوريج» تشهد على مدى ساعات طويلة برعم شجرة أبى فروة وزهراته تتفتح ، بدون أن تفهم شيئاً ، كذلك لم تدرك المعجزة التى تحققت ، فكما تكشف ضربة الفأس الأولى عن حطام تمثال قيم متقن الصنع ، اكتشفت أولى نظرات « ماريا كروس » فى التلميذ المهمل مخلوقاً جديداً . وسرعان ما تحول هذا الجسم الذى اعتاد الإهمال إلى ما يشبه جذور الأشجار الصغيرة الغليظة فى غابة قديمة سَرَتْ فيها فجأة روح مخدرة . أما عائلة «كوريج» فلم تتبين المعجزة ؛ لأن العائلة المتلاحمة أكثر لا يرى أفرادها بعضهم بعضاً . أصبح « ريمون » منذ أسابيع شابًّا مهتمًّا بهندامه ، مقتنعاً بفائدة الماء فى نظافة الجسم ، واثقاً من إعجاب الناس به ، جادًّا فى محاولة غزو القلوب ، فى حين كانت تراه أمه دائماً تلميذاً غير مهندم ، رَثَّ الثياب ، وغاب عن العائلة أن امرأة واحدة شكَّلت الابن من جديد ، وجعلت منه إنساناً آخر ، بدون أن توجه إليه كلاماً ، فما حدث لم يكن بقوة الكلام ، بل بما فى النظرة الوحيدة التى وجهتها إليه من قوة ، أدت آثارها إلى هذا التحول السحرى العجيب الذى أصبح واضحاً عليه ، والذى لا يعرف أحد مصدره . وأخذ « ريمون » يزداد جرأة فى كل يوم من تلك الأيام التى يمتد فيها النهار ، على إضافة حركة جديدة ، وهو جالس أمامها فى الترام قبل الإضاءة الليلية ، فيضع ساقاً على الأخرى ، ويكشف عن جوربه النظيف المشدود ، ويحرك حذاءه الذى يشبه المرآة فى لمعانه بعد تلميعه عند ماسح الأحذية ، ولم يجد مبرراً لإخفاء أكمام قميصه ، بل أضاف وضع القفاز .

وفى يوم ترك قفازه ، فلم تستطع المرأة أن تمنع نفسها من الابتسام حين رأت أظافره الوردية اللون ، ولاحظت أنه من كثرة قَصِّها فى السنوات السابقة توقف نموها عند الحد الذى يستلفت النظر ، حتى بعد تهذيبها المتقن ، . والواقع أن هذا كله لم يكن إلا مظهراً لبعث خفى ، فالضباب الكثيف الذى تجمع وتراكم فى نفسه ، أخذ ينقشع تحت تأثير نظرتها التى ظلت صامتة ، إلاَّ أن التعوُّدَ عليها جعلها أكثر أُنْسًا وأُلْفَةً . . أما هى فكانت تقول لنفسها : ربما لم يكن مسخاً ، مِثْلَ غيره من الشبان يملك القدرة على استمالة المرأة ، وأكثر من مجرد نظرتها ! كان الزمن كفيلاً - برغم صمتهما - بأن ينسخ منهما خيوطاً بلغت من القوة مبلغاً لاتقوى عليه أية كلمة أو إشارة فى جعلهما أكثر التصاقاً . كان كل منهما يشعر باقتراب اللحظة التى سيتبادلان فيها الكرم للمرة الأولى ، وإنْ كان ريمون لم يفعل ما يتعجل به هذا الاقتراب ، فكان يكفى هذا السجين الخجول أنه لم يعد يشعر بقيوده وثقلها ،كان يشعر بأنه أصبح فجأة شخصاً آخر يحس بقدر كافٍ من السعادة حتى تلك اللحظة . ألم يكن فى الواقع تلميذاً رَثَّ الثياب قبل أن ترمقه المرأة المجهولة بنظراتها ؟ !

لقد تعرضنا جميعاً للتشكيل مِنْ قِبَلِ مَنْ أحبونا مرة بعد أخرى ، حتى صنعوا منا ما نحن عليه ، بفضل إصرارهم ، وإنْ كانوا لايدرون حقيقة ما فعلوا بنا ، بل إن ما وصلنا إليه لم يكن قط هو الذى أرادوه لنا ، فلا يوجد حب أو صداقة تخترق أقدارنا بدون أن تؤثر فيها إلى الأبد . فها هو ذا «ريمون كوريج» الشاب البالغ من العمر خمسة وثلاثين ربيعاً ، يجلس هذا المساء فى ملهى شارع ديفو الصيفى ، وكان يمكن أن يكون شخصاً آخر ، إذا لم يُقَدَّرْ له أن يرى « ماريا كروس» وهى تجلس أمامه فى الترام عند عودته كل يوم وهو لايزال تلميذاً بعد فى نهاية المرحلة الثانوية .


الفصل الخامس

كـان على والد « ريمون » أن يدرك قبل أى إنسان آخر ، تحول ابنه إلى رجل ، فقد حدث أن جلس إلى مائدة الطعام ذات يوم أحدٍ فى نهاية فصل الربيع ، وكان منشغل الذهن أكثر مما ينبغى ، حتى إنه كاد ألاَّ يحس بضجة الجدل الذى شب بين زوج ابنته وابنه . كان غرام « ريمون » بمصارعة الثيران هو سبب النزاع ، غادر « ريمون » حلبة السباق فى ذلك اليوم الذى نفق فيه الثور الرابع حتى الآن ؛ لئلا يفوته ترام السادسة ، مضحيا بلذة السباق التى لا تعادلها لذة ، فلم يجد فى الترام تلك السيدة المجهولة . وحدث نفسه بأن اليوم هو الأحد ، وهو السبب فى عدم وجودها ، وأنه بهذا أضاع رؤية مصرع ثورين بدون فائدة . . وبادره الملازم «باسك » بقوله : «لاأفهم كيف يسمح لك والدك بمشاهدة هذه المذبحة ؟ أجابه «ريمون » قائلا : « من المضحك كثيراً أن يفزع هؤلاء الضباط من مشهد الدم » . . كانت الإجابة مثيرة للصخب والجدل ، حتى إن الوالد أفاق من شروده وصهره يقول : « لا، هذا غير معقول . . لا أعتقد أنك تجرؤ على هذا القول فى مواجهته ! » .

ـ أنظر إلى وجهك ، فلا أرى إلا غِرًّا . .

ـ غِر ! إياكِ أن تكرر هذه الكلمة ، وإلاَّ . .

عندئذ وقف كلاهما ، فأسرع إليهما ، وفرّق بينهما الجميع ، وصاحت «مارلين باسك » وهى توجه حديثها لزوجها : « لاترد ، الأمر أتفه من أن يستحق أى اهتمام » أما الطبيب فلم يزد على التضرع إلى «ريمون » أن يجلس، قائلاً له : « اجلس ، أكمل طعامك ، اعتبر المسألة منتهية » . ولكن الضابط لم يهدأ ، وأخذ يصيح قائلاً إنه قد أُهين ، وإن كرامته جُرحت؛ لأن «ريمون » اتهمه بالجُبن ، فأخذت السيدة « كوريج » تؤكد أنه لم يقصد ذلك قط ، وعموماً فقد عاود الجميع الجلوس ، وكأن اتفاقاً سريًّا جعلهم يحاولون جميعاً إطفاء تلك النار ، كانت روحهم العائلية توحى إليهم برفض كل ما يمكن أن يهدد توازنٍ شخصياتهم ، كطاقمٍ من البحّارة يركب سفينة الحياة ويواجه أى خطر ، مما يجعلهم يتفادون أى فرصة لإشعال النار على ظهر السفينة .

وهكذا ساد الصمت فترة ، وأيضاً سكنت فجأة طقطقة قطرات المطر على درجات السلم ، وغمرت رائحته العائلة الصامتة ، عندما سارع أحدهم بقوله : « الجو أصبح الآن أكثر برودة » . فأجابه آخر بقوله : « هذا المطر لا يُذكر ، فهو لن يقوى حتى على إزالة الأتربة » . أما الطبيب فراح ينظر بتعجب إلى ابنه الذى لايفكر فى أموره ، بل لا يكاد يعرفه ، فهو نفسه كان فى يوم الأحد هذا بالتحديد على وشك الخلاص من كابوس طويل منذ حاول ذلك ، مما أخلفت « ماريا كروس » موعدها معه وجعلته يواجه «فيكتور لاروسيل » . ويوم الأحد هذا الذى كان ينتهى ، والذى كان من أقسى أيام حياته ، قد حرره فى النهاية ، أو هكذا خُيل إليه ، فقد تحقق له الخلاص بعد معاناة وجهد لا يدرى كنههما ، فقد عانى من نفسه كثيراً فى ذلك اليوم ! ولم تبق لديه رغبة سوى أن يدير ظهره للمعركة ، وأن يدفن

نفسه فى شيخوخته ، فبعد مرور شهرين على انتـظاره لـ «ماريا كاروس» بدون جدوى فى غرفة استقبالها ـ غرفة الترف والبؤس معاً كما يظهر اليوم ، فى تلك الأمسية المفزعة ـ ألقى سلاحه فى نهاية الأمر ، وها هو ذا ينسى من جديد ابنه الجالس إلى المائدة الصامتة ، لا يتذكر سوى الظروف التى قام فيها برحلته القاسية إليها ، وها هو ذا يستعيد صورتها فى مخيلته خطوة خطوة ومرحلة بعد أخرى .

• • •

الحقيقة أن عذابه غير المحتمل بدأ فى أعقاب يوم اللقاء الذى لم يتم ، والذى تسلم بعده رسالة الاعتذار الطويلة التى كتبتها « ماريا كروس » والتى كان يقرؤها ويعيد قراءتها طوال شهرين : « الذنب فى عدم اللقاء يعود إليك. فأنت الذى أوحيت بفكرة الإقلاع عن ذلك الترف الذى يخجلنى ، فأنا لم أعد أمتلك عربة ، وبالتالى لم يكن فى استطاعتى العودة إلى البيت لألقاك قبل الموعد الذى اعتدنا فيه اللقاء . لقد وصلت إلى المدفن متأخرة ومكثت به عن طيب خاطر فترة طويلة ، ولا تستطيع أن تتخيل ما يخيم عليه من هدوء فى نهاية اليوم ، وما يمتلىء به من الطيور تغنى فوق القبور حتى خُيِّل إلىَّ أن ابنى يؤيدنى فيما أفعل وأنه سعيد بى . ثم إننى أجد فى ركوب ترام العمال عند العودة تعويضاً لمتاعبى . ربما تجد فى قولى كثيراً من المغالاة والتهور ، ولكن لا ، أؤكد لك أننى أشعر بالسعادة حينما أجد نفسى وسط هؤلاء الفقراء الذين يُخيل إلىَّ أنى لست جديرة بهم . ولا يمكننى أن أصور لك فى الحقيقة مقدار حبى لهذه العودة عن طريق الترام . ولو توسل أحد مستعطفاً فلن أقبل معاودة ركوب العربة المهداة لى . وأخيراً قُل لى ياعزيزى الطبيب ، ماذا يهم لو أننا لم نلتق بعد اليوم ؟ فإرشاداتك

تكفينى ، ونحن متحدان حقًّا أكثر مما لو كنا معاً . ويااليتك تستمتع بها كتبه فى هذا المعنى ببراعة « موريس بترلنك » فهو يقول : سيأتى زمن ليس ببعيد تحس فيه النفوس بعضها ببعض بدون وساطة الأجساد . . اكتب لى يا موجه ضميرى العزيز ؛ فرسائلك تكفينى ! » .

م . ك

ملحوظة : هل من الضرورى الاستمرار فى تناول الأقراص والحقن ؟ لم يتبق منها سوى ثلاث زجاجات ، فهل علىَّ أن أشترى منها ؟

هذه الرسالة كانت ، حتى ولو لم تجرح شعوره بمثل تلك القسوة ، كافية لاستياء الطبيب ، نظراً لما تكشَّفَ له فيها من مجاملة وتواضع زائف ، وكان إدراكه لأكثر أسرار الناس إيلاماً يجعله يظهر نحوهم رغبة لا حدود لها ، شىء واحد كان يغضبه كل الغضب ، هو التفوق فى تنسيق الا نحطاط عند المنحطين ، إن أقصى ما يبلغه الإنسان من انحطاط هو أن ينبهر بقذاراته وكأنها قطع من الماس ، ولا غرابة فى أنَّ « ماريا كروس » اعتادت هذا النوع من الكذب ، فتنت الطبيب فى بادىء الأمر بتلك الحاسة التى تجعلها ترى بوضوح عيوبها بدون أن تزينها ، بل كانت تصر ـ عن اقتناع ـ على أصالة أمها التى ترملت فى شبابها ، بحيث أصبحت قدوة طيبة لها ، مع أنها كانت مُدَرِّسة متواضعة فى إحدى مدارس عاصمة الإقليم ، وكانت تقول عنها : «كانت أمى تجد صعوبة فى دفع مصروفات تعليمى بالمدرسة ، ولكنها كانت ترانى جديرة بهذه المعاناة ، وكم كانت سعادتها بالغة ، يوم أن شاهدت عرسى غير المتوقع قبل أن تموت . إن «باسك » صهرك يعرف زوجى معرفة وثيقة ، فقد كان مساعدًا لضابط فرقته، وكان زوجى يحبنى جدًّا ، وكنت

سعيدة بحبه ،وبعد وفاته لم نكن نملك أنا وابنى إلاَّ ما يسد الرمق ، ومع هذا كان من الممكن تدبير أمورنا ، فلم تكن الحاجة هى التى دفعتنى إلى الضلال ، ولكن ما هو أحقر من هذا ، الرغبة فى الوصول إلى حال من اليسر ، والتيقن من أننى مازلت أُطْلَبُ للزواج ـ أما الآن فإن الذى يربطنى به إنما هو الجبن من معاودة الكفاح ومن العمل ، ومن الجهد ذى الأجر الضئيل . .

كان الطبيب كثيراً ما يسمعها ـ منذ تلك الاعترافات الأولى ـ تتحدث فى تواضع ، وتعترف بذنوبها ، وتلوم نفسها بدون رحمة ، فلماذا إذن هذا التحول المفاجىء ، وهذا الميل المكروه إلى امتداح نفسها ؟ على أن هذا التحول لم يكن هو الذى سَاءَهُ فى الرسالة ، وإنما سخطه لم يكن إلا بسبب كذبه على نفسه ، وعدم جرأته على سَبْر غَوْرِ جرح عميق آخر ، جرح هو وحده لم يكن يقدر على احتماله ، فماريا لم تعد راغبة فى لقائه ، بل كانت تسعى نحو الفراق ، ألم يتحدث « بيتر لنك» عن النفوس التى تتبادل المشاعر والأحاسيس بدون وساطة الأجساد ؟ كم من مرة كان يشعر بوجودها فى قرارة نفسه ، وهو يستمع إلى أحد زبائنه يقص عليه حالته بالتفصيل . . كان حمقه يصور له فى الحقيقة أن امرأة شابة يمكن أن تشعر بميل نحوه . هل هو مجنون ؟ ر بما ، ولكن ماهى الحجة المنطقية التى يمكن أن نتعلل بها ونحن نعانى من الألم الذى يتعدى الاحتمال حين يكون الإنسان القريب إلى قلبنا والذى نعتبر القرب منه ضرورة لنا ـ حتى وإن كانت حياتنا بدنية ـ والذى يتكشف عن قلب لا مبالٍ ، وربما يكون راضياً بغيابنا عنه إلى الأبد ، أى حين نكون لاشىء بالنسبة لمن يمثل كل شىء لنا؟!

كان الطبيب أثناء ذلك ، قد بذل جهداً كبيراً ليكبح جماح نفسه ،

وكانت أمه تردد قولها : « فاجأتُهُ أمام المرآة وهو يلطم خديه » . . كان البؤس والشقاء باديين على وجهه المجهد ، ذى الخمسين عاماً ، وهذا يؤكد تماماً أن أى مشهد لايمكن أن يهيىء له جو الهدوء للخلاص من اليأس تماماً، فتسيانه لماريا وعدم التفكير فيها ـ كمن يفكر فى إنسانة طواها الموت ـ لهو بمثابة انتظاره هو نفسه للموت ، وبخاصة إذا ضاعفت العمل الذى يقوم به . . نعم . . قد ينهر نفسه ، بل يقتل نفسه ، فيبلغ مرحلة الخلاص بفضل التخدير الذى ينتج عن القيام بفعل جنونى . فهو يؤرق نفسه بما يكذب به الآخرون على أنفسهم . وقَبِلَ خِدَاع نفسه وأخذ يردد : « هى فى حاجة إلىَّ ، وأنا ملتزم بها كالتزامى بكل مريض » . وكتب يقول : « من الضرورى أن أتتبعها ، إنها محقة فى ركوب الترام ، ولكن ما سر خروجها كل يوم ؟ ليتها تحدد لى يوماً تبقى فيه بالمنزل ، أرتب أنا أمورى بحيث أستطيع الذهاب لأراها فى موعدها المعتاد . . »

وظل طوال الأسبوع ينتظر منها جواباً . . كانت تكفيه نظرة واحدة كل صباح على كم الإعلانات والصحف ، بعدها يقول لنفسه : « لم تكتب لى بعد » . . ويستسلم إلى العديد من الاحتمالات ، فيقول : « لعلها وضعت رسالتى فى مكتب البريد يوم السبت ، والبريد لا يوزع يوم الأحد إلا مرة واحدة ، فلم تتسلمها إلا يوم الإثنين ، وسينقضى يومان أو ثلاثة على الأقل قبل أن ترد علىَّ . . ولايمكن أن أتسلم رسالتها اليوم ردًّا على رسالتى . . ومع هذا فمن حقى أن أقلق غدًا ، وأن أضطرب أيضًا » .

وذات مساء عاد إلى بيته مجهدًا ، فوجد رسالة منها تقول فيها : « زيارتى للمدفن واجب مقدس ، وقد ألزمت نفسى بأن أحج إليه فى أى وقت . . وأنا أشعر بأنى أكون أكثر قرباً من ملاكى الصغير عند الغَسَق . . ويُخيل إلىَّ

أنه يعرف وقت الزيارة وينتظرنى . . ليس هذا هراء ، ولكن للقلب أسبابه كما يقول « باسكال» . . كم أشعر بالسعادة والهدوء وأنا أركب ترام الساعة السادسة ! فهو كما تعلم ترام العمال ، ولايخيفنى ذلك ؛ لأننى قريبة جدًّا من الناس ، فإن كنت منفصلة عنهم فى الظاهر ، فأنا متصلة بهم فى الحقيقة . . أنظر إلى وجوههم ، فيخيل إلىّ أنهم يحسون إحساسى بالوحدة، كيف أشرح لك ذلك ؟ إنهم مثلى ، اقْتُلِعُوا من أوساطهم ، ودخلوا فى بيئة غير بيئتهم الأصلية ، فإذا كان بيتى أكثر ترفًا من بيوتهم ، فما ذلك إلا لأنه بيت مؤجر مفروشًا ، لا أملك فيه شيئًا ، وهم مثلى لايملكون فى بيوتهم شيئًا، ونحن جميعاً لا نملك حتى أجسادنا . . لماذا لاتمر على البيت قبل أن تعود إلى بيتك متأخراً ؟ أعلم أنك لاتحب أن تلتقى بـ «لاروسيل» ، ولكنى سأخبره أننى فى حاجة إلى لقائك على انفراد ، ويكفى بعد الاستشارة أن نتبادل عبارات التحية . . هأنت ذا قد نسيت أن تخبرنى شيئًا عن الأقراص والحقن التى أحتاج إليها » .

كان الطبيب قد مزق الرسالة بمجرد تسلمها وألقى بها ، ثم عاد وجمع البقايا وهو راكع على ركبتيه حتى وقف بصعوبة ، مع أنها تعلم أنه لايطيق «لاروسيل» ، وإنْ لم يكن هناك فى ظاهر الأمر ما يدعوه إلى كراهيته . إنه من نفس عجينة « باسك » ، بشفته المطوطة تحت شاربه المصبوغ ، وخديه المتهدلين ، وصدره العريض الذى ينم عن إعجابٍ بالنفس لايتغير ولايتبدل ، أما فخذاه الكبيرتان اللتان تظهران من ردائه فقد كانتا صورة تنطق بالرضا غير المحدود ؛ لأن «لاروسيل» هذا كان يخدع «ماريا كروس » بكل خسة ، وكان يقال عنه فى مدينة بوردو : « إنه يقتنى « ماريا كروس » لمجرد المظهرية » . وكان الطبيب هو الشخص الوحيد تقريبًا الذى يعلم أن

«ماريا » هى بالنسبة لهذا المواطن غرامة وهزيمة فى الوقت نفسه ، وهى الإنسانة التى تثير فى داخله الغضب ، وعلى الرغم من كل شىء فقد كان الوحيد الذى يملكها ! ربما كان يستطيع أن يتزوجها بعد أن أصبح أعزبَ ، لولا أن له ولدًا ، هو وارثه الوحيد ووارث عائلة «لاروسيل» . . وهو لهذا يعده لتولى هذا المركز الجليل بجيش من المربيات والمعلمين والقساوسة . ومن المستحيل أن يعرض ابنه للاتصال بامرأة كهذه ، أو أن يترك له اسماً يقلل من قدره زواج غير متكافىء. وكان « باسك » المولع بالرتب الجليلة فى المدينة يقول للطبيب : « ماذا تريدنى أن أقول لك يا أبى ؟ » إنى أرى أن هذه العواطف نبيلة كل النبل . وها قد أصبح لروسيل فرع ، برغم تمتعه بالوجاهة والثراء . وهو رجل أصيل ، وهو رأى لا تراجع فيه » .

كيف كانت «ماريا» تجرؤ - وهى تعرف كراهية الطبيب لهذا الرجل - على تحديد موعد فى الوقت الذى قد تجد نفسه فيه وجهاً لوجه أمام من يكرهه ويبغضه ! وهكذا أقنع نفسه بأنها تعمدت هذا اللقاء حتى تتخلص منه . وبعد أن كتب ومزق عدة خطابات على مدى أسابيع ، عبر فيها عن غضبه الشديد ، وعن شدة الجنون أحياناً ، أرسل إليها آخر الأمر خطاباً قصيراً وجافًا قال فيه : « ما دُمْتِ لا تستطيعين البقاء فى البيت يومًا واحدًا بعد الظهر للعلاج ، وتفضلين الخروج بشكل دائم ، فإن ذلك دليل الحيوية والصحة الجيدة ، ولا تحتاجين بعد ذلك إلى العناية والعلاج » . وأرسلت بدورها خطاباً من أربع صفحات مملوءة بالاعتذارات تؤكد براءتها ، وأخبرته أنها ستنتظره يوم الأحد طوال النهار ، وقالت له : « سيشهد «لاروسيل» مصارعة الثيران ، وهو يعلم عدم ميلى لهذا النوع من المصارعة ، فاحضر لتشاركنى فى شاى بعد الظهر ، وسأنتظرك حتى الخامسة والنصف » .

لم يكن الطبيب قد تسلم خطاباً مثل هذا ، هبطت فيه العواطف السامية، وقَلَّ فيه الحديث عن العلاج والصحة ، فقرأه عدة مرات ، وكان يتحسسه وهو فى جيبه معتقداً أن هذا اللقاء سيكون مغايرًا لما سبقه ، وأنه يستطيع فى هذه المرة أن يعلن لها عن حبه . ومع أن الرجل كان عالماً ، فقد لاحظَ عدة مرات أن تنبؤاته لاتتحقق ، وراح يردد قوله : « لا ، لا ، هذا ليس تنبؤاً . . لم يكن فى هذا الانتظار شىء غير منطقى ، فقد حررت لها خطاباً مليئاً بالسخط ، فأجابت بخطاب مفعم بمشاعر الصداقة ، ولهذا يمكننى أن أبادر فى حديثى بعبارات الود والعاطفة » .

كان الطبيب يتخيل ـ وهو فى عربته متجهاً من المعمل إلى المستشفى ـ هذا اللقاء ، ولايكل من تصور الحوار بينه وبينها ، فهو من أولئك الخياليين الذين لايقرءون الروايات أبدًا ، فالخيالات التى تعبر عنها هذه الروايات لاتساوى أقل خيال يرسمونه ، وهم يقومون فيه بالدور الرئيسى ، وكانت هذه الصورة الخيالية تسكنه بإلحاح حتى بعد أن كتب العلاج ، وكانت تعاوده حتى وهو عل سلم بيت المريض ، يعثر على هذه الخيالات كما يعثر الكلب على عظمة كان قد أخفاها . كان يخجل منها أحياناً ، غير أنه ـ وهو الرجل الخجول ـ كان يشعر بالمتعة حين يخضع الأشياء لإرادته القوية . إن هذا الرجل الذى يقدر العواطف ويحتاط لكل شىء كان لايعرف للمجال الروحى حدودًا حين يجول فيه بخاطره ، وكان لايتراجع أمام المذابح البشعة حتى ولو أدى الأمر إلى فناء عائلته كلها من مخيلته ، لكى يخلق فى داخله حياة مختلفة عن حياته القائمة .

لم يفكر فى اليومين السابقين على لقائه بماريا فى تجنب كل الاحتمالات من هذا النوع ؛ لأنه فى هذه القصة التى يخترعها لمجرد سعادته ، لم يكن هناك

مايدعو لقتل أحد ، بل لم يكن عليه إلا أن ينفصل عن زوجته كما فعل زملاء له من قبل بدون إبداء أى سبب ، فيما عدا الملل الذى كان يشعر به وهو يحيا بجانبها . وبرغم بلوغه الثامنة والخمسين فإن الزمن كان لايزال يسمح بأن يتذوق السنين المتسمة بالسعادة التى ربما يسممها وخز الضمير . ولكن هذا الرجل ، لماذا يقاوم السعادة وهو الذى لم ينل شيئاً منها ؟ إن وجوده لايقدر حتى على إسعاد الزوجة ذات الطباع الشريرة . أما ابنته وابنه فمنذ وقت بعيد وهو يائس من حبهما ، ومنذ خطوبة « مارلين» وهو يعلم قيمة نصيبه من حنان الأطفال . أما « ريمون » فيعتقد بلا جدوى فى التضحية بنفسه لكى ينال شيئًا صعب المنال .

• • •

كان الطبيب يشعر بأن هذه الخيالات التى يرتاح إليها كثيرًا ، مختلفة عن تطوراته العادية ، فهو يشعر بلا شك بشىء من الخجل عندما يمحو من ذهنه عائلة بأكملها ، ولكنه لايشعر بأى تأنيب ضمير ، بل يشعر بالأحرى بشىء من الهزل ، فما هى إلا لعبة ساذجة لم يشترك فيها بشخصيته الحقيقية . كلا ، إنه لم يفكر قط فى أن يصبح وحشاً ، ولا يعتقد أنه مختلف عن الآخرين الذين يعتبرهم مجانين ، خاصة عندما يشعرون أنهم منفردون بأنفسهم ، وبعيدون عن المراقبة .

ولكنه شعر شعورًا واضحًا أثناء الثمانى والأربعين ساعة التى قضاها فى انتظار يوم الأحد ، كان يندمج بكل قواه فى حلم ، هذا الحلم الذى تحول إلى أمل ، فهو يسمع فى أعماق قلبه بصدى محادثته القريبة مع هذه المرأة ، وكان قد وصل إلى حد العجز عن تصور وجود كلمات أخرى ، يجرى بها الحوار

غير تلك التى اكتشفها ، فينقح بدون انقطاع ذلك السيناريو الذى يتلخص أهم جزء فيه حول هذه المحادثة ؟

« أنت وأنا يا « ماريا » فى مأزق ، وليس أمامنا إلا أن نموت بجوار الحائط أو نحيا ونحن نركض ، وقد لاتستطيعين محبتى ، أنت التى لم تحب قط ، ولم يبق لك إلا أن تُهَيِّئى نفسك للرجل الوحيد الذى لا ينتظر منك شيئاً مقابل حنانه » .

وكأنه كان يسمع إلى « ماريا » تعارضه بقولها :

« أنت مجنون ! وزوجتك ، وأولادك ؟

ـ ليسوا فى حاجة إلىّ ، أنا الرجل المدفون حيًّا ، من حقه أن يرفع قدر طاقته الحجر الذى يخنقه ، أنتِ لا تقدرين الصحراء التى تفصلنى عن هذه المرأة ، وعن الأمنية وعن الولد ، فحتى الكلمات التى أوجهها لاتصل إليهم. إن الحيوانات تطرد أولادها عندما تكبر ، وفى كثير من الأحيان لا يعرفها الذكور ، فالعواطف التى تعيش بعد قضاء الرغبات هى من صنع الإنسان . المسيح عليه السلام كان يعلم ذلك ، وأراد أن يفضل الناس حتى على أهله ، وكان يفخر بأنه جاء بحب الناس له .

ـ أعتقد أنكَ تَدَّعِى النبوة !

ـ ألم أكن فى نظركِ صورة منه ؟ أو لست مدينة لى بالميل نحو الكمال ؟

وراح الطبيب يقاطع نفسه : كلا ، كلا ، ليس لى أن أتدخل فى علم ما وراء المادة . الوضع الاجتماعى ، والمرضى ، وكل هذه الحياة ، وفعل الخير . . وفيها يمكن أن يحدث من فضيحة ! لو مت فسيستغنون عنى بطبيعة

الحال ، فمن ذا الذى لا يُسْتَغْنَى عنه ؟! وما دمنا نتحدث عن الموت يا «ماريا » ، فاعلمى أنى أموت من حياة اليأس الجامدة حتى أحيا معك . قد تحتفظ زوجتى بالثروة التى تملكها ، ولكن لن يصعب علىَّ أن أجعلك تعيشين عضواً على منصب أستاذ بمدينة الجزائر ، وآخر فى مدينة «سانتياجو» . . قد أترك لأولادى كل ما ادخرته حتى اليوم . .

كانت العربة قد توقفت أمام المستشفى حينما وصل إلى هذا الحد من حديثه الخيالى . عبر باب المستشفى كالتائه ، عيناه تبدوان كعينى رجل يخرج من سحر مجهول . وكان يعود إلى خياله بعد إتمام جولته وهو يردد : أنا مجنون . . ومع ذلك فقد كان يعرف من حققوا هذا الحلم الجميل من بين زملائه . . كانت حياتهم المضطربة قد أعدت الرأى العام للفضيحة ، أما الطبيب « كوريج » فإن المدينة بأكملها تؤكد أنه قديس ، ولكن : هل لأنه نال هذه السمعة لايمكنه التحرر منها وهو يتحمل مالا يطيقه ؟ آه ! ولكنه سينال التكريم ! وهنا يمكن أن يوجه إلى « ماريا كروس » كلمات أخرى يشجعها بها حتى يستولى عليها ولو بالعنف .

● ● ●

وأخيراً أشرقت شمس هذا الأحد المعهود ، وكان من عادة الطبيب ألاَّ يقوم فى هذا اليوم إلا بالزيارات الهامة بدون أن يمر على عيادته بالمدينة ، والمحاصرة دائماً بالمرضى ، ومع هذا لا يذهب إليها إلا ثلاث مرات فى الأسبوع ، فقد كان يكره بشدة هذه الغرفة الكائنة بالدور الأرضى من مبنى ملىء بالمكاتب ، وكان يقول : إن من المحال أن يقرأ أو يكتب فيه سطرًا واحدًا . وكما فى مدينة « بوردو » كانت أكثر اللوحات تواضعًا تجد مكانًا فى هذه الغرفة ، فالطبيب علق على جدرانها كل ما جاد به زبائنه الشاكرون

للجميل . كان قد كره هذه التماثيل البرونزية ، وهذه التماثيل المصنوعة من الطين النمساوى ، وهذه التماثيل المصنوعة من تراب المرمر المضغوط ، وهذه العلب ، علب البسكويت وهذه البارومترات المزودة بالنتائج ، ولكنه أوشك على الشعور بشىء من الميل نحو هذا المتحف البشع ، والتلذذ عندما « يتقبل » تحفة فنية أكثر بشاعة وغرابة . وكان الزبائن يجدون فى إدخال السرور إلى نفس الطبيب « كوريج» متعة ، فيقول بعضهم للبعض الآخر : لا تهدوا إليه أشياء قديمة !

وفى يوم الأحد هذا الذى أقنع نفسه فيه بأن مقابلته مع « ماريا كروس» ستغير مجرى حياته ، وافق على أن يستقبل فى الساعة الثالثة فى عيادته رجلاً من رجال الأعمال ، مريضاً بالأعصاب ، لايملك من وقته طوال الأسبوع إلا ساعة فراغ واحدة ، وكان الطبيب قد رضى بذلك مكرهاً ، وهكذا يمكنه الخروج بعد انتهاء الغداء مباشرة ، ولكنه يجد اللحظات الأخيرة السابقة على المقابلة المنشودة ثقيلة ، برغم اللهفة التى يخشاها .

لم يطلب عربته ، ولم يحاول أن يصعد إلى الترام المزدحم بكتل بشرية على سلمه ، فقد كانت تقام مباراة فى « الرجبى» وكانت أول طفلة فى الموسم تصارع الثيران ، وكانت أسماء الجابينو وفوانتس تبرز على الإعلانات الصفراء والحمراء . . وبالرغم من أن هذه المصارعة لاتبدأ إلا فى السابعة الرابعة ، فإن الجمهور كان يتدفق نحو ميدان المصارعة فى الشوارع أيام الأحد الباهتة ، نتيجة لإغلاق المحلات . وكان الشباب يرتدون قبعات من الخوص ذات أشرطة ملونة ، وقبعات من الجوخ العادى الفاتح يعتقد أنها إسبانية الذوق . كانوا يضحكون وهم محاطون بسحابة من دخان سجائر « كاورال» . وكانت المقاهى تنفخ على الطريق رائحة عيد الابسنت ،

فلم يتذكر الطبيب أنه تجول خلال الزحام لكى يقتل الساعات التى تفصله عن الساعة . ولكم يبدو غريباً هذا التسكع لهذا الرجل الذى لاتنتهى مشاغله ! لم يكن يعرف كيف يضيع الوقت بدون عمل ، فأراد أن يقوم بهذه التجربة التى بدأها ، ولكنه برغم كل شىء لايرى فى نفسه إلا « ماريا كروس» مستلقية وهى تقرأ .

وفجأة اختفت الشمس ، ونظر الجمهور القلق نحو سحابة كثيفة فى السماء ، وقال شخص : إنه أحس بقطرة مطر ، ولكن شعاع الشمس انصبَّ عليهم من جديد . لن تنفجر الزوبعة إذن قبل أن ينتهى الثور الأخير من عذابه .

وكان الطبيب يفكر فى أن الحوادث ربما لاتمر كما يتصورها ، ولكن الشىء المؤكد والخاضع للقوانين الرياضية ، هو أنه قد لا يترك « ماريا كروس» قبل أن تعرف سره ، فأخيراً سوف يلقى عليها سؤالاً ! الساعة الآن الثانية والنصف ، وعليه أن يضيع ساعة أخرى من الزمن قبل الكشف الطبى . لمس مفتاح المحل فى جيبه ، وكان عليه أن يرحل عن هذا المحل فوراً ، وأفاق على هياج الجمهور وكأنه فريسة لضربة هواء فجائية ، كان يصيح : هاهم! . فى العربات العتيقة ذات القادة الحاذقين ، كان يجلس مصارعو الثيران أصحاب الثياب الزاهية وأعوانهم . وكان الطبيب يدهش من أنه لايلمح شيئاً حقيراً على هذه الوجوه القاسية النحيلة ، إنه لشىء غريب هذا « الإكليروس» المرتدى ملابسه الحمراء الذهبية اللون ، والملابس البنفسجية والفضية اللون ! وغامت سحابة النور من جديد ، فرفع الناس نحو السماء الباهتة وجوههم النحيلة ، عندئذ شق الطبيب طريقه بين الناس وراح يسير فى شوارع خالية ، وكان لعيادته برودة كبرودة الطريق

السفلية حيث تبتسم تماثيل الناس المصنوعة من الطين أو من الألاباستر على أعمدة من صخر أخضر ، وبها ساعة من الطراز القديم ، دقاتها أبطأ من دقات ساعة صغيرة مصنوعة من الدلفت الصينى ، وعلى المائدة الكبيرة امرأة من طراز حديث موضوعة فوق قطعة من البلّور تستعمل لحفظ الأوراق .

كانت الوجوه تبدو وكأنها تتلقى غناءً جماعيًّا باسم عرض مسرحى ، كان الطبيب قد قرأه منذ فترة وجيزة فى كل تقاطع من تقاطعات طرق المدينة . وهذا الاسم هو « ليس هناك شىء جيد سوى هذا » . . حتى هذا الثور المصنوع مما يشبه البرونز وقد وضع أنفه على البقرة كان يؤكد ذلك هو الآخر . وأعجب الطبيب بنظرة عابرة بإحدى التحف ، وتمتم بصوت خافت : «هذا هو أحَطُّ عهد للجنس البشرى . ودفع بالنافذة ، فراح الغبار يتصاعد فى شعاع الشمس ، وكان يقول لنفسه لاينبغى أن أعدها لحديثى ، ولكن لتكن أولى الكلمات التى تشير إلى حزنى هى تلك التى جعلتنى أعتقد أنها لاتريد مقابلتى . ستندهش عندئذ ، فأؤكد لها أنى لم أستطع أن أعيش بدونها ، وحينئذ ربما . . ربما . . »

سمع الجرس يدق ، فذهب بنفسه لفتح الباب ، وأدخل الزبون ، آه ، إن هذا الزبون لن يقطع عليه تخيلاته ، فلم يكن عليه إلا أن يتركه يتكلم ؛ لأن هذا المريض لايطلب من أطبائه إلا الصبر على الإصغاء إليه . لاشك فى أن لديه فكرة عنهم جعلته روحيًّا لايتردد أمام أى اعتراف أمامهم ، ويطلعهم على أغلب جراحه الخفية . وسرعان ما عاد الطبيب بذهنه إلى « ماريا كروس » ، فكان يقول : «إنى رجل يا « ماريا» ، إنى رجل ذو جسد كجميع الرجال ، إن المرء لايمكنه أن يعيش بدون سعادة ، لقد اكتشفت

ذلك مؤخراً، ولكن لم يفت الأوان بعد لكى تقبلى أن تتبعينى » . وعندما انتهى زبونه من الكلام قال الطبيب بوقار وعظمة . كان الناس يعجبون بها : « يجب عليك أولاً أن تثق فى قوة إرادتك ، إنى لا أستطيع أن أفعل شيئاً من أجلك ، إذا لم تعتقد أنك حر ، ذلك لأن كل مهاراتنا تخيب أمام الوهم، فإذا اعتقدت أنك فريسة وراثة لا تُقاوَم فماذا ترجو منى ؟ إنى أرغمك على الإيمان بأن فى استطاعتك أن تروض كل الحيوانات الموجودة داخلك قبل أن تزيد ضراوتها، حتى وإن لم تكن نفسك أنت بالذات » .

وبينما كان الزبون يقاطعه بشدة ، تظاهر الطبيب ـ بعد أن نهض واقترب من النافذة ـ بأنه ينظر من النافذة نصف المغلقة فى الشارع الخالى . وكان يتألم فى بشاعة من هذا الوجود فى نفسه لتلك الكلمات الكاذبة التى لم تكن لها علاقة إلا بإيمان ميت ، فكما أننا نستقبل ضوءًا من كوكب انطفأ منذ قرون، فإن أرواحًا حوله كانت تسمع صدى إيمان قد فقده . وعاد نحو المائدة ، ولمح أن الساعة الصغيرة المصنوعة من الدلفت الصينى المقلد كانت تشير إلى الرابعة ، فصرف الزبون .

كان الطبيب يقول لنفسه وهو يكاد يجرى على الإفريز : « لايزال عندى متسع من الوقت» ، ورأى حين وصوله إلى ميدان الكوميدى ، الترام الذى حاصره المتفرجون الخارجون أفواجاً من السينما ،إنه لم ير أى عربة ، واضطر أن يأخذ مكانه فى الصف ، ومع ذلك فإنه لم يكف عن النظر إلى ساعته ! ذلك لأنه قد قَدَّرَ وقته تقديرًا سيئًا ؛ لأنه معتاد ركوب عربته ، وكان يحاول أن يطمئن نفسه ، فعلى أسوأ التقديرات سيصل متأخرًا نصف ساعة ، وهذا شىء بسيط بالنسبة لطبيب ، فإن « ماريا » كثيرًا ما كانت تنتظره . هاهى ذى الساعة الخامسة! صاحت فى وجهه امرأة سمينة غاضبة كانت ريشة

قبعتها تداعب أنفه : « ما هذا . . ما هذا . . لا تدفَعْنِى على هذه الصورة يا سيد » . وندم وهو فى الترام المزدحم ، وقد أحس بشدة الحز ، ومع هذا لبس سترته خشية شدة العرق الذى كان يتصبب منه ، وخشية أن يصبح وجهة قذرًا ورائحته كريهة .

لم تكن الساعة قد بلغت السادسة حينما نزل أمام كنيسة «تالانس» ، وأسرع الخطو أولاً ثم أخذ يعدو كالمجنون من شدة القلق ، بالرغم من أن قلبه كان يؤلمه ، وكانت سحابة كثيفة تجعل السماء مظلمة . . لابد أن الثور الأخير كان ينزف منه الدم تحت هذه السماء القاتمة . وبين قضبان الأسوار الخارجية للحدائق كانت عيدان الزنبق المغبرة تترقب المطر كأنها أيادٍ ممدودة إليه ، وكان الطبيب يعدو تحت قطراته الدافئة المتقطعة نحو المرأة التى كان يتخيلها مستلقية على المقعد الوثير لا ترفع عينيها عن الكتاب المفتوح ، وبينما كان يقترب من باب الحديقة رآها تخرج فجأة . . ووقف الاثنان . . كانت تلهث ؛ لأنها كانت تعدو هى الأخرى . .

فقالت بلهجة لايكاد يظهر فيها الحنق :

ـ حددت لكَ الساعة الخامسة والنصف فى رسالتى إليك .

حدق بنظرة ثاقبة وسألها :

ـ لقد تركتِ ثياب الحزن .

فنظرت إلى ثوبها الصيفى وأجابت :

ـ أليس اللون البنفسجى القاتم دليّلا على نصف حزن ؟

ولما كان كل شىء يختلف عن كل ما كانٌ يتصوره ، فقد أوحى إليه جُبنه المتعاظم بهذه الكلمات :

ـ بما أنكِ لستِ فى انتظارى ، ومن الجائز أن يكون غيرى فى انتظارك فى مكان آخر ، فلنؤجل لقاءنا إلى موعد آخر .

ـ من تظن أن يكون فى انتظارى ؟ إن أمرَكَ لعجيبٌ أيها الطبيب !

عادت إلى البيت وهو يتبعها . . كانت قد تركت ذيل ثوبها المصنوع من التافتاه البنفسجى يجرجر فيثير الغبار من حولها . . وكان يرى رقبتها لأنها كانت تخفض رأسها . . أغلب الظن أنها عندما أعطت موعداً للطبيب يوم الأحد كانت متأكدة ومقتنعة بأن الصبى المجهول لن يأخذ ترام السادسة فى هذا اليوم . ولهذا أسرعت بالخروج كالمجنونة من شدة الفرح والأمل ؛ لأن الطبيب لم يحضر فى الساعة المحددة ، وهى تقول فى نفسها : « ألا يمكن ، ولو بنسبة واحد فى الألف ، أن يكون قد ركب الترام العادى بسببى . . آه ! لا أريد أن تفوتنى هذه الفرصة » .

ولكنها لم تعرف للأسف ما إذا كان هذا الصبى المجهول سيكون حزيناً فى يوم الأحد هذا فى ترام السادسة ، لأنه لن يراها . كان المطر كثيفاً يتقاطر على درج السلم الذى أسرعت فى ارتقائه . وكانت تسمع أنفاس العجوز من خلفها وتقول لنفسها آه من سخافة هؤلاء الأشخاص الذين لاتهتم بهم قلوبنا ، والذين اختارونا مع أننا لم نخترهم ! كم هم بعيدون عن مشاعرنا الداخلية ! إننا لا نريد أن نعرف عنهم شيئاً ، وحياتهم أو موتهم أمر لا نكترث به . . ومن عجب أن يكون هؤلاء هم الذين يملئون حياتنا » .

عبرا غرفة المائدة ، دفعت هى شيش الصالون ، وخلعت قبعتها واستلقت ، ثم ابتسمت للطبيب وهو يبحث يائساً عن بعض الكلمات التى أعدها لها من قبل ، فقالت له :

ـ أنت مقطوع النفس . . وأنا السبب فى أنك أسرعت الخُطَا أكثر مما يجب .

ـ لست عجوزاً إلى هذا الحد .

رفع عينيه نحو المرآة الموضوعة فوق المقعد الوثير ، كما هى عادته دائماً ، ماذا ؟ ألم يعرف نفسه بعد ؟ لماذا يشعر كل مرة بهذه الضربة فى القلب وبهذا الاندهاش الحزين ، كما لو كان ينتظر رؤية شبابه وهو يبتسم له ؟ وهاهو ذا يتساءل دائماً عندما يتحدث إلى «ماريا» ويقول : « وماذا عن صحتك » ؟ فواقع الأمر أنها لم تشعر قط بأن صحتها بمثل ماهى عليه الآن من الجودة . كانت تحس عند إبلاغ الطبيب بهذا النبأ بلذة تعوضها عما أصابها من خيبة الأمل . لا لأن الصبى المجهول لن يركب فى يوم الأحد هذا الترام ، ولكن لأنه سيكون فيه غدًا ولاشك ، وهاهى ذى قد تحولت نحو هذه اللذة وهذا الأمل الذى يموت كل يوم ثم يحيا ثانية ، فمن الجائز أن يحدث شىء جديد ، وربما وجه إلينها الحديث فى نهاية الأمر .

قال لها الطبيب :

ـ تستطيعين بدون أى ضرر أن تَكُفِّى عن الحقن . . قال ذلك وهو ينظر فى المرآة إلى ذقنه التى قل فيها الشعر ، وإلى جبهته العريضة ، وتذكر الكلمات الحارة التى كان قد أعدها من قبل .

فأجابته :

ـ تصور يا سيدى الطبيب أنى أنام ولا أشعر بالملل ، ومع ذلك فليس لى قابلية لقراءة أى شىء ، ولا أستطيع أن أصل إلى نهاية قصة « رحلة إلى مدينة إسبرطة » وتستطيع أن تستردها إذا أردت .

ـ ألا تزالين تُعرضين عن مقابلة أحد ؟

ـ هل تعتقد أنى امرأة أبوح فجأة بسرى إلى عشيقات هؤلاء السادة ، أنا التى فررتُ منهم حتى الآن فرارى من الطاعون ؟ إنك تعلم أننى الوحيدة من نوعى فى مدينة بوردو . . ولا أستطيع أن أخالط أحدًا .

كثيراً ما قالت ذلك ، ولكنها كانت تقوله فى صورة شكوى ، ولم تقله بهذا المظهر الهادىء السعيد .

كان الطبيب يعرف أن هذا اللهب الطويل لم يعد يمتد نحو السماء ، ولم يعد يحترق بدون طائل ، وأنه قد وجد بقرب الأرض غذاء لايعلم عنه شيئًا ، ولم يستطع أن يمنع نفسه من القول بلهجة معادية : إنها إذا لم تكن ترى هؤلاء النساء ، فإنها ترى أحياناً هؤلاء السادة . ولكنه شعر بخجل ، وتراءى له أن المحادثة قد تأخذ الشكل الذى تمناه بهذه الشدة ، ولكن هاهى ذى « ماريا» تسأله وهى ضاحكة :

ـ يا الله ! هل أنت غيور أيها الطبيب حقًّا ؟ إنك تلومنى كأنك تغار !

وأضافت فى الحال :

ـ اطمئن ، إنى أمزح ، فأنا أعلم من أنت .

ومن يدرى أنها قد أرادت أن تمزح ، وأنها لاتستطيع أن تتصور الطبيب وهو يشعر بعاطفة من هذا النوع ؟! واستطردت وهى تقول ممعنة النظر فى شىء من القلق .

ـ ألم أجرحك بهذه الكلمات ؟

ـ حقًّا يا « ماريا » جرحتِنى فعلاً .

ولكنها لم تدرك أى جرح يتحدث عنه ، فأكدت له احترامها وتقديرها له ، أفلم ينزل إلى مستواها ؟ ألم يفضل أحياناً بأن يرفعها إلى مستواه ؟ وهاهى ذى تضغط على يد الطبيب بحركة لاتقل نفاقاً عن هذه الكلمة ، وتقربها إلى شفتيها ، ولكن الطبيب سحب يده فجأة ، فنهضت « ماريا كروس » وقد غمرها شعور بالإهانة . اقتربت من النافذة ونظرت إلى الحديقة الغرقى بالمياه ، ونهض الطبيب أيضًا ، فقالت له بدون أن تلتفت إليه :

ـ انتظر إلى أن يكف المطر .

كان واقفاً فى الصالون ، وكان يستغل بصفته رجلاً منظماً فى حياته هذه الدقيقة الحرجة لكى يقتلع من نفسه كل رغبة وكل أمل . نعم ، لقد انتهى كل شىء ، وكل ما يتصل بهذه المرأة ، فلم يعد يهمه وهو خارج عن لعبتها ، فمكانه على هامش حياتها . وأتى بحركة من يده تدل على انتهاء كل شىء. فالتفتت « ماريا » لكى تصيح به قائلة :

ـ السماء لم تعد تمطر .

كان لايزال جامدًا فى مكانه ، إنها لاتريد بقولها هذا أن تطرده ، بل لأنه يستحسن ألاَّ يترك فرصة انقطاع المطر بدون أن يفيد منها . وعرضت عليه أن يأخذ مظلة تقيه المطر . قَبِلَ فى البداية ، ثم رفض ؛ لأنه أنب نفسه حين خطر بباله أن يعيد المظلة ، حتى لاتكون هناك فرصة للعودة .

سكت ألمه ، فلم يعد يحس به ، بل راح يتلذذ بالمطر الذى أوشك على الانتهاء . أخذ يفكر فى نفسه أو فى هذا الجانب من حياته ، وكأنه صديق مات يعزيه عن فقده ، إنه لم يعد يتألم ، لقد لعب اللعبة وخسر ، ولا داعى للعودة إلى هذا الميدان ، عليه فقط ألاَّ يهتم بشىء إلا بعمله ، لقد أخبروه

بالأمس تليفونيًّا من المعمل أن الكلب لم يعش بعد عملية بتر الطحال ، وتساءل : هل يستطيع روبنسون أن يستجلب كلباً آخر من مستشفى الكلب ؟

كان الترام يمر أمامه بحشد من الناس بلغ منهم الإجهاد والعناء ، ولكنه كان مروراً من السير فى هذه الضاحية المليئة بالزنبق ، والتى كان ينبعث منها رائحة الريف الحقيقى بسبب المطر ومغيب الشمس . . لقد تخلص من العذاب ، انتهى كما ينتهى سجين ثائر ارتمى على جدران زنزانة . . تلك هى قوته منذ أيام طفولته ، والتى انتشرت من حوله بسبب اتصاله بكثير من المخلوقات ، إنه يستعيدها الآن ويدفعها فى قرارة نفسه ، وإذا به يقلع عن سلوكه إقلاعاً تاماً ، ويرى ـ برغم لوحات الإعلانات والقضبان اللامعة ، وبرغم راكبى الدراجات المنحنين على مقدم الدراجة ، حيث ربطوا زهور الزنبق الآخذ فى الذبول ـ هذه الضاحية تتحول إلى ريف ؛ برغم تحول الحانات إلى فنادق مليئة بسائقى البغال الذين سيرحلون على ضوء القمر . . هؤلاء السائقون الذين سيسافرون طوال الليل كأنهم أموات تمددوا فى عرباتهم وهم يتطلعون إلى النجوم . كان الأطفال يأخذون مظهراً ريفيًّا فيلعبون على عتبات الأبواب لعبة « فرقع لوز » ، ولا ينطح أحد منهم الحائط. تُرى كم مضى من السنوات منذ كان يهلك نفسه فى هذا الهجوم اليائس ؟ لقد مضى على ذلك أكثر من نصف قرن . . رأى نفسه ثانية وهو يبكى وينتحب بجانب فراش أمه ذات صباح من أيام الدراسة ، وكانت تصيح به : « ألا تشعر بخجل وأنت تبكى أيها الصغير الكسلان أيها الصغير الأحمق » . ولم تكن تعرف أن بكاءه ليس لشىء سوى اليأس الناتج عن افتراقه عنها » .

ما أطول ذلك الوقت الذى ضاع سدى ! ياللعار ! أليس هو ذلك الشخص الذى لم يشك يوماً فى أن الجنس البشرى يهتم بكل حركة من حركاته فى معمله ؟ كم من يوم قد ضيعه عبثاً ! إن العلم يتطلب أن يُخْدَمَ وحده بإخلاص ، ولايحتمل شريكاً له فى هذا الإخلاص . آه ! إنى لم أكن إلا نصف عالم . . وتصور أنه يرى ناراً بين الغصون ، ولم يكن ذلك إلا القمر الذى أخذ فى الارتفاع ، ولاحت له الأشجار التى كانت تخفى المنزل حيث يجتمع هؤلاء الذين يسمونهم أهله ، وكم من مرة خان ذلك العهد الذى راح يجدده الآن فى قلبه ، ألا وهو : « إنى سأجعل « لوسى» سعيدة ابتداء من هذا المساء » .

أخذ يسرع فى خطواته مشتاقاً إلى أن يبرهن لنفسه أنه لن يضعف هذه المرة فى تنفيذ هذا العزم ، أراد أن يتذكر لقاءها الأول . حدث ذلك منذ خمس وعشرين سنة فى إحدى حدائق أركاشون ، وقد رتب هذه المقابلة واحدٌ من زملائه ، ولكنه لم يتبين فى نفسه هذه الصورة الباهتة لخطيبة ذلك الوقت البعيد ، غير أنه لم ير إلا صورة امرأة شابة نصف حزينة ، مبتهجة لأنه جاء متأخراً ، بل إنها كانت مسرعة للقاء رجل آخر ، ترى من هو هذا الرجل ؟ شعر الطبيب بألم لاذع ، فتوقف لحظة ، ثم أسرع فجأة لكى يزيد المسافة بينه وبين هذا الشخص الذى تحبه « ماريا كروس » . كان يشعر بشىء من الراحة ، مع أن كل خطوة يخطوها كانت تقربه دون علمه من المنافس المجهول . . وفى هذا المساء بالذات شعر الطبيب عندما عبر باب غرفة المائدة ـ وكان « ريمون » يتشاجر مع زوج شقيقته ـ بنظرة هذا الشخص الغريب ، الذى ساقه الطبيب إلى الحياة ، وبربيع حياته الفجائى .

● ● ●

نهض الجميع بعد تناول الطعام ، ومد الأطفال جباههم إلى شفاه ساهمة، شفاه كبار السن ، وأدركوا غرفهم ، ومن حولهم الأم والجدة . واقترب « ريمون » من الباب المطل على الحديقة ، وعجب الطبيب من تلك الحركة التى قام بها « ريمون » ليأخذ سيجارة من علبة السجائر ، وينفضها على يده ، ثم يشعلها . . كانت هناك وردة لم تتفتح بعد ، تتدلى من عروة سترته ، وكان لسرواله ثنيته التى يجب الاحتفاظ بها ، فخالجت ذهن الطبيب هذه الفكرة : « عجيب أن يشبه ريمون والدى المسكين إلى هذا الحد . . نعم إنه صورة من ذلك الجراح الذى ظل حتى السبعين من عمره يبدد ثروته التى اقتناها من ممارسة فنه إنفاقًا على النساء ، لقد كان أول من أوجد فى مدينة بوردو منافع التعقيم . وكان لا يعير ابنه أى اهتمام ، بل إنه لم يكن ليدعوه إلا بالولد ، كما أنه لم يكن ليتذكر حتى اسمه . . فى ذات ليلة أحضرته امرأة وفمه معوج يسيل منه اللعاب ، ولم يعثر أحد على ساعته، ولا على حافظة نقوده ، ولا على الخاتم الماسى الذى كان يزين أصبعه الصغير . . وقال الطبيب فى نفسه : « إنى لم أرث عنه إلا قلباً خُلق للصبابة ، أما مذاهب الفتنة والسحر فستكون لحفيده » .

كان الطبيب ينظر إلى « ريمون » الملتفت ناحية الحديقة . . إن هذا الطبيب ، بل هذا الرجل ابنه . . إنه كان يود بعد هذا اليوم المحموم أن يبوح بسره أو يطلق حنانه من عقاله ، وأن يسأل ابنه : « لماذا لانتجاذب أطراف الحديث ؟ أتعتقد أنى لا أستطيع فهمك ؟ أيكون البعد بين الأب وابنه إلى هذا الحد ؟ وما لخمس وعشرين سنة تفصل بينهما من قيمة ؟ إنى أحتفظ بقلب ابن العشرين وأنت منى ، أفلا يكون من الجائز أن تكون لنا نفس الميول ونفس النفور ونفس الإغراء . . فمن منا يبدأ بقطع جبل الصمت ؟

« . . إن الرجل والمرأة مهما كان بُعد أحدهما عن الآخر يستطيعان أن يلتحما في عناق ، وحتى الأم تستطيع أن تجذب رأس ابنها الكبير وأن تقبل شعره ، أما الأب فلا يستطيع أن يقوم إلا بتلك الحركة التى قام بها الطبيب « كوريج » أى أن يضع يده على كتف « ريمون » ، ولكن « ريمون » ارتجف واستدار ، فأخفى الرجل عينيه وقال له :

ـ ألا تزال السماء تمطر ؟

مد « ريمون » ذراعيه إلى الخارج وهو واقف على عتبة الباب وقال :

ـ لا ، لقد كف المطر .

ثم أضاف بدون أن يدير رأسه نحو أبيه قائلاً : « طاب مساؤك » وتلاشى بعد ذلك صوت وقع خطواته .

● ● ●

ذهلت السيدة « كوريج » حين سمعت أن زوجها يطلبها لتتنزه معه فى الحديقة ، فقالت إنها ذاهبة لإحضار الوشاح ، وسمعها وهى تصعد ثم تنزل فى لهفة غير عادية ، فقال لها :

ـ امسكى ذراعى « يا لوسى» ، فقد اختفى القمر وراء السحب ، وأصبح الإنسان لا يرى شيئاً .

ـ لكن الممشى أبيض اللون .

لاحَظَ الطبيب ، وقد اتكأت عليه زوجته ، أن جسدها لايزال يحتفظ بالرائحة نفسها التى كان عليها أيام خطبتهما ، حينما كانا يجلسان معًا على

مقعد واحد ، أثناء ليالى شهر يونيو الطويلة . . إن هذه الرائحة المنبعثة من الجسم والظلام لم تكن إلا نفس رائحة خطبتهما .

وسألها إن كانت قد لاحظت هذا التغيير الكبير الذى حدث لابنهما ، فقالت : إنها تجده دائماً عبوساً نفوراً عنيداً . وألح عليها قائلاً : « إن ريمون قلل من مسايرته للظروف ، وزادت سيطرته على نفسه . . وهذا الاهتمام الجديد بملابسه ، أليس جديراً بالاعتبار ؟

ـ آه ! لنتحدث عن ذلك ، فإن « جولى » كانت متبرمة أمس ؛ لأنه يضطرها إلى كىِّ سرواله مرتين فى الأسبوع .

ـ حاولى أن تُهدئى « جولى » التى حضرت ولادة « ريمون » .

« جولى » مخلصة ، ولكنَّ للإخلاص حدودًا ، ومهما قالت « مارلين » فإن خدمها لايقومون بأى شىء . . إنى متفقة معك على أن طبع « جولى» ردىء غير أنى أدرك تماماً سبب ثورتها حين اضطرت إلى تنظيف سلم الخدم وجزء من السلم الكبير .

واستأنف الطبيب حديثه قائلاً بصوت خافت :

ـ إن « ريمون » الصغير . .

ـ يجب علينا ألاَّ ننسى أننا نجد من يحل محل « جولى » إنك ستقول إنها تتسبب فى خروج كل الطباخات ، ولكنها فى كثير من الأحيان هى المحقة . . وبهذا فإن ليونى . .

فسألها بنوع من الرضا :

ـ ومن تكون « ليونى » هذه ؟

ـ إنك تعلم جيدًا أنى أقصد بها تلك الشغالة البدينة ، لا ، إنى لا أقصد الأخيرة ، بل التى لم تبق عندنا إلا ثلاثة أشهر ، إنها لم ترد القيام بتنظيف غرفة المائدة ، مع أن ذلك لم يكن من عمل « جولى » .

فقال :

ـ إن خدم هذه الأيام يختلفون عن خدم الأيام الماضية .

كان يشعر أن فى نفسه شيئاً ما . . شيئاً يدفعه إلى أن يبوح بسره ، وأن بداخله شيئاً يدفعه إلى أن يُظْهِر خبايا فؤاده ، كما يدفعه إلى البكاء ، فقال :

ـ يحسن بنا أن نعود .

ـ إن « مارلين » تكرر على سمعى أن الطباخة عبوس دائماً ، ولكن «جولى» ليست السبب فى هذا العبوس ، إنَّ تلك الفتاة تريد زيادة فى الأجرة . . إنهن لا يكسبن هنا مثلما ما يكسبن فى المدينة ، على الرغم من كثرة مشترياتنا ، ولولا هذا لما بقين فى خدمتنا طويلاً .

ـ إنى عائد .

ـ بهذه السرعة ؟

شعرت الزوجة أنها خيبت أمله ، وكان من الواجب عليها أن تنتظر ، وأن تتركه يتكلم ، فتمتمت :

ـ إن عدد المرات التى اجتمعنا فيها للحديث ليست بالكثيرة .

من وراء تلك الكلمات اليائسة التى كانت تكدسها على الرغم منها ، ومن وراء هذا الجدار الذى شيدته أحاديثها العادية العابرة يوماً بعد يوم ،

كانت « لوسى كوريج » تسمع نداء الرجل الحى المدفون الخافت ، فقد كان يصل إلى أذنيها ذلك النداء الذى يشبه نداء عمال المناجم المدفونين ، كما كانت تشعر هى أيضاً من أعماقها ، ويالها من أعماق ! أن صوتاً يتجاوب مع هذا الصوت ، وأن حناناً يهيج ويضطرم فى هذه الأصوات جميعاً ، أتت الزوجة بحركة كأنها تريد أن تضع رأسها على كتفه ، ولكنها لم تفعل ، نظراً لما أدركته من تقطيب وجهه ، فرفعت عينيها نحو المنزل ، ولم تستطع أن تمنع نفسها من أن تقول :

ـ لقد تركت النور مضيئاً فى غرفتك مرة أخرى .

على أنها قدمت على هذه الكلمة فى الحال ، إذ أسرع على إثْرها فى خطواته لكى يبتعد عنها ، ثم صعد السلم بسرعة ، وتنهد تنهداً يدل على الراحة حينما وجد « الصالون » خالياً ، واستطاع أخيراً أن يصل إلى مكتبه بدون أن يلتقى بأحد ، وهنا جلس إلى مكتبه وراح يضغط بكلتا يديه على وجهه المنهك ، ثم أعاد مرة أخرى بيده تلك الحركة التى توحى بإزالة كل مافى نفسه من هموم .


الفصل السادس

أوقف انقطاع التيار جميع مركبات الترام ، فبقيت جامدة لا حرارة فيها على امتداد كل الشوارع ، كأنها دود قز صغير اصطف فى موكب . . وكان لابد من وقوع هذا الحادث حتى يتم اللقاء بين « ريمون كوريج » و « ماريا كورس» آخر الأمر . ومع ذلك ففى اليوم التالى ليوم الأحد الذى لم يتقابلا فيه ، كان الخوف من عدم لقائهما بعد ذلك يعذبهما ، فكل منهما كان قد صمم على أن يبدأ بالخطوة الأولى . . كانت ترى فيه تلميذاً وديعاً يخجله أى شيء تافه ، أما هو فكان يتساءل : كيف يجرؤ على التحدث إلى امرأة ؟ لقد توقع وجودها بين الراكبين ، برغم أنها كانت ترتدى للمرة الأولى ثوباً فاتح اللون ، أما هى فبرغم ضعف بصرها فقد تعرفت عليه من بعيد ؛ لأنه اضطر إلى ارتداء ملابس الكلية فى ذلك اليوم بمناسبة إحدى الحفلات ، كان معطفه مُلْقًى على كتفيه فى إهمال زائد ، فلم يهندم ملابسه لتكون جديرة بزى طلبة مدرسة الصحة البحرية . وكان بعض المسافرين يصعدون إلى الترام مصممين على الانتظار ، فى حين يبتعد البعض الآخر فى شكل جماعات . التقى « ريمون » و«ماريا» بجانب السلم ، فقالت بصوت خافت بدون أن تنظر إليه ، حتى اعتقد أنها لا توجه إليه الحديث :

ـ على كل حال ، فإن المسافة التى أريد قطعها ليست بالبعيدة . .

فقال وقد أدار وجهه قليلاً وقد التهب خدَّاه :

ـ لو أن الإنسان سار ولو مرة واحدة على قدميه ، فلن يكون ذلك سخيفاً .

فتجاسرت على النظر إلى هذا الوجه الذى لم تره بمثل هذا القرب وقالت :

ـ منذ أن اعتدنا أن نعود معاً ، لاينبغى أن نفقد هذه العادة .

سارا بضع خطوات صامتين ، فكانت تنظر خلسة إلى هذا الخد الملتهب، وهذا الجسم النضر الغض . وكان يسند إلى أحد جنبيه ـ بحركة لاتزال تحمل طابع الطفولة ـ حقيبة مستعملة مليئة بالكتب ، فتأكدتْ من أنه لايزال صبيًّا ، فشعرت بخجل مبهم وخز ضميرها ، أما هو فكان يشعر بتجمده من كثرة الخجل ، وشُلت حركته كما كان يحدث له فيما مضى حينما يبدو له أن دخول أحد المحال يُعد من الأمور الخارقة . وأدهشه أن يجد نفسه أكبر منها حجماً ، وكانت قبعتها الصفراء اللون المصنوعة من القش تخفى عنه وجهها ، دون رقبتها العارية ، وكتفها البارزة قليلاً من الثوب ، تملكه الرعب حينما لم يجد كلمة واحدة يقطع بها هذا الصمت ، ويفسد بها هذه اللحظة فقال :

ـ أحقًّا ما تقولين عن مسكنك غير البعيد ؟

ـ نعم ، فكنيسة «تالانس» تبعد عن الشوارع العامة عشر دقائق .

أخرج من جيبه منديلاً عليه بقع من الحبر ، وجفف به جبينه ثم سارع بإخفائه عندما لاحظ الحبر فقالت له :

ـ ولكن مسافتك قد تكون أطول . . أيها السيد .

ـ أوه . . لا ، إنى أنزل بعد الكنيسة بقليل . .

وأضاف مسرعاً : أنا ابن الطبيب « كوريج » .

فقالت بلهفة : إنه طبيب مشهور ، أليس كذلك ؟

فرأى وهو يرفع رأسه لكى ينظر إليها أن لونها قد أصبح شاحباً ، ومع ذلك قالت :

ـ حقًّا ، إنه عالم صغير . . أرجو ألاَّ تحدثه عنى بشكل خاص .

ـ إنى لا أحدثه عن شىء أبداً ، ولا أعرف فى الوقت نفسه مَنْ أنتِ .

ـ يستحسن ألاَّ تعرف من أنا .

رمقته من جديد بنظرة طويلة . . إنه ابن الطبيب ، لا يستطيع إذن إلاَّ أن يكونِ تلميذاً ساذجاً ، وقد يهرب بعد أن يتملكه الفزع حينما يعرف اسمها ، وكيف يمكن أن يجهله ؟ إن ابن « برتران لاروسيل» قد انتظم حتى السنة الماضية فى المدرسة نفسها . . لاشك أن اسم « ماريا كروس» كان معروفاً فى المدرسة ، وكاد « ريمون » يلح فى معرفة اسمها ، يدفعه خوفه من السكوت أكثر من حبه للاستطلاع ، فأضاف :

ـ حسناً ، ولكن خَبِّرينى عن اسمك . فهأنذا قد ذكرتُ لكِ اسمىَ .

كان الضوء الأفقى فى محل الفاكهى يضفى على البرتقال أمام عتبة المحل لون اللهب ، وكانت الحدائق تبدو مغطاة بطبقة من الغبار ، وكان الجسر الذى يخترق الطريق يثير الانفعالات فى وجه « ريمون » حينما كانت القاطرات تمر عليه متجهة نحو إسبانيا . كانت « ماريا كروس » تقول فى نفسها : « ربما فقدته لو ذكرت له اسمى ، ولكن أليس من واجبى أن أبعده

عنى » . كانت تتألم وتتلذذ من ذلك الحوار النفسى ، كانت تتألم حقًّا ، ولكنها كانت تشعر بسرور غامض . وراحت تتمتم : « إن هذا من نحس الطالع . . عندما يعرف من أنا » .

وجدت نفسها تتذكر على الرغم منها أسطورة « بيسيشيسه » فى أوبرا لوهان جرام . . أطلق « ريمون » ضحكة صاخبة ، ثم قال أخيراً ، تاركاً نفسه على سجيتها :

ـ قد نتقابل على كل حال فى الترام . . لابد أنكِ لاحظْتِ أنى أتعمد ركوب ترام الساعة السادسة . . ألم تلاحظى هذا ؟ يالها من سخرية ! أتعلمين أنى أجىء أحياناً مبكراً حتى أستطيع أن أركب ترام السادسة إلاَّ ربعاً ، ولكنى أتعمد أن أتركه بسبيله ؟ وقد رحلتُ بعد مصارعة الثور الرابع حتى لاتفوتنى رؤيتك ، ولكنكِ لم تكونى فى الترام ، برغم أن « فوانتس» كان عظيماً فيما يبدو عند مصارعة ثوره الأخير . . والآن وقد تحادثنا ، فما هو اسمك ؟ مِمَّ تخافين ؟ فيما مضى كنت لا أكترث لأى شىء ولكن منذ أحسست أنك تنظرين إلىَّ . . » .

لو أن هذا الحديث صدر عن شخص آخر لاعتبرته « ماريا » إهانة ، ولكنها وجدت فيه طعماً لذيذاً ، وفى كل مرة كانت تعبر فيها الشارع بعد ذلك ، فى هذا المكان ، كانت تتذكر ما أثارت فى نفسها كلمات هذا الصبى البائس من حنان وسعادة .

ـ لابد أن تخبرينى عن اسمك . . وإلاَّ فما علىَّ الآن إلاَّ أن أسأل والدى عنه ، سيكون الأمر هيناً : امرأة تنزل دائماً أمام كنيسة « تالانس » .

ـ سأخبرك ، لكن يجب أن تقسم لى أنكَ لن تتحدث عنى أبدًا إلى والدك الطبيب .

كانت ترى أن اسمها لن يبعده عنها الآن . ولكنها آثرت أن تقول لنفسها وكأنها مازالت مهددة ببعده عنها : « فلنسلم أمرنا للأقدار » . قالت ذلك لأنها كانت متأكدة فى قرارة نفسها من أنها ستنتصر ، وأرادت قبل أن يصلا إلى «تالانس» بقليل أن ينصرف وحده بسبب البائعين الذين يعرفونها ويسببون لها المشاكل .

قال لها : موافق ولكن ليس قبل أن أعرف .

فقالت بسرعة بدون أن تنظر إليه : « ماريا كروس » .

ـ ماريا كروس ؟!

أحدثت بمظلتها ثقوباً بالأرض وأضافت بسرعة : انتظر حتى تعرفنى .

نظر إليها مفتوناً وقال : ماريا كروس !

هى إذن تلك المرأة التى سمع اسمها يتمتم به الناس ذات يوم من أيام الصيف فى ممرات « تورنى » ساعة العودة من سباق الخيل . . كانت تمر يومها فى عربتها ذات الجوادين . . قال شخص كان يجلس بجواره : « هؤلاء النساء يجب ألاَّ يَظْهَرْنَ بهذا المظهر » . وتذكر فجأة أيام علاجه بالحمامات ، عندما كان مضطرًّا إلى ترك المدرسة منذ الساعة الرابعة ، يسابق فى طريقه إليها « برتران لاروسيل» الصغير الذى كان على الرغم من صغر سنه مليئاً بالعجرفة ، وساقاه الطويلتان مكسوَّتَيْن بجلد بنى اللون . كان يتبعه خادمٌ ، وأحياناً قسيس ذو قفاز أسود وياقة معطف عالية ، فكان « ريمون » من بين كل تلاميذ الفرقة النهائية ، يتمتع عند تلاميذ الفرقة المتوسطة بشهرة واسعة . وكان « برتران » المتدين يلهب بنظراته ذلك التلميذ القذر عندما يمر بجانبه

يدون أن يشعر أنه كان فى نظر ذلك التلميذ القذر طفلاً غامضاً . وكانت السيدة « فكتوريا لاروسيل » لاتزال على قيد الحياة فى ذلك الوقت . . كانت إشاعات حمقاء تتردد فى المدينة وفى الكلية تقول : إن ماريا كروس تريد أن تتزوج ، وتشترط على من اختارته أن يترك أهله فقراء ، وكان آخرون يؤكدون أنها كانت تنتظر موت السيدة «روسيل » المريضة بالسرطان لكى تستطيع أن تتزوج فى الكنيسة .

وكثيراً ما لمح « ريمون » وراء زجاج العربة تلك الأم ذات الوجه النحيل جالسة بجوار « برتران » وسيدات كوريج وباسك تعلن : « هاهى ذى واحدة قد تألمت ! يالعظمتها فى عذابها ! لعلها استطاعت أن تُكفر عن كل سيئاتها ، وهى على ظهر الأرض . . إن رجلاً مثل هذا الرجل يستحق الاحتقار والهجر » . وفى يوم خرج «برتران لاروسيل» وحده فسمع ذلك التلميذ القذر يصفر وراءه ، فأسرع بخطواته ، ولكن « ريمون » رتب خطواته على خطوات « برتران » ولم يكفّ عن النظر إلى المعطف القصير أو غطاء الرأس المصنوع من القماش الإنجليزى الفاخر إلى أبعد حدود الجمال . . إن كل شىء يتعلق بهذا الطفل كان يبدو ثميناً . أخذ « برتران » الصغير يعدو ، وسقطت كراسة من حقيبته ، وكان «ريمون» قد التقطها حين أحس «برتران» بسقوطها ، فعاد الصبى إلى الوراء شاحب اللون من شدة الخوف والغيظ وقال له : « أعدها إلىّ» ! . . ولكن « ريمون » راح يضحك ساخراً وهو يقرأ بصوت خافت :

ـ لاشك أن يوميات « لاروسيل » الصغير شيقة .

ـ أعدها إلىّ .

اخترق « ريمون » وهو يعدو باب متنزه « بوردو» وسار فى ممر خال ، وكان يسمع من خلفه صوت هذا البائس يلهث ويصيح : « أعدها إلىَّ ، سأبلغ عن ذلك ! » . ولكن التلميذ القذر المختفى وراء كومة من الأشجار كان يسخر من « لاروسيل » الصغير المنهوك القوى الذى يبكى بصوت مرتفع وهو ملقىً على الحشائش ، ثم قال له :

ـ خذ ، ها هى ذى كراستك . . يومياتك . . أيها الأبله .

نهض الصغير وهو يجفف دمعه ، وينظف معطفه الإنجليزى . وكان ذلك لطفاً غير منتظر من ذلك الشرس ! كان يبدو أن « لاروسيل » الصغير قد تأثر بذلك اللطف ، فابتسم لريمون الذى لم يستطع أن يمنع نفسه من هذا القول :

ـ أخبرنى ، أتَرى أحياناً «ماريا كروس» ؟

احمَّر وجه « برتران » والتقط حقيبته وفر دون أن يفكر «ريمون» فى مطاردته .

ها هى ذى « ماريا كروس » تفترسه بنظراتها . . كان « ريمون» قد تصورها أكبر من ذلك وأكثر غموضاً . . ولكنها قصيرة القامة ، ترتدى ثوباً أصفر اللون قاتماً .

انخدعت « ماريا » عندما لمحت اضطراب « ريمون » فقالت :

ـ لاتعتقد . . ولاتتماد فى الاعتقاد .

كانت ترتجف أمام هذا القاضى الذى كان يبدو لها ملائكى الوجه ، لم تتبين فيه سن الخطيئة ، ولم تدر أن الربيع كثيراً ما كان فصلَ الوحل ، وأن

هذا المراهق لا يستطيع أن يكون إلا الفسق ، ولم تقو على تحمل احتقار نفسها ، ففرت منه بعد كلمة وداع ألقتها إليه بصوت منخفض ، ولكنه لحق بها وقال :

ـ إلى مساء غد ، أليس كذلك ، فى الترام نفسه !

ـ أتريد ذلك ؟

استدارت نحوه مرتين وهى تبتعد عنه ، على حين ظل جامدًا فى مكانه يفكر : لقد وقعت « ماريا كروس » فى غرامى ! وأخذ يردد ذلك كمن لا يستطيع أن يصدق أن « ماريا كروس » وقعت فى غرامه .

راح « ريمون » يستنشق عبير المساء مردداً تلك العبارة ، كما لو كان يحتوى على روح الكون ، وكأنه يشعر أنه يستطيع أن يستقبله فى جسمه المنشرح : « ماريا كروس وقعت فى غرامى !» .. فهل يقول ذلك لأصدقائه؟ ولكن أحدًا لن يصدقه . وسرعان ما ظهر له سجن الأوراق الكثيفة ، حيث كان أفراد عائلة واحدة يعيشون مختلطين ومنفصلين .. توغل تحت غطاء من أشجار الصنوبر فى تلك الغابة الوحيدة التى لايحدها سور ، والتى كان يطلق عليها اسم غابة برج ، وكانت الأرض التى نام عليها أدفأ من جسمه ، كما أن أشواك الصنوبر خَلَّفَتْ على راحتيه آثارها .

عندما دخل « ريمون» حجرة المائدة كان والده يفتح صفحات إحدى المجلات ويجيب عن ملاحظة كانت زوجته قد ألقت بها إليه قائلة :

ـ إنى لا أقرأ ، وإنما ألقى نظرة سريعة على العناوين .

ـ يبدو أن الجدة كانت هى الوحيدة التى سمعت التحية التى حيًّا بها «ريمون» الجميع ، فداعبته بقولها :

ـ هاهو ذا الشقى قد وصل .

ثم أمسكت به عند مروره بالقرب من مقعدها وجذبته إليها وقالت له :

ـ تفوح منك رائحة الصمغ .

ـ أنا عائد الآن من غابة البرج .

فنظرت إليه نظرة عطف وتمتمت فى حنان قائلة :

ـ يا ماكر !

كان «ريمون» يتناول الحساء بصوت يشبه لعق الكلب ، وكان هؤلاء القوم يبدون له صغاراً ! إنه ينظر إليهم من سمائه ، والده وحده هو الشخص الذى يبدو له قريباً منه ، فهو يعرف «ماريا كروس» ، وتردد على دارها ، وعالجها ، ورآها وهى فى الفراش ، ووضع أذنه على صدرها وظهرها . «ماريا كروس ، ماريا كروس» . إنه اسم يسبب له اختناق الدورة الدموية. كان يشعر أثناء ترديده لهذا الاسم بمزيج من حلاوة ومرارة . وأخيراً ، بعد أن امتلأ فمه بهذا الاسم انساب تيار دافىء ملأ شدقيه ، فانفلتت منه هذه العبارة :

ـ رأيت « ماريا كروس» هذا المساء .

وفى الحال صوب والده إليه نظرة وسأله :

ـ كيف عرفت شخصيتها ؟

ـ كنت مع صديقى «بابيون» الذى يعرفها .

فصاح «باسك» قائلاً :

ـ أوه . . أوه . . وجه «ريمون» يحمر خجلاً !

وكررت الطفلة الصغيرة قوله :

ـ نعم . . نعم . . إن وجه « ريمون » يحمر خجلاً .

وهز « ريمون » كتفيه مزمجراً . . وعند ذلك وجَّه إليه والده سؤالاً آخر بعد أن أدار وجهه :

ـ هل كانت بمفردها ؟

وعندما أجاب « ريمون» بالتأكيد ، عاد الطبيب إلى مجلته يفتح أوراقها ، على حين كانت مدام « كوريج » تتساءل قائلة :

ـ ما أغرب هذا الأمر ! إن هذا النوع من النساء يثير اهتمام الناس أكثر من غيره . . ما الغرابة فى أن يرى الإنسان هذه المرأة وهى تمر ؟ فلم تكن تثير أى اهتمام يوم كانت خادمة سرير .

اعترض الطبيب حديثها بقوله :

ـ ما الداعى إلى هذا الافتراء ؟ إنها لم تكن يوماً خادمة سرير .

فصاحت « مارلين » فجأة قائلة :

ـ هذه المهنة ليس مهينة بالنسبة لها .

وفى اللحظة التى غادرت فيها الخادم الغرفة ، حاملة مابقى من ألوان الطعام وجهت «مارلين» الحديث إلى أمها فى لهجة غاضبة :

ـ يبدو أنك تتعمدين إهانة الخدم وجرح مشاعرهن . إن «إرما» شديدة الحساسية .

ـ عجيب ، أينبغى علينا أن نتحفظ معها فى القول ؟!

ـ عامِلِى خدمك كما يروق لك ، ولكن لا تتسببى فى طرد خدم غيرك ، وبخاصة عندما ترغمينهن على الخدمة على المائدة أثناء الطعام .

ـ هل كنتِ تحرصين على مراعاة مشاعر «جولى» ؟ من المعروف عنكِ أنك لاتستطيعين الاحتفاظ بخادم . . إن جميع الناس يعلمون أن الخدم لايتركون المنزل إلا بسببكِ أنت .

قطعت عودة الخادم هذه المناقشة ، ثم استؤنفت بصوت خافت فى اللحظة التى ذهبت فيها الخادم إلى المطبخ . وكان « ريمون » يلاحظ والده فى حنان وعطف ويتساءل : « هل كانت « ماريا كروس» تثير اهتمامه حقًّا لو أنها كانت وصيفة ؟ » . وفجأة رفع الطبيب رأسه ثم قال بدون أن يوجه نظره إلى أحد :

ـ إن « ماريا كروس» هى ابنة المدرِّسة التى كانت تدير مدارس سانت كلير عندما كان السيد «لابروس» العزيز لديك يالوسى قسيساً فى هذه الدار.

ـ ماذا تقول ؟ أهى أمها تلك الشمطاء التى عانى منها الأمرين ، والتى رأت ألاَّ تحضر قداس يوم الأحد طالما حال القسيس بينها هى وتلميذاتها وبين الجلوس فى الصف الأول فى الكنيسة ؟ إن سلوك ابنة هذه المرأة لايدهشنى ، إنها صورة من أمها ؛ لأن العِرْق يمتد .

وقالت السيدة : قَصَّ علينا «لابروس» المسكين : «فى ليلة إعلان نتيجة الانتخابات التى فاز فيها محامٍ مجهول فى مدينة «بازاس» على الماركيز «دى لورسالوس» حضرت هذه المدرِّسة ، ووقفت تحت نافذة دار القسيس الملحقة

بالكنيسة فى جَمْع من التلميذات ، وأخذت تقذف المفرقعات احتفالاً بنجاح النائب الجديد ، حتى اسودت أصابعها من البارود » .

ـ هاهى ذى عائلتها !

ولكن الطبيب لم يعرها أى التفات ، وبدلاً من الذهاب إلى عيادته كما تعود أن يفعل كل ليلة تبع « ريمون » إلى الحديقة .

كان الأب والابن فى شوق إلى الحديث فى هذا المساء ، وكانت هناك قوة مجهولة تجمع بينهما وكأنهما يمتلكان سرًّا واحدًا ، وكان كل منهما يرى فى الآخر الشخص الوحيد الذى يستطيع أن يحدثه عن أمنية قلبه . وكانت حالهما فى التقاء رغباتهما عند نقطة واحدة أشبه بحالة اثنين فصلت بينهما الآمال ، ثم التقيا على صندوق مغلق بداخله الفراشة الأنثى ، التى تضوع فى الجو رائحتها . هكذا كان الوالد والولد ، حينما التقت رغباتهما فى «ماريا كروس» الخفية ، سأل الأب الابن :

ـ هل معك سيجار يا «ريمون» ؟ لقد نسيت طقم التبغ .

ـ أشكرك . . هل لك فى جولة ؟

كان الرجل يسمع صوت نفسه فى ذهول ، ويشعر بأنه فى مثل حال ذلك الجريح الذى اعتقد خطأ أنه قد شُفى من جرحه العضال بمعجزة من المعجزات ، ثم تبين فيما بعد أن الجرح لايزال ينز . ففى هذا الصباح بالذات كان يشعر وهو فى المعمل بذلك الإحساس الذى يغمر قلب المؤمن حين تغفر له ذنوبه . وكان ذلك لأنه لم يكن يشعر بأى أثر لعاطفته نحو «ماريا كروس» . وتذكر قوله لزميله «روبنسون» فى لهجة مسرحية تشعر بحرص على الفضيلة ، وكان «روبنسون» قد عرف فى الربيع فتاة تعمل فى مسرح

البسوف ، كانت السبب فى إهماله لعمله أحياناً : « يا صديقى ، إن الرجل الذى يشغله البحث العلمى ويتطلع إلى أن يكون من أصحاب الألقاب العلمية الضخمة ينظر إلى هذه الدقائق والساعات التى ينفقها فى سبيل الحب على أنها لحظات مفقودة » . وتذكر أيضاً أن «روبنسون» قد مسح على شعره بيده ونظف منظاره بطرف معطفه ، ذلك المعطف الذى أتلفته الأحماض ، وجازف بقوله :

ـ الحب على أية حال . . .

ـ لا يا صديقى العزيز ، ليس للحب مكان عند الباحث ، ومن الضرورى أن يسيطر العِلْم على الحب ، اللَّهم إلاَّ فى لحظات نادرة . إن العالِم الذى يصرف هذه اللحظات فى الحب سيشعر دائماً بحسرة على ما فوَّت على نفسه من المتعة والإحساس بالسمو اللذين كان سيشعر بهما لو وجه نشاطه فى هذه اللحظات إلى البحث العلمى .

وأجاب روبنسون بقوله :

ـ من المؤكد أن أكثر العلماء المشهورين لم يكونوا من العشاق ، ولكنهم كانوا يعملون على إشباع غريزتهم .

وأدرك الطبيب فى هذه اللحظة لماذا احمرَّ وجهه خجلاً حين سمع هذا القول من زميله فى المعمل . وكان كافياً أن ينطق «ريمون» باسم «ماريا كروس» حتى تتحرك العاطفة الكامنة فى قلب الطبيب ، تلك العاطفة التى كان يعتقد أنها قد انتهت . إن هذه العاطفة لم تكن إلا مُخَدَّرَةَ ، وكلمة واحدة سمعها من ابنه أيقظتها وحركتها ، إنها الآن تتثاءب وتتمطى وتنهض قائمة ، وسيكون سبيلها إلى الهدوء كثرة الحديث عن «ماريا كروس» من

حيث إن الطبيب لن يلقاها ، إنه سيتحدث عن « ماريا كروس» هذا المساء مهما كلفه الأمر .

الرغبة فى مدح « ماريا كروس» قريبة فى البداية بين الأب والابن ، ولكنهما اختلفا بعد نطق الكلمات الأولى . أكد «ريمون» أن مثيلات «ماريا كروس» يصبحن بغيضات إلى الفاضلات ، أما هو فإعجابه بجرأتها وطموحها لا حد له ، وبحياتها التى كان يتصورها ماجنة ، فعارضه الطبيب فى هذا القول ، وأكد أنها ليست ماجنة ، وأنه لايحق له أن يصدق كل ما يقوله الناس عنها . ثم أضاف قائلاً :

ـ أعرف من هى « ماريا كروس » ، وأستطيع التأكيد بأنى كنت ـ ومازلت منذ مرض ابنها الصغير «فرنسوا» ـ صديقها الحميم . لقد أطلعتنى على أسرارها .

ـ مسكين أنت يا أبى ! لقد خدعتك وغررت بك ! فليس ما تقوله صحيحاً .

بذل الطبيب جهداً ليتمالك أعصابه ، وأجاب بحرارة :

ـ لا يابنى ، وَثِقَتْ بى ، وكانت تبوح بما فى نفسها فى خشوع عجيب ، وإذا كان هناك شخص يختلف مظهره عن حقيقته فإن هذا الشخص هو «ماريا كروس» ، لقد ضلت طريقها فى الحياة بسبب هذا التراخى الذى لاتستطيع الخلاص منه . . كانت أمها تُعِدُّها للالتحاق بمدرسة «سيفر» ولكن حدث أنها تزوجت أحد الضباط من الفرقة «144» فحال ذلك بينها وبين إتمام الدراسة . . قضت مع زوجها ثلاث سنوات ، وكانت مثال الزوجة الطيبة ، ولو ظل هذا الزوج حيًّا لعاشت حياة طيبة ، وظلت فى

دارها بعيدة عن أعين الناس وعن الاتهامات . إن الشيء الوحيد الذى كان زوجها يلفت نظرها إليه دائماً ، هو أنها كسول لاتعنى كثيراً بأمر البيت . ذكرت لى أنه كثيراً ما كان يلومها بسبب هذا الكسل ، عندما يعود فيراها وقد أعدت لغدائه طبقًا واحدًا من المكرونة ، أعدته على موقد «السبرتو» وقد كانت تفضل القراءة وهى جالسة بثوبها الممزق ، وقدمهيا العاريتين إلا من المداس ، إن هذه المرأة التى يتقوّلون عليها ظلماً ، ويتهمونها بالمجون ، هى أكثر الناس زهدًا فى الحياة المترفة . كانت قد قررت فيما أعلم من زمن ليس بالبعيد ، ألاَّ تستخدم السيارة التى أهداها إليها «لاروسيل» ، وفضلت ركوب الترام مثل بقية الناس .

ما الذى يضحكك ؟ إنى لا أرى فى هذا أى شىء يدفع إلى الضحك ، لاتضحك على هذه الصورة ، فإن هذا يدفعنى إلى الضيق ، إنك لن تستطيع أن تتصور شعور هذه المرأة المحبة للقراءة والأعمال الفكرية . . لقد دفعتها الحاجة بعد موت زوجها ، ودفعها حرصها على تربية طفلها إلى العمل فى سبيل العيش ، واستطاعت إحدى صديقات زوجها أن تجد لها عملاً عند «لاروسيل» كسكرتيرة . ولم يكن فى قلبها أى رغبة خفية فى هذه السمعة السيئة ، بدليل أن «لاروسيل» لم يعتب عليها فى يوم من الأيام ، مع شدة قسوته على العمال وبرغم تأخرها باستمرار وقلة جدواها فى العمل ، وعندما لاحظت أن الناس يفسرون ذلك على حساب سمعتها لم تهتم ، ولم تعمل على نفى هذه الشائعات التى كانت تفترض أنها خليلة الرجل . عاداها الجميع ، وأصبحت إقامتها بين الموظفين عسيرة . وأخبرت «لاروسيل» بهذه الحالة ، ويبدو أنه كان ينتظر هذه اللحظة ليعرض عليها

أن تجد عملاً فى مكان آخر ، هو الإشراف على منزله الذى يقع فى ضواحى مدينة «بوردو» والذى لم يؤجره فى ذلك العام .

قال ريمون :

ـ وهل بقبولها لهذا العمل وجدت أنها لاتثير الشبهات ؟

ـ كلا بالطبع ، فهمت غرض الرجل ، لكنها كانت مثقلة بتكاليف الحياة المرتفعة ، فضلاً عن أن طفلها الصغير «فرنسوا» أُصيب بمرض خطير، ونصح الطبيب بضرورة انتقاله إلى الريف ، وفى هذه الأثناء رأت أن سمعتها ساءت إلى الحد الذى يجعلها لاتضيع هذه الفرصة من أجل أقاويل لا جديد فيها ، ولذلك قبلت على مضض .

ـ منطق سليم .

ـ أنت لاتعرف عمن تتحدث . لقد قاومت كثيرًا ، ولكن كيف تقاوم ؟ إنها لم تستطع منع «لاروسيل» من دعوة الأصدقاء كل مساء . كانت ضعيفة، ولم تكن تُقَدِّر النتائج التى ستترتب على إشرافها على هذه الحفلات. أنا أعرف ماذا كان يحدث فى حفلات العشاء التى كان يقيمها الرجل مساء كل ثلاثاء ، والتى كان الناس يعتقدون أنها ليالٍ حمراء . . فقد عزا هذا التصور إلى أن حالة السيدة «لاروسيل» كانت سيئة . . وأقسم أن «ماريا كروس» لم تكن تعلم أن زوجة «لاروسيل» مريضة ، وأنها فى حالة خطيرة . كانت تقول لى : « لم أشعر بأن هذا العمل سيىء ولم أمنح «لاروسيل » فى ذلك الوقت أى شيء حتى القُبلة . . ثم ما الذى يستوجبه الإشراف على حفلات هؤلاء السخفاء من اللوم ؟ لقد كان همى فى ذلك الوقت أن أظهر مواهبى ،وكنت بدون شك أشعر بالارتياح حين تظهر

مواهبى أمامهم . . كنت أقوم بدور المرأة المهذبة ، وكنت أشعر بأن «لاروسيل» فخور بى . . وقد وعدنى بالاهتمام بطفلى » .

قال ريمون : « وهل صدقت كل هذا ؟ » .

كان الأب ساذجاً حقًّا ، وكان أكثر ما يضايق «ريمون» ، حديث والده عن «ماريا كروس» التى وضعها فى مكانة المدرسة الصغيرة الشريفة الخاملة ، وكأنه يقلل من قيمة انتصاره على قلبها .

ـ « لم تقبل أن تكون خليلة «لاروسيل» إلا بعد وفاة زوجته ، وبعد أن ضاقت الحاجة ، ويدافع من الخمول اليائس ـ حقًّا ، إن كلمة خمول هى التى تعبر عن حقيقة موقفها ، وهى التى قالت بنفسها هذه الكلمة ، لقد قِبلَتْ هذا الوضع الجديد وهى مدركة له وغير متهيبة منه . إنها لم تبال قط بلاروسيل وهو يمثل أمامها تمثيلية دور الأعزب الذى لايستطيع أن ينسى حبه لزوجته الميتة ، ولم تكن تصدق مايقوله لها عن زواجه منها فى يوم من الأيام ، لقد قالت لى ذلك ، فهى تعرف هذا النوع من الرجال حق المعرفة ، ولذلك لم تكن تخدعها وعودهم . كانت تعرف أنها تشرِّفه كخليلة ،أما كزوجة ، فهذا وضع آخر ! لقد ألحق «لاروسيل» ابنه برتران بمدرسة نورماندى حتى لايتعرض الطفل يومًا للقاء أبيه مع «ماريا» . وواقع الأمر أن «لاروسيل» لايراها مختلفة عن أية امرأة أخرى من اللاتى يخونها معهن يوميًّا ، ومع هذا فقد كانت اتصالاته بها نادرة ، وإنى لأشهد على ذلك ، فلاروسيل برغم حبه الكبير لماريا فهو من ذلك النوع الذى يهوى الظهور أمام أهل «بوردو» مع النساء ، إلا أنها كانت تكتفى بتحقيق هذه الهوية وترفض ما عدا ذلك » .

قاطعه «ريمون» قائلاً : ما هذا ؟ «ماريا كروس» إذن قديسة ؟

كان الظلام يحول دون رؤية أحدهما للآخر ، ومع ذلك كان كل منهما يشعر بعداوة نحو الآخر . . كان الحديث يجرى بينهما بصوت خافت ، فقد جمع بينهما اسم «ماريا كروس» فى لحظة واحدة ، وهاهو ذا الآن يفرق بينهما . . وشرع الرجل يسير مرفوع الرأس ـ أما الابن فكان ينظر إلى الأرض ، ويضرب برجله ثمرة من ثمرات الصنوبر فى حالة غضب .

قال الأب : هل تتصورنى غافلاً ؟ الساذج فينا هو أنت .

من يؤمن بالشر وحده لايعرف الرجال . صدقت عندما قلت إن قديسة تسكن «ماريا كروس» المليئة بالبؤس والشقاء . نعم قد تكون قديسة ، ولكنك لاتستطيع أن تستوعب هذا الكلام .

ـ دعنى أضحك .

ـ إنك لاتعرفها . تصدق كلام الناس . أما أنا فأعرفها .

ـ وأنا أعرف جيدًا ما أقول .

ـ ماذا تعرف ؟

توقف الطبيب فى الممر حيث اشتد الظلام بسبب شجرة البلوط الكثيفة ، وضغط على ذراع «ريمون» الذى صاح :

ـ اتركنى ! كنت أود أن تكون «ماريا كروس» خليلة «لاروسيل» وحده ، ولكن هناك غيره .

ـ أنت كاذب .

تمتم «ريمون» فى ذهول . . آه ! هل وصل الأمر إلى هذا الحد ؟

خطر بباله خاطر ، سرعان ما تبدد أو خمد ، فريمون ما كان يتصور أن هذا الأب الذى عرفه منذ طفولته ، والذى كان يضعه فى منزلة ترتفع عن الآخرين ـ قد يتطرق الحب إلى قلبه يوماً ، كان يتصوره محصناً ضد العواطف، بعيدًا عن الشر ، طاهرًا عفيفًا ، يعلو على سائر البشر ، ولكنه سمع أباه يلهث فى الظلام ، فبعد أن استرد الطبيب حالته الطبيعية ، قال بعد جهد فى لهجة مرحة ، مشبعة بالسخرية :

ـ نعم أنت كاذب ومهرج . . أنت تريد أن تقضى على كل تصوراتى عنها .

وظل « ريمون » صامتاً ، فاستطرد الطبيب بقوله :

ـ هيا ، قُصَّ علىَّ ما تعلم .

ـ لا أعلم شيئاً .

ـ قلت منذ لحظة إنى أَدْرِى ما أقول .

أجاب « ريمون » بلهجة المصمم على السكوت ، أنه لم يكن إلاَّ حديثاً فى الهواء . ولم يلح الطبيب . ولم يكن هناك من وسيلة تمكن ابنه من فهمه ، ومع ذلك كان يشعر فى هذه اللحظة وهو إلى جانب ابنه أن له رائحة الحيوان الصغير . قال الطبيب :

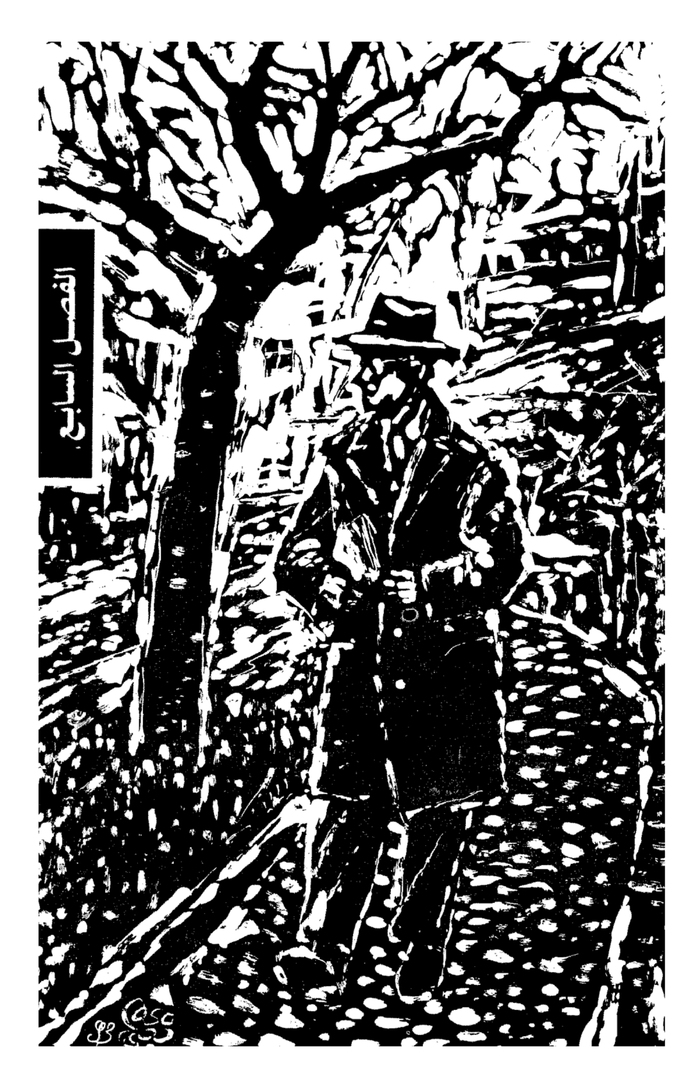
ـ سأمكث قليلاً ، ألا تريد أن تجلس إلى جانبى برهة يا « ريمون » ؟

أكد له « ريمون » أنه يفضل النوم . وسمع الطبيب صوت «ريمون» وهو يضرب ثمرة . ظل بمفرده تحت الأشجار الكثيفة ذات الأغصان المتدلية

متنبهاً لذلك الصوت الذى تربو به المروج نحو السماء ، وحينما أراد القيام بذل جهدًا كبيرًا . كان الضوء لايزال مشتعلاً فى مكتبه . خطر له أن «لوسى» قد تظن أنه لايزال يعمل فى مكتبه . « ما أكثر ماضاع من وقتى ! لقد بلغت الثالثة والخمسين من العمر . . ما أكثر سخافات هذا الصبى وحماقاته » .

وكان يتحسس شجرة البلوط متذكراً أن « ريمون » و«مارلين» قد حفرا عليها اسميهما . . ولما عثر عليها أحاطها بذراعيه ، ووضع خده على القشرة الناعمة واغمض عينيه ، ثم نهض أخيرًا وأزال الغبار عن أكمامه ، وسوى رباط عنقه ، ثم اتجه إلى المنزل .

كان « ريمون » لايزال فى الممر المظلل بالكرم يضرب بقدمه ثمرة الصنوبر . . ويداه فى جيبه وهو يتمتم : « ما أعجبه من رجل ! يصدق كل ما يقال . . هو نوع من الرجال فى سبيله إلى الانقراض . . آه . . لن أكون مثله ، سأواجه الأمور ولن أمكنها من أن تحكى له هذا الهذيان » . ولم يخطر له أن يجعل سعادته تمتد إلى نهاية هذه الليلة الثقيلة . . إن كل النجوم لن تفيده فى شىء ، ولا عبير شجر الأكاسيا الشاحب تحت ضوء القمر ، فالليلة ليلة صيف تضرب عبثًا هذا الفتى المُدَرَّع ـ حتى هذه اللحظة ـ بشبابه ، والواثق من قوته ، معتمدًا ، على جسده ، لايبالى بكل معنى لم يخلق له هذا الجسد .


الفصل السابع

العمل هو العلاج الوحيد الذى يصلح لمن كان فى مثل حالته . كان الطبيب يستيقظ كل صباح ، وقد برىء من ذلك الألم الداخلى، وكأنما تم شفاؤه مما كان ينهشه . كان يذهب وحيدًا إلى العمل ، فهو لايستخدم السيارة فى فصل الربيع ، وأثناء سيره كان يفكر فى معمله ، ذلك لأن عاطفة الحب كانت تهدأ وتخمد ، بحيث لاتشغله عن هذا التفكير، ولم يكن إحساسه بها إلا ذلك الإحساس المبهم الغامض الذى لايستطيع أن يتبينه ، وهو الذى يتحكم فى هذه العاطفة ، ويمكنه أن يوقظها حين يلمس مكانها فى نفسه ، فتندّ منه صيحة ألم . لكن هذا الغموض لم يلبث أن انهار حينما قدم له «روبنسون» رأيه السابق . وعلى ذلك فقد أصبحت هذه السلسلة الطويلة من الأعمال مهددة بالانهيار .

• • •

شفاء المرأة يجيء من أن شيئاً لايستطيع أن يصرفها عن العاطفة التى تكمن فى نفسها ، والتى تعمل على افتراسها . وفى الوقت الذى كان فيه الطبيب منهكاً أمام المجهر ، ناسيًا كل ما يتصل بشخصه وبالعالم ، مكرسًا كل اهتمامه بفحص ما أمامه ، حتى يمكن تشبيهه بالكلب الذى يتربص بالفريسة ، كانت « ماريا كروس» مستلقية فى غرفة مغلقة النوافذ فى شوق

إلى هذه اللحظة المحدودة التى تعوَّد أن يقضيها بصحبتها . . إنْ هذه اللحظات ليست إلا الضوء الخافت فى يومها الباهت ، وحتى هذه اللحظات القصيرة لم تكن تصيبها إلا بنوع من خيبة الأمل . وسرعان ما اقتنعت « ماريا كروس» بأنه لا داعى لأن تسير فى رفقة « ريمون » حتى كنيسة تالانس ، فكانت تسرع إلى لقائه بالقرب من الكلية فى ممر بحديقة المدينة . ولم يتحدث « ريمون » عن نفسه بنفس الطلاقة التى كان يتحدث بها من قبل ، ولم يكن هادىء الطبع رزيناً ، حتى إنه كان يسىء فهم العبارات، وكان ذلك السبب الذى جعل «ماريا كروس» ترى أن « ريمون» لايزال طفلاً ـ وإنْ تكن بعض ابتساماته لها وتعليقاته على أقوالها ونظراته الفاحصة كفيلة بأن تدفعها إلى الحذر والاحتراس ، وإلى التمسك بهذا الملاك .

كانت تقترب منه وهى شديدة الحذر ، وتقترب وهى تسير على أطراف أصابعها ، كاتمة أنفاسها ، كما لو كانت تقترب من طير برىء طاهر كل شىء من مظهره كان يؤكده لها هذه الصورة الخاطئة ، فالوجنتان اللتان يصيبهما الاحمرار من أتفه الأمور ، ولغة التلاميذ بعباراتها التقليدية ، ومظاهر الطفولة التى تكسو هذا الجسم الضخم القوى ، كانت تخشى أن تنمى فى نفسه أشياء تظن أنها لم تظهر فيه بعد ، وتعتقد أنها هى التى ستكتشف هذه الأشياء ، حتى لقد كانت ترتعد أمام نظراته الساذجة البريئة ، وتوجه اللوم إلى نفسها لأنها أيقظت فيه نوعاً من القلق والاضطراب . لم يكن فى سلوكه ما يلفت نظرها سوى أن « ريمون » لايفكر إلا فى الابتعاد عنها بعد حضورها ليشبع رغباته بالخيال ، ويفكر فى التصرف الذى يجب أن يتبعه ، وهو أن يبحث عن عُش من أعشاش الغرام . إن صديقه « بابيون» حصل على عنوان

. . ولكن هذا المكان لا يليق بسيدة مثلها . فأكد «بابيون» أنه يستطيع أن يجد غرفة فى فندق «ترمينوس» يستأجرها نهاراً ، فأراد أن يتحقق من ذلك ، فمر « ريمون » عدة مرات أمام صالة استقبال الفندق ولم يجسر على السؤال ، فهو يتنبأ بصعوبات أخرى .

● ● ●

كانت «ماريا كروس» من ناحيتها تفكر فى اجتذابه إلى دارها ولم تكن تجرؤ على أن تكاشفه بذلك ، على أنها كانت قد عزمت على ألاَّ تدنس هذا الطفل الصغير الذى كانت تلقبه بعصفورها البرىء حتى فى تصوراتها . كانت تقنع نفسها بأن جلسة فى الصالون على المقاعد الوثيرة أو جلسة فى حديقة المنزل بين الأشجار الناعسة ، كفيلة بأن تحيل هذا الحب الدفين إلى عبارات . . وأن هذه العاصفة الكامنة فى القلوب ستتحول حتماً إلى مطر . . وكان أكثر ما تتصوره هو ثقل رأسه على صدرها ، هكذا يصير مثل الظبى الأليف من كثرة العناية والترويض . . وستشعر على راحتيها بفم رطب ، وتخيلت سلسلة طويلة من الدعابات تقف عند الحدود البريئة الطاهرة . . لم تسترسل فى هذا الخيال حتى المراحل العنيفة ، لاسيما التصورات التى توحى بها الغابة ، وبخاصة حينما يعملان معًا على إزاحة الأغصان المتدلية أثناء سيرهما . . كلا ، إنهما لن يذهبا إلى هذا الحد البعيد ، فهى لاتهدف إلى أن تحطم فى هذا الطفل ذلك الجانب الطاهر البرىء ، كانت تفكر كيف تستطيع أن تبين له بدون أن تستثير غضبه ، فتخبره بأنه يمكن أن يلتقى بها المرة القادمة فى هذا الصالون ، وخاصة أن السيد «لاروسيل» سافر إلى بلجيكا فى رحلة . . إن «ريمون» يظن أنها ترمى وراء هذه الدعوة إلى فكرة

ماكرة ، إنها لاتعرف أن «ريمون» يكون أكثر استمتاعاً بها كلما كان أكثر بُعدًا عنها . . إنه يحملها إلى كل مكان فى خيالاته وأحلامه . . إن مثله مثل ذلك الكلب الشره الذى يلتقط العظام ثم يُلقى بها ثم يعود إلى التقاطها ، وهكذا .

• • •

فى هذا المساء أخذ الطبيب ـ وهو جالس إلى المائدة ـ يلاحظ ابنه وينظر إليه وهو يحتسى الحساء ، ولم يكن يرى فيه ابنًا له ، بل كان يراه فى ثوب ذلك الرجل الذى قال له بمناسبة الحديث عن «ماريا كروس» : «لقد عرفت ما استطعت معرفته» . . ماذا ترى استطاع «بابيون» أن يرويه له ؟ رباه ! كيف علل أن رجلاً مجهولاً هو الذى يشغل بال «ماريا» ؟ إنى مُصر على انتظار رسالة منها ، مع أنه من الواضح الجلى أنها لم تعد تتمنى بعد رؤيتى ، إن هذا لهو الدليل على أنها تترك أمرها . . إلى من ؟ لم تعد هناك وسيلة تجعلنى أقترب من هذا الصبى ، إن إلحاحى عليه بأن يحدثنى عمَّا يعرفه عنها معناه افتضاح أمرى . وفى هذه اللحظة نهض ابنه واجتاز الباب بدون أن يجيب والدته وهى تصيح : « إلى أين أنت ذاهب ؟ . وأضافت الأم مُوجهة الكلام إلى الطبيب :

ـ يذهب إلى «بوردو» كل ليلة ، وأنا على يقين من أنه يطلب من البستانى مفتاح باب الحديقة ، وأنه يعود إلى المنزل فى الساعة الثانية بعد منتصف الليل عن طريق نافذة المنزل . . لابد أنك لاحظت الآن طريقة إجابته عن ملاحظاتى ، وعليك أن تتدخل فى الأمر ، إن ضعفك هذا لعجيب !

لم يجب الطبيب ، وتلعثم وهو يقول :

ـ من الحكمة أن يغمض المرء عينيه .

وسمع صوت «باسك» وهو يقول :

ـ لو كان هذا الفتى ولدى لعرفت كيف أربيه .

ونهض الطبيب بدوره ودلف إلى الحديقة ، ولو كان فى مقدوره أن يفصح عمَّا فى قلبه لصاح :

ـ ليس لى فى هذا الوجود سوى العذاب .

حقًّا لم يخطر لأحد أن عواطف الآباء هى التى فى أغلب الأحيان تفصلهم عن أبنائهم .

ودخل الطبيب وجلس أمام كتبه ، وفتح درجًا وأخذ منه مجموعة من الرسائل ، وشرع فى إعادة قراءة ما كانت تكتبه له «ماريا» منذ ستة أشهر .

ـ لم يعد يربطنى بالحياة إلا الرغبة فى أن أصبح أفضل مما أنا عليه . . فأنا لا أعير أى اهتمام لأن تكون علاقتنا فى الخفاء ، وأن يظل الناس يشيرون إلىَّ بأصابعهم أنى أقبل العار .

ونسى الطبيب أن هذا القدر من الفضيلة كان يثير فى نفسه اليأس ، وأنه ذاق العذاب ؛ لأن العلاقة التى كانت تربطهما بلغت هذا الحد من السمو، وأنه كان يحنق لإنقاذ تلك المرأة التى كان يحلو له أن يظل معها . وتخيل الطبيب سخرية «ريمون» وهو يطالع هذا الكتاب ، وكانت هذه السخرية تثير حنقه عليه ، وأخذ يعترض فى صوت خافت ، كما لو لم يكن بمفرده قائلاً : « أهذا مجرد تظاهر ؟ إنه تظاهر حقًّا . إنها تميل دائماً إلى التعبير الأدبى . . ولكن حينما كانت تجلس بالقرب من فراش «فرانسوا» الصغير

وهو يحتضر . أكان هذا تظاهرًا ؟ إن هذه الآلام الخاشعة ، وهذا الرضا بالعذاب ، كما لو كان قد وصل إليها كاملاً من خلال مبادىء الفيلسوف «كانط» الروحية ، تلك المبادىء التى كانت أمها تكررها على مسامعها وهى جالسة أمام هذا الفراش الصغير ، وقد غطته زهور الزنبق . يالها من عزلة حول هذه الجثة ! وياله من لوم صامت ! كانت «ماريا» توجه لنفسها كل الاتهامات ، وتضرب على صدرها وتئن . كل شىء كان يسير على مايرام ، وكانت تهنىء نفسها بأن هذا الطفل لم يستطع أن يشعر بالخجل إزاء تصرفاتها» . هنا كان يتدخل رجل العلم بقوله : « وفى الواقع أنها كانت صادقة فى هذه اللحظة . مع أن هذا الشعور النبيل كان يمتزج بشىء من الرضا ، نعم ، كانت ترضى ميلها إلى اتخاذ مثل هذا الموقف » . إن «ماريا كروس» كانت دائبة البحث عن المواقف الخيالية ، ألم تصر على مقابلة السيدة «روسيل» وهى تحتضر ؟ وقد عانى الطبيب عناءً كبيراً ليقنعها بأن مثل هذه المواقف لاتنجح إلا على خشبة المسرح ، ومع ذلك فقد قبل أن يدافع عن قضية الصديقة إزاء الزوجة ، وأنه استطاع أن يعود إلى «ماريا» حاملاً لها الوعد بأنها صفحت عنها .

وحينما اقترب الطبيب من النافذة وأطل على هذه الظلمة أخذ يشغل باله بتحليل أصوات بعض الكائنات الليلية . . هناك صرير مستمر للصراصير والجراد ، ومستنقع يفضح بنقيق الضفادع ، وبعض الأنغام المتقطعة من عصفور قد لايكون عندليباً . . وأخيراً صوت آخر ترام الليلة . وهمس فى نفسه بقول ريمون : «لقد عرفت ما استطعت معرفته» . ثم أخذ يتساءل : من ذا الذى استطاع أن يثير إعجاب «ماريا كروس ؟» . وأخذ الطبيب

ينطق ببعض الأسماء ، ثم يستبعدها ؛ لأنها كانت تشمئزّ من أصحابها ، ولكن مَنْ هو يا ترى الشخص الذى لم تشمئز منه ؟ وخطر له قول «لاروسيل» يوم أن حضر إليه ليقيس ضغطه : « بينى وبينك أن هذا الشىء لايستهويها ، إنك تدرك ما أقول ، أليس كذلك ؟ إنها تقبل أن تتحمل حينما أقوم أنا بهذا الأمر . . إن المضحك أنها فى أيام علاقتنا الأولى حينما كنت أجمع كل هؤلاء السادة فى منزلها ، كنت أراهم يحومون حولها ، وكنت أتوقع منهم هذا السلوك ، إنك تعلم جيدًا أنه حينما يُقدم لنا صديق صديقته ، يخطر لنا فى بادىء الأمر أن نسطو عليها ، أليس كذلك ؟ وكنت أقول فى أعماق نفسى : هيا أيها السُّذَّج . . وسرعان ما جعلتهم يقفون عند حدهم . ولايوجد شخص يجهل الحب مثل «ماريا» ، أو يجهل تذوق اللذة فيه مثلها . فإذا قلت لك هذا ياصديقى ، فذلك لأنى واثق من ذلك أكبر الثقة ، إنها سيدة ساذجة أيها الطبيب! إنها أكثر سذاجة من تلك السيدات الكريمات اللاتى يُبدين احتقارهن لها » .

وتذكر الطبيب أن «لاروسيل» قد قال له أيضًا : « نظرًا لأن ماريا لاتشبه أية امرأة أخرى ، فإنى أخشى دائماً أن تتخذ فى غيابى قرارًا أحمق ، إذ أنها تقضى النهار بطوله فى أحلام اليقظة ، ولاتخرج إلا للذهاب إلى المقابر . . ألا تعتقد أنها تعيش تحت تأثير كتاب ما ؟» .

وقال الطبيب فى نفسه : « نعم ، ربما تعيش تحت تأثير كتاب بعينه . ولكن كيف يكون الأمر كذلك ، إلاَّ أن أكون قد عرفته . هذا الوضع قد يكون خاصًّا بى . إن الكتاب لن يُحدث اضطراباً فى حياة امرأة ، فهذا شىء غير معقول . إننا لانعانى اضطراباً عميقاً إلا فيما يتعلق بما هو على قيد الحياة، إلا بما هو مُكوَّن من دم ولحم ، أمَّا أن يكون كتاباً فهذا غير معقول »

. . وهز رأسه علامة على استنكار هذه الفكرة . وكلمة كتاب أوحت إليه صورة إحدى مشتقاتها بالفرنسية وهى جَدْىٌ صغير . . فرأى حول «ماريا كروس» جدياً بريًّا صغيراً .

وكان هنالك بين الحشائش قطط تطيل المواء ، وسمع صوت أقدام تدهس حَصَا طُرُق الحديقه ، وفتح النافذة ، وخطر له أن «ريمون» عائدٌ إلى المنزل ، ثم سمع بعد ذلك وقع أقدام فى ممر المنزل ، ثم إذْ بيد تقرع الباب ، وإذا بها «مارلين» :

ـ كيف لاتنام يا والدى حتى الآن ، حضرت إليك لتنقذ «كاترين» ، إنها تسعل سعالاً خشناً . . سعالاً ظهر فجأة ، أخشى أن يكون أصابها الخناق .

ـ الخناق لايبدأ على هذا النحو . . أنا ذاهب معكِ .

وبعد قليل أحس وهو يغادر غرفة ابنته بألم فى جنبه الأيسر ، ووضع يده على قلبه ، ووقف جامدًا وظهره إلى حائط الممر . . لم يستنجد بأحد ، ولكنه سمع ذلك الحوار ، حوار آل «باسك» الذى كان يدور من وراء الباب .

ـ ماذا تريدين أن أقول لك ؟ إنه رجل عالم ، وهذا شىء مقطوع به ، ولكن علمه جعله كثير الشك ، ولم يعد يؤمن بفاعلية الدواء . وكيف يستطيع إنسان أن يُشْفَى بدون دواء ؟

ـ أَكَّدَ لنا أنه أمر هين . . ولم يكن هذا المرض هو مرض الخناق الكاذب .

ـ لاتخافى ، لو كان الأمر متعلقًا بعائلته ، فإنه لايريد أن يجهد نفسه . إن الإنسان لَيَشعُر بالضيق أحياناً حينما لايكون فى استطاعته أن يستثير شخصًا آخر .

ـ ولكننا نشعر بالراحة حينما نطمئن إلى أنه دائماً قريب منا أثناء الليل . . حينما يموت هذا الرجل المسكين ، لن يكون فى مقدورى أن أنام مطمئنة ، وذلك بسبب بناتى الصغيرات .

كان عليك إذن أن تتزوجى من طبيب !

وختمت ضحكها قبله . . وشعر الطبيب أن اليد التى كانت تجثم على صدره قد استرخت ، فابتعد فى خطوات واهية ، ورقد فى فراشه ، ولكنه لم يقدر على الرقاد فجلس فى فراشه والليل دامس . وكان كل شىء فى الطبيعة نائماً ، إلا حفيف أوراق الشجر ، فأخذ يتساءل : «هل شعرت « ماريا » بالحب ؟ إنى لأذكر بعض تصرفاتها الحمقاء . . مثل شعورها نحو الشابة « جابى دى بوا » ، فقد أرادت أن تجعلها تقطع صِلاتها بدى بون جونتر . . ولكن هذا أيضًا كان نوعاً ساميًا من الحب ـ ومما لاشك فيه أنه يوجد من بين أجدادها مُبشر ورثت عنه الميل إلى إنقاذ الأرواح ، فمن ذا الذى كان يقص علىَّ بهذه المناسبة أن «جابى» هذه قد روت حكاية بشعة عن «ماريا» فهل هى حقًّا من هذا النوع من النساء ؟ إنى لأذكر جيدًا بعض تصرفات حمقاء لها . . وربما هى من هذا النوع من النساء . . فأنا لاحظت أن هذا هو عيب الأشخاص ذوى العواطف السامية . . كيف ؟ لقد لاح الفجر ! » .

وألقى الوسادة بعيدًا عنه واستلقى على فراشه فى شىء من الحذر بدون أن يتعب قلبه من هذا الاستفتاء ، غير أنه سرعان ما فقد وعيه .

● ● ●


الفصل الثامن

ما الذى يجب أن أقوله للبستانى ؟

فى ممر خال بحديقة « بوردو» العامة كانت «ماريا كروس» تبذل ما فى وسعها لتقنع «ريمون» بالمجىء إلى منزلها ، حيث لم يعد هناك خطر من أن تقابل شخصًا ما ، وتلح فى الطلب ، وتشعر بالخجل من هذا الإلحاح ، وتشعر أنها تفسده على الرغم منها ، وكيف لاتستدل من خوف هذا الطفل الذى كان فيما مضى يمر مرارًا أمام أى محل بدون أن يجرؤ على الدخول ؟ كيف لا ترىٰ فى هذا نذيرًا لخطر ما ؟ ولذلك تؤكد له قائلة :

ـ «ياريمون» لاتعتقد ظنًّا منك ـ ولاينبغى أن تتصور ـ أن أمر البستانى يمكن أن يضايقنى . .

قلت لكَ لايوجد بستانى ، وأنا أسكن فى منزل خالٍ يتعذر على «لاروسيل» تأجيره ، فوضعنى فيه كالحارسة .

انفجر «ريمون» ضاحكاً وقال : أنت إذن البستانية . . ألا تعنين ذلك ؟

تحنى السيدة الشابة كتفيها وتخفى وجهها وهى تقول :

المظاهر تديننى ، وليس هناك مايبرر حُسن نيتى عندما قبلت هذه الوظيفة . . «فرنسوا» كان فى حاجة إلى جو الريف . .

وأخذ «ريمون» يعدل فى قرارة نفسه : «هيا قولى ماتريدين» . . وقاطعها قائلاً : أفهم من هذا أنه لايوجد بستانى ، ولكن موضوع الخدم؟

أدخلت فى قلبه الاطمئنان حين قالت إنها تعطى «جوستين» خادمتها الوحيدة إجازة يوم الأحد . . وكانت هذه الخادمة متزوجةمن سائق يحضر كل مساء ساعة النوم حتى يكون فى المنزل رجل ، خاصة أن النوافذ غير محكمة الغلق ، فالضاحية ليست مأمونة ، ولكن فى ظهيرة الأحد ، كانت «جوستين» تخرج مع زوجها ، ولم يكن لريمون سوى أن يدخل ويخترق غرفة الطعام التى تقع إلى يسار المدخل ، والصالون يقع فى نهايتها .

أخذ «ريمون» يحفر الرمال بكعب حذائه وهو منهمك فى التفكير . . وكانت الأراجيح تئز خلف شجرة التمر حناء ، وتقدمت بائعة نحوهما تعرض عليهما قطعًا من خبز صغير الحجم ، أغبر اللون ، وقطعاً من الشيكولاتة ملفوفة فى ورق أصفر . قال «ريمون» : إنه لم يتناول وجبة بعد الظهر ، فابتاع قطعة من الحلوى ، فأدركت «ماريا» قسوة الأقدار وهى تنظر إلى هذا الطفل وهو يقضم الحلوى ، ومع أنها لم تكن تشعر بأى نوع من الاضطراب فى قرارة نفسها فإن كل حركاتها كانت تتخذ شكلاً بشعاً حينما تخيلت هذا الوجه وهى جالسة فى الترام . كان النظر إلى وجه «ريمون» يجلب الراحة لعينيها ، لأنها لم تكن تفكر مطلقًا فى شىء ، فلماذا إذن تقاوم حنانًا لايدعو إلى الريبة إلا قليلاً ؟ . . إن الإنسان الذى يعانى العطش لايرتاب فى أمر أول عين يصادفها . وكانت تقول فى نفسها : «نعم أريد أن أستقبله فى بيتى ، والسبب فى ذلك أنى لاأستطيع وأنا فى الشارع جالسة على مقعد فى حديقة عامة أن أصل إلى السر الكامن فيه . . وهذا لايمنع من أن سلوكى فى الظاهر ينم عن امرأة بلغت السابعة والعشرين من عمرها-، امرأة تعيش على

حساب صديق ، تجذب إلى بيتها فتى ، وهذا الفتى هو ابن الرجل الوحيد الذى وثق بها ، وحرص على ألاَّ يسىء الحكم عليها » .

وبعد أن افترقا قبل أن يبلغا ميدان «لاكروا دو سان جونيس » كانت الفكرة لاتزال تراودها فتقول فى نفسها : «أريد أن يحضر إلى بيتى ، لا لكى نرتكب إثماً ، كلا ، فإن هذه الفكرة تثير اشمئزازى ، ومع ذلك فإنه على حَذَر منى، وكيف لا يرتاب فى أمرى ؟ إن أعمالى كلها تتسم بصفة بريئة فى تصورى ، وبصفة بشعة فى تصور الآخرين ، ولكن العالم هو الذى يرى الأمور على وجهها الحقيقى . . ونطقت باسم ، ثم بآخر ، وإذا كانت «ماريا» موضع الاحتقار بسبب أعمال صدرت عنها فجأة على غير انتظار ، فقد تذكرت بعض أعمال ارتكبتها فى الخفاء ، وكانت هى الوحيدة التى تعلمها .

ودفعت الباب الذى قد يفتحه ريمون يوم الأحد للمرة الأولى ، وسارت فى ممر الحديقة الذى كثرت فيه الحشائش لعدم وجود بستانى ، وكانت السماء مُلبدة بالغيوم ، حتى كان من العسير على المرء أن يصدق أن هذه سحابة لم تمطر ، وكانت السماء تبدو وكأنها يئست من جراء عطش هذا الكون . وكانت الأوراق تتدلى ذابلة ، وكان الذباب الضخم يتلاطم على زجاج النوافذ . . ولم تستطع «ماريا» إلاَّ أن تلقى قبعتها على «البيانو» فغبَّر حذاؤها الأريكة بغُبار الطريق ، ولم يعد فى مقدورها القيام بأية حركة سوى أن تشعل لفافة تبغ . آه ! كانت هناك أيضًا جوانب أخرى . . هذه الرخاوة التى يعانى منها جسدها بالرغم من خيالها المحموم . . ما أكثر الأمسيات التى ضيعتها سُدًى فى هذاالمكان ، وقلبها مريض من شدة التدخين . ما أكثر مشروعات الهروب من الواقع والسعى إلى الطهارة التى أعدتها ثم

حطمتها ! وكان ينبغى لها فى بادىء الأمر أن تنهض وأن تتخذ الإجراءات الضرورية ، وتقابل من ينبغى مقابلتهم من الناس « . . ولكن لو فرض أن رفضت إصلاح حياتى الخارجية ، فلن يتبقى لى إلا عدم السماح لنفسى بما يرفض ضميرى أن يثير قلقه » .

لقد أقنعت نفسها أن تجذبه إلى دارها لتتذوق الهدوء الذى عرفته فى ترام الساعة السادسة ، وتستمد العون من وجوده ، وهى تنظر إليه نظرات التأمل الحزين الرتيب ، ولكنها فى هذه الحالة تستمتع به وهو أكثر قرباً منها عنه فى الترام ، والوقت متسع أمامها . ألا تبغى غير هذا ؟ نعم ، لاتبغى إلا هذا وحسب ! إن وجود شخص ما يثير فى نفسنا الاضطراب ، بدون أن ندرك سبباً لهذا الاضطراب ، إننا نخشى امتداد هذه الحالة ، ونرتاع من آثارها غير المحددة . وقالت فى نفسها : «ومن المؤكد أننى كنت سأشعر سريعًا بالملل من مشاهدته لو كنت أدركت أنه تجاوب مع سلوكى إزاءه ، وأننا كنا فى يوم ما سنتبادل أطراف الحديث . . وهكذا لا أستطيع أن أتصور أنه لن يحدث فى حجرة «الصالون» إلا تبادل أطراف الحديث الذى يبعث على الاطمئنان ، ومداعبات مبعثها الأمومة ، وقبلات هادئة ، ولكن لابد أن تكون لى الشجاعة التى تجعلنى أعترف بأنى أتنبأ من وراء هذه السعادة الخالصة بمجال مُحرم علىَّ ، ومفتوح أمامى فى آن واحد . نعم ، ليس هناك حدود علىَّ أن أعبرها ، ولكنَّ أمامى حقلاً مباحاً سوف أنغمس فيه رويدًا رويدًا ، وظلمات علىَّ أن أذوب فيها طوعاً . . فما الضرر ؟ ولِمَ تحرم علينا السعادة وبإمكانى أن أجعل هذا الفتى سعيدًا ؟ هيا » . فعندما وصلت «ماريا» إلى هذه المرحلة ، بدأت فى خداع نفسها : «إنه ابن الطبيب كوريج ، ابن هذا الطبيب القديس ، والطبيب نفسه لن يقبل أن يثار أمامه

هذا الموضوع ؟ لقد قلت له يوماً ضاحكة : « القاعدة الأخلاقية داخل قلبه لاتَقِل بريقًا عن السماء الزاهية بالنجوم التى تعلو الرءوس » .

سمعت «ماريا» رذاذ المطر فوق الأوراق . . وسمعت كذلك دويًا لعاصفة لاتزال مترددة . . فأغمضت عينيها وانطوت على نفسها ، وركزت فكرها فى الوجه العزيز ، وجه فتى جد طاهر ؛ لأنها كانت تود أن تعتقد أنه فتى طاهر ، إلا أنه كان فى هذه اللحظة بالذات يسرع الخُطَا هارباً من هذا الجو العاصف الممطر ويقول فى نفسه : « يقول بابيون : إنه من الأفضل استعجال الأمور ، فقد قال لى بالحرف الواحد : لايجدى مع هذا النوع من النساء سوى الخشونة ، فإنهن لايحببن سوى هذا السلوك » . . وكان الصبى ينظر ، وهو فى حيرة من أمره إلى السماء العاصفة ، ثم أطلق بعد ذلك قدميه للريح فجأة ، بعد أن وضع معطفاً على رأسه ليتقى به المطر ، وسلك أقرب طريق إلى بيته ، وقفز من فوق مجموعة من الزهور فى خفة تحاكى خفة جَدْيٍ صغير .

كانت العاصفة قد أخذت تبتعد ، ولكنها كانت لاتزال مع ذلك جاثمة على المدينة ، يكشف عنها صمت رهيب . وهنا أحست «ماريا» بنشأة إحساس داخل نفسها ، إحساس لايدفع إلى الشك أو الريبة ، فنهضت وجلست أمام منضدة ، وكتبت على ورقة . . «لا تأت إلىَّ يوم الأحد ، لا هذا الأحد ولا أى يوم آخر ، إنى أرضخ لهذه التضحية من أجلك أنت فقط» . وعندما بلغت هذا الجزء من الرسالة ولم يَبْقَ سوى التوقيع ، بث الشيطان فى قلبها رغبة لإضافة صفحة أخرى فمضت تكتب : « كنت أود أن تكون باعث السرور الوحيد لحياة قاصية مضيعة ، إذ أنى كنت أرتاح إليك أثناء عودتنا بالترام خلال هذا الشتاء ، دون أن تعلم أنت بهذا ، ولكن

هذا الوجه الذى كنت أتبينه فيك لم يكن انعكاساً لنفسٍ أتمنى امتلاكها ، كنت أود ألاَّ أجهل شيئاً عنك ، وأن أجيب عمَّا كان يثير فيك القلق ، وأن أبعد من طريقك الشوك ، وأن أكون بالنسبة لك أكثر من أم وأفضل من صديقة . . لقد تمنيت كل هذا . . ولكن من العسير علىَّ أن أكون على غير شاكلتى . . إنك كنت تستنشق – على الرغم منك ، وعلى الرغم من نفسى ـ ذلك الهواء الفاسد الذى يحيطنى به الناس » . وطال استرسالها فى الكتابة ، وكان المطر قد اشتد ، ولم يعد المرء يسمع صوتًا آخر سوى صوت هذا المطر. أغلقت النوافذ ، وأشعلت المدفأة ، وأخذت كتاباً ، ولكن الجو كان معتماً ؛ لأن العاصفة كانت سببًا فى عدم إيقاد المصابيح ، فجلست أمام «البيانو» ، وأخذت تعزف وهى منحنية إلى الأمام كما لو كانت يداها تجذبان إليها رأسها .

● ● ●

فى اليوم التالى ، وكان هذا اليوم يوم جمعة ، شعرت «ماريا» بفرحة غامضة ؛ لأن العاصفة أثارت اضطراباً فى الجو ، فارتدت ثياباً منزلية ، وقضت النهار فى المطالعة وعزف الموسيقا والاسترخاء ، محاولة أن تتذكر كل لفظ ذكرته فى رسالة الأمس ، وأن تتخيل رد الفعل الذى ستحدثه فى نفس «كوريج» الصغير . وفى يوم السبت بعد صباح ثقيل عاد المطر إلى السقوط ، وأدركت «ماريا» سبب سرورها ، فهذا الجو السيىء قد يكون سبباً يحثها على عدم الخروج يوم الأحد ، كما كان هذا فى نيتها من قبل ، ولو حدث وجاء «كوريج» الصبى فى الموعد ـ بالرغم مما جاء فى الرسالة ـ فإنها سوف تكون فى الانتظار . ولكنها نطقت فى صوت حازم كما لو كانت تأخذ على نفسها عهدًا صارماً وهى تبتعد عن النافذة ، حيث كانت تنظر من خلالها إلى

قطرات المطر وهى تتساقط على طرقة الحديقة ، فقالت : « مهما يكن من أمر الجو ، فسأخرج » .

ولكن إلى أين تذهب ؟ لو كان «فرنسوا» لايزال على قيد الحياة لاصطحبته إلى السيرك . . فى بعض الأحيان كانت تذهب إلى حفل موسيقا وتشغل بمفردها مقصورة أو «بنسوارا» وهذا ما كان يروق لها ، ولكن الجمهور سرعان ما كان يتعرف عليها ، فكانت تفطن إلى أنه ينطق باسمها من حركات شفاهه ، وكانت النظارات تقربها من هذا العالم المعادى ، وتسلمها إليه وهى عاجزة عن الدفاع عن نفسها . وكان صوت يقول : «ليس هناك مجال للقول ، إن هذا النوع من النساء يجيد فن الأناقة » ويصيح آخر بقوله : «ليس هذا الأمر بالعسير طالما زاد الإنفاق » . ويقول ثالث : «ما على هذا النوع من النساء إلا التفكير فى جسدهن » . وفى بعض الأحيان كان أحد أصدقاء السيد «لاروسيل» يغادر مقصورة النادى ويأتى ليقدم لها التحية ، وكان يضحك بصوت عالٍ وقد استدار بعض الشيء نحو القاعة وهو فخور بأن يوجه الحديث جهراً إلى «ماريا كروس» .

ولكن فيما عدا الحفلات الموسيقية التى كانت تُقام فى قاعة سانت سيسيل، لم تكن «ماريا» لتذهب إلى أى مكان آخر ، حتى حينما كان ابنها «فرنسوا» على قيد الحياة ، منذ أن سَبَّتْهَا بعض السيدات وهى جالسة فى أحد المراقص . وكانت صديقات هؤلاء السادة رواد القاعة يحقدن عليها كل الحقد ؛ لأنها لم تكن تطيق الاختلاط بهن . إن واحدة منهن فقط تدعى «جابى دى بواج» قد راقت فى نظرها لمدة بضعة أيام ، وبدت لها سيدة لطيفة من أجل بضع كلمات تبادلتها معها ذات مساء فى ملهى الأسد الأحمر حيث اضطرها «لاروسيل» إلى الذهاب إليه . لقد كان لشرب الشمبانيا

نصيب كبير فى خلق روح الفكاهة فى هذه السيدة . وظلت السيدتان تتقابلان كل يوم لمدة أسبوعين . وحاولت «ماريا» جاهدة فى عزم وإصرار أن تقطع الروابط التى كانت تربط صديقتها بأشخاص آخرين ، بدون جدوى ، وبعد بضعة أيام نشب شجار بينهما ، عانت منه أشد العناء ، ذهبت إلى «أبولُّو» بدافع الملل بمفردها كما هى عادتها ، وجذبت إليها انتباه القاعة بأكملها ، وسمعت ضحكة «جابى» الحادة تنطلق من المقاعد القريبة من مقصورتها ، ضحكة مصحوبة بضحكات أخرى وعبارات متقطعة من السِّباب كانت تُلْقَى فى صوت خفيض قائلة : «هذه المرأة التى تقوم بدور إمبراطورة . . هذه الـ . . التى تتظاهر بالفضيلة . . » وبدا لماريا أنها لم تعد ترى أى وجه فى القاعة ، ولم يكن أمامها سوى وجوه لحيوانات تتجه نحوها ، وعندما عاد الظلام إلى المسرح وتركزت كل النظرات على راقصة ، تمكنت من الهروب .

بعد ذلك اليوم رفضت «ماريا» الخروج إلا ومعها «فرانسوا» الصغير ، ومع أنه لم يعد بعد على قيد الحياة منذ سنة ، فهو وحده الذى لايزال يستطيع أن يجذبها إلى خارج المنزل حتى تشاهد هذا الحَجَر الذى لايزيد على جسم الطفل طولاً ، مع أنها كانت مضطرة إلى أن تسلك حينما تكون فى المقابر ، طريقاً وُضعت فى بدايته هذه اللافتة : أجسام الكبار . ولكن شاءت الأقدار أن تقابل فى الطريق الذى يقودها إلى طفلها ، ذلك الطفل الذى يتمتع بالحياة .

وفى صباح الأحد كانت تسيطر على الجو رياح عاتية ، لاتلك الرياح التى لاتجيد سوى هز الأشجار ، دائماً هى الرياح القوية التى تهب من الجنوب ومن البحر ، ويدفع جهدها الكبير رقعة مظلمة من السماء أمامه .

وكان صمت العصفور الأليف يجعل «ماريا» تحس بصمت آلاف العصافير . وماذا كان بوسعها أن تفعله ؟ إنها لن تخرج فى هذا اليوم ؛ لأن «كوريج» الصبى قد تسلم رسالتها بالقطع ، وأنها واثقة من طاعته لما جاء فيها ، لأنها كانت تعرف خجله كل المعرفة ، حتى لو لم تكتب له شيئاً ، لما كان فى استطاعته أن يلج بابها . وابتسمت لأنه تراءى لها وهو يحفر بكعب حذائه رمل ممر الحديقة ويكرر فى عناء : « وماذا عن البستانى ؟» .

وأخذت تصغى إلى صوت العاصفة القريبة منها وهى تتناول غداءها بمفردها . وكانت جياد الريح المجنحة تجرى فى جنون بعد أن انتهت من وظيفتها ، ثم أخذت تلهو بين غصون الأشجار . ومما لاشك فيه أن هذه الرياح قد دفعت من أعماق المحيط الأطلسى الممزق بعض طيور النورس التى تتصف بالحذر ، وطيور السجانين التى لاتهبط قط . وقد دفعتها هذه الرياح على النهر وفوق هذه الضاحية . وتراءى لها أن أنفاسها تفرض على السحب لون الزبد الشاحب ، وأنها تلقى على الأوراق رذاذاً من الرغوة مرة المذاق .

أحست «ماريا» وهى تطل على الحديقة بهذا الطعم المالح فوق شفتيها . إنه لن يجيء ، حتى لو لم تكتب إليه . حقًّا ، كيف يخرج فى مثل هذا الجو ؟ إنه عندما لايجيء يملأ الشجن قلبها فى الظروف العادية . آه ! من الأفضل أن يمتلىء قلبها بهذه الطمأنينة ، وهذه الثقة فى عدم مجيئه . . ولكن إذا كانت فى حقيقة الأمر لاتشعر فى قرارة نفسها بشيء يشبه الانتظار، فلماذا تفتح خزانة الطعام ، وتتأكد من أن بها شيئاً من نبيذ بورتو ؟ وأخيراً انقشعت الغُمَّة ، وانقطع المطر ، ونفذت أشعة الشمس من خلاله . فتحت «ماريا» كتابًا وأخذت تطالع فيه بدون أن تدرك ما تقرؤه ، فأعادت قراءة الصفحة

بكل عناية وصبر ، ولكن بدون جدوى ، فجلست أمام «البيانو» وأخذت تعزف ، ولكن لم تكن ضرباتها قوية ، لكيلا يحول ذلك دون سماعها دَقُّ الباب البيت . بادرت بالقول حينما سمعت شيئاً يشبه دقًّا على الباب ، إنها الريح . . لابد أن تكون الريح . . » ذلك حتى لاتخونها قواها. وكانت لاتزال تكرر : « إنها الريح» ، بالرغم من وقع خطوات مترددة فى حجرة الطعام . لم تقو على الوقوف ، أما هو فقد ظهر أمامها ، وبدت حيرته من أمر قبعته ، وما يتساقط منها من قطرات ماء المطر . لم يتجاسر الشاب على التقدم نحوها خطوة واحدة ، أما هى فإنها لم تجرؤ على معاداته، حيث صرفها عن ذلك ماكانت تلاقيه من عناء نفسى ، من جراء شهوة حطمت كل الحواجز واندفعت تسترد حقوقها بصورة جنونية ، وراحت تملأ قلبها وجسمها فى مثل لمح البصر ، وتغمرهما بأمواجها من أسفلهما إلى قمتهما، ومع ذلك فقد نطقت فى لهجة صارمة بهذه الكلمات العادية :

ـ ألم تتسلم إذن رسالتى ؟

وقف الفتى مذهولاً ، خطر بباله ما كان أخبره به صديقه «بابيون» بقوله : «إنها تريد أن تُخضعك لإرادتها ، فلا تدع لها الفرصة التى تمكنها من القيام بمناوراتها ، وعليك أن تذهب إليها ويداك فى جيبك» . ولكن «ريمون» عندما رأى وجه «ماريا» وظن أنه مُلِيءَ بالغضب طأطأ رأسه كما يفعل الطفل حين يتنزل به العقاب ، أما هى فإنها لم تتجاسر ـ بالرغم من لهفتها ـ على القيام بأية حركة ، كما لو كانت تريد أن تحجز بين جدران حجرة الصالون المبطنة بالقماش برسم غزال مرتاع . حضر الشاب مع أنها بذلت كل مافى وسعها لكى تبعده عنها . وكان من جراء ذلك أنها لاتشعر بوخز ضمير ينغص عليها سعادتها ، وأن فى استطاعتها أن تستسلم إلى تلك

السعادة . وكانت تتعهد للقَدر ، الذى ألقى إليها بهذا الصبى كأنه الفريسة، بأنها ستكون جديرة بهذه الهبة . فما الذى كانت تخشاه حتى هذه اللحظة ؟ إنها لم تجد فى قرارة نفسها إلاَّ الحب النبيل ، والدليل تلك الدموع التى كانت تحبسها وهى تتفكر فى «فرنسوا» ، لقد كان من المقدر أن يصبح حبيباً مثل هذا الصبى ، فى ظرف بضع سنوات لو ظل على قيد الحياة . . ولم تفطن إلى أن هذه الحركة التى قامت بها لتحبس دموعها قد فسرها «ريمون» على أنها دليل الغضب بل الثورة . ومع ذلك فقد قالت له : «على أية حال ، لماذا لاتحضر إلى هنا ؟ لقد أحسنت إذ حضرت ، ضع قبعتك على المقعد ، فبللها ليس مزعجاً . هذا النوع من القطيفة الذى يكسو المقعد طالما تعرض لأكثر من هذا . . هل ترغب فى نبيذ ؟ نعم ؟ لا ؟ إذن نعم .

وبينما الشاب يشرب النبيذ قالت : « لماذا كتبت لك هذه الرسالة ؟ أنا نفسى لا أعرف . . إن للنساء نزوات . . على كُلٍّ كنت أعلم جيدًا أنك ستأتى إلىّ برغم كل شىء .

مسح « ريمون» شفتيه بظهر يده وقال : ومع ذلك فقد كنت أوشك ألاَّ أحضر ، وكنت أقول لنفسى : لقد خرجت . . وفى هذه الحالة كنت أبدو وكأننى أبله .

قالت : أنا لا أخرج إلا نادراً منذ أن فقدت ابنى . . ألم أحدثك قط عن ابنى الصغير «فرانسوا» ؟

أحست كما لو أن « فرنسوا » قد حضر على أطراف أصابعه حيًّا ، وهكذا احتفظت به إلى جوارها حتى تضع حدًّا لهذا اللقاء المفعم بالخطر .

كان «ريمون» يرى فى ذلك التصرف مناورة تدفعه بها إلى احترامها ، وعلى

العكس لم تكن «ماريا» تقصد من وراء ذلك إلا أن تدخل الاطمئنان إلى قلبه ، وكانت تعتقد أن عليه أن يخشاها بدلاً من أن تخشاه هى ، غير أنه لم يكن لها ذنب فى إقحام الطفل الميت على هذا الحديث ، فإن « فرانسوا» هو الذى فرض نفسه عليهما كما يفعل الأطفال حين يسمعون صوت أمهاتهم فى حجرة الأطفال ، فيدخلون بدون استئذان ، ربما أن الطفل قد حضر بروحه إلى هذا المكان ، فهذا دليل على أن كل ما يحدث هو طاهر ونبيل . فلماذا هذا الاضطراب ، يأيتها المسكينة ، إن «فرانسوا» الصغير واقف إلى جوار مقعدك ، يبتسم ، خَجِل ! .

وقال ريمون :

ـ مؤكد أنه مات منذ سنة أو أكثر ؟ أتذكر جيدًا يوم دفنه ، لقد تشاجرت أمى يومها مع والدى .

وتوقف « رَيمون » عن الكلام ، وكان يود أن يستعيد هذه الكلمات ، إلا أن «ماريا» سألته :

ـ لماذا تشاجرت معه ؟ آه ! نعم . . لقد أدركت ما تقصده . . حتى فى هذا اليوم كانت القلوب خالية من الشفقة . .

نهضت «ماريا» وأخذت مجموعة من الصور وضعتها فوق ركبتى «ريمون» وهى تقول :

ـ أريد أن أطلعك على صوره ، فوالدك هو الذى يعرفها وحده ، هاهى ذى صورته وهو لم يبلغ من العمر إلا شهراً واحداً ، بين ذراعى زوجى . . فى هذه السن لايشبه الطفل أحدًا ما ، إلا فى نظر الأم . . انظر إليه وهو فى الثانية من عمره مبتسماً وممسكاً بكرة بين ذراعيه . . فى هذه الصورة كنا فى

مدينة سالى ، وكان قد اضمحل وهزل . واضطررت إلى أن استقطع مبلغًا من رأس مالى البسيط لكى أستأجر منزلاً فى ذلك الصيف . ولكن كان فى هذه المدينة طبيب كريم نبيل اسمه «كازاماجور» هو هذا الذى تراه ممسكاً بلجام الحمار .

وكانت هى منحنية على «ريمون» لكى تقلب الصفحات تأخذ بسذاجة نصيبها من نار الموقد ، وتبعث فى نفسها الدفء من سعيره ، وتزيده بأنفاسها اشتعالاً ، ولم تكن ترى وجه الصبى الغاضب ، وقد عجز عن التحرك بسبب ثقل ألبوم الصور على ركبتيه . وكان يرتجف من شدة الغضب لاضطراره إلى الاستكانة ، وكانت «ماريا» تقول :

- انظر إلى هذه الصورة ، هاهو ذا حينما بلغ السادسة والنصف من عمره، وقبل وفاته بشهرين . . يبدو أنه استرد صحته ، أليس كذلك ؟ وقد تساءلت دائماً عما إذا كنت قد دفعته إلى العمل أكثر مما ينبغى ، إن والدك يؤكد لى أنى لم أبالغ فى ذلك ، وكان وهو فى السادسة من عمره يقرأ كل ما يقع تحت يده ، حتى مالم يكن فى استطاعته فهمه . إن حياته مع شخص يكبره سنًّا . . وتوقفت وهى تقول : «إنه زميلى . . إنه صديقى » . . فلم تكن تتبين فى هذه اللحظة ماذا كان ابنها «فرنسوا» بالنسبة لها ، وما كانت تأمله بالنسبة له . واستطردت تقول :

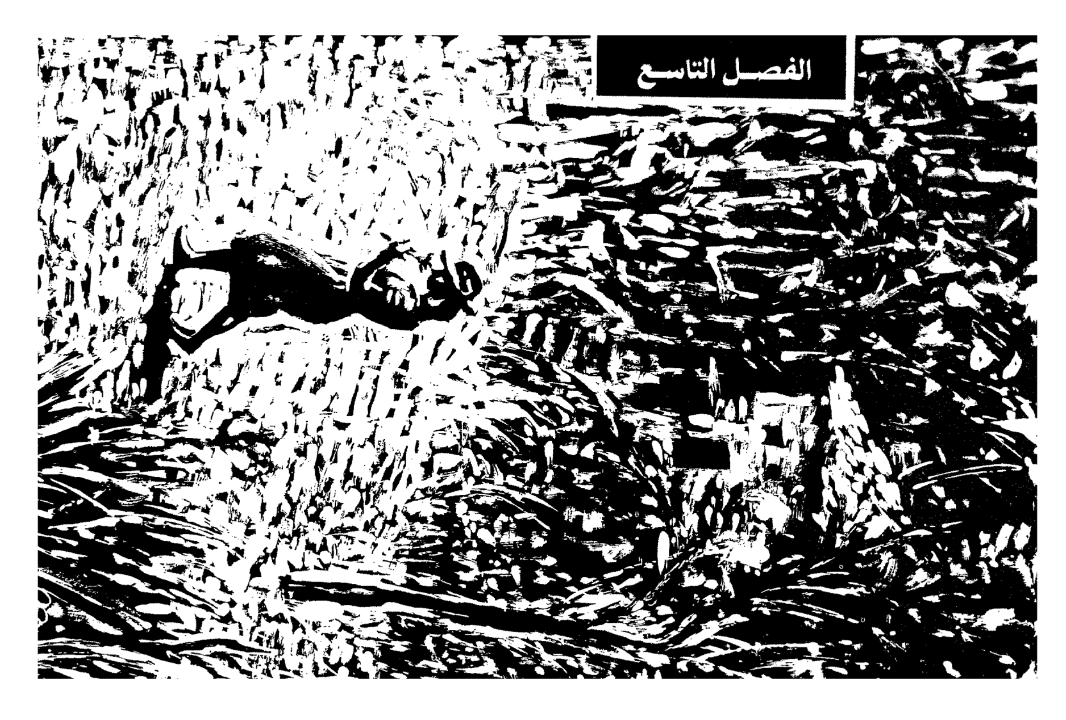
- كان وهو فى هذه السن يلقى علىّ الأسئلة ، وكم من ليلة قضيتها وأنا أعانى العذاب حينما كان يخطر لى أنه ينبغى لى أن أشرح له ، وإذا كانت هناك فكرة تعيننى على الحياة اليوم فهى فكرة أنه رحل إلى الدار الآخرة بدون أن يعرف . . وأنه لم يعرف . . وأنه لم يعرف أبدًا . .

اعتدلت «ماريا» فى جلستها ، وكانت ذراعاها متدليتين إلى جانبها ، ولم

يكن «ريمون» يجسر على رفع عينيه نحوها ، ولكن كان يشعر بجسدها وهو يهتز ، ومع أنه تأثر من هذا الموقف ، فإنه كان يشك فى صحة هذا الألم ، ولذلك حينما اتخذ طريقه إلى المنزل كان يقول لنفسه : « إنها تخدع نفسها بذلك الدور الذى تقوم به . . حقًّا أنها تجيد استغلال ذكرى هذا الطفل . . ولكن ما بال هذه الدموع . . ؟ وكانت الفكرة التى أخذها عنها تثير اضطرابه . . إن هذا الصبى كان قد اتخذ من «النساء سيئات السلوك» فكرة لاهوتية ، مطابقة لتلك الفكرة التى أوحى بها إليه أساتذته ، مع أنه كان يعتقد أنه معصوم من تأثيرهن . . وكانت «ماريا» تحوطه تماماً كجيش اصطف للمعركة . وكانت الحلقات التى تزين قدمى دليلة ترن فى عقبيها ، ليست هناك أية خيانة أو أية خديعة حقًّا إلاَّ اعتقد أنها فى متناول تلك المرأة ، التى خشى من نظراتها القديسون أنفسهم كخشيتهم من الموت .

كانت «ماريا» قد قالت له : « عد إلى هذا المنزل حينما تشاء ، فإنى دائماً موجودة به » ورافقته حتى الباب والدموع تبلل عينيها ، وهدأ قلبها ، فلم تحدد له موعدًا آخر ، وبعد أن غادر الفتى المكان جلست بالقرب من فراش «فرانسوا» وحملت إليه آلامها كما لو كانت تحمل صبيًّا غلبه النعاس بين ذراعيها . وكانت تشعر بهدوء قد يكون فى الواقع خيبة أمل ، وتجهل أنها لم تكن لتفوز دائماً بالمساعدة ، كلا ، إن الأموات لايهرعون لمساعدة الأحياء ، فكثيراً ما نستجد بهم ونحن على حافة الهاوية بدون جدوى . إن صمتهم وعدم وجودهم يشبهان نوعًا من التواطؤ .

الفصل التاسع



كان من الأفضل بالنسبة لماريا ألاّ تترك زيارة «ريمون» الأولى لها شيئًا من الأمان والبراءة ، وكانت تدهش من أن كل شىء قد تم بهذه البساطة ، وكانت تقول فى نفسها « كنت أتخيل أشياء كثيرة » وكانت تعتقد أنها بدأت تحس بنوع من الراحة ، ولكنها فى الواقع كانت قد بدأت تحس بشىء من الألم ؛ لأنها تركت «ريمون» ينصرف بدون أن تحدد له موعدًا آخر ، إنها لم تكن لتغادر منزلها فى الساعات التى كان من المحتمل أن يحضر «ريمون» إليها فيها . إن لعبة الحب بسيطة للغاية ، حتى إن الصبى ليدركها عند أول غرام يصادفه ، لم يكن «ريمون» فى حاجة إلى نصيحة ما حتى يتركها ، فكانت تنضج فى مرقها .

وبعد مضى أربعة أيام ، كانت «ماريا» قد أوشكت أن توجه إلى نفسها اللوم كله وتقول : « لم أُحدثه إلاّ عن نفسى وعن «فرنسوا» ، وقد أدخلت الكآبة إلى قلبه . . فما هو الباعث على اهتمامه بما رآه فى هذا الألبوم ؟ كان ينبغى علىّ أن أسأله عن حياته ، وأن أجعله يطمئن إلىّ . . وعلى العكس من هذا فلم أفعل سوى أن جعلته يحس بالملل ، فاعتبرنى امرأة سمجة . . فإذا حدث ولم يعد فماذا يمكننى أن أفعل ؟» .

وسرعان ما تحول هذا القلق إلى هَم . . « طبعاً . . أستطيع أن أنتظر ! لن

يعود أبدًا . . لن يُخدع مرة ثانية . . مَن فى مثل سنه لايغفر أبدًا » . . لاداعى للعودة إلى الحديث ، « لقد انتهى هذا الموضوع» ، هكذا سيقول . . وكانت هذه الحقيقة صارخة ورهيبة . لن يعود أبدًا . كانت «ماريا» تقوم بسلوكها هذا بردم آخر بئر فى صحرائها ، ولم يبق لها بعد ذلك سوى الرمال .
وهل هناك شىء أشد خطورة ـ فى ميدان الحب ـ من هروب أحد الشريكين؟ قد يعد مجىء المحبوب فى أغلب الأحيان عائقاً ، فبالنسبة لريمون كانت «ماريا» ترى فيه الفتى المراهق أولاً ، ومن الحقارة أن تثير فى قلبه الاضطراب؛ لأنها كانت تعرف تماماً مَنْ والده ، وأن الطفولة الباقية على وجه «ريمون» كانت تذكرها بابنها الذى فقدته ، ولم تكن لتقترب من هذا الجسد الفتى إلا فى عفة ملتهبة ، ولكن حيث لم يعد موجودًا إلى جوارها ، وأنها تشك فى معاودة رؤيته ، فما الذى قد تجنيه من وراء الحذر من هذا التيار الغامض فى نفسها ، ومن تأججاته المظلمة ؟ وإذا قُدِّرَ لها ألاَّ تفوز بهذه الثمرة ، فلماذا تمنع نفسها من أن تتخيل مذاقها الغريب؟ وإلى من تسىء بسلوكها هذا ؟ وما اللوم الذى تتوقعه من حَجَر نُقِش عليه اسم «فرانسوا» ؟ ومن الذى قد يراها فى هذا البيت ، بدون زوج وحفل وخدم ؟ ومع أن حديث السيدة «كوريج» وهى تروى خلافات الخدم يبدو تافهاً فإن «ماريا» كانت تتوق إلى أن تملأ به مخيلتها ! إلى أين تذهب ؟ فمن وراء الحديقة الناعسة كانت تمتد الضاحية ، ثم المدينة المليئة بالأحجار ، حيث يضمن الإنسان أنه سيفوز بتسعة أيام خانقة ، حينما تهب الرياح العاصفة . وهذه السماء شاحبة اللون تبدو وكأنها حيوان مفترس ناعس ، يجوس خلال الديار ثم يزأر ثم يسكن آخر الأمر . وتراخت «ماريا» وهى تهيم بدورها فى الحديقة أو فى حجرات بيتها الخاوية ، وهل كان لبؤسها مخرج آخر ؟

وأخذت تضعف إزاء مفاتن حب ضائع بلا أمل ، لم يتبق فيه إلا تلك السعادة البائسة ، المنبثقة من شعور الإنسان بنفسه فقط ـ ولم تعد تقاوم الحريق ، ولم تعد تتألم من هذا الفراغ ومن إهمال الفتى لها ؛ لأن النار المضطربة فى قلبها كانت تشغلها عن كل هذا ، وكأنَّ شيطاناً مبهماً يوسوس لها قائلاً : «حقًّا إنك تموتين ، ولكنك لن تشعرى بالملل أبدًا» .

والغريب فى أمر العاصفة ليس هو ضجيجها ، بل هو هذا الصمت الذى تفرضه على العالم ، وهذا الحذر . . وكانت «ماريا» ترى أوراق الشجر الجامدة وكأنها ملتصقة بالنافذة . إن شرود الأشجار قد يتسم بالإنسانية ، وقد يُقال إنها تعرف الخمول والذهول والنوم ، وقد بلغت «ماريا» الدرجة التى يصبح فيها الغرام بمثابة وجود ملموس . . فكانت تعذب جرحها وتذكى نارها ، وراح حبها يكتم أنفاسها ، ويسبب لها نوعًا من تقلص العضلات ، تستطيع أن تحدد مكانه من رقبتها أو صدرها ، وكادت ترتعد من شدة الاشمئزاز إذْ وصل إليها خطاب من السيد «لاروسيل» . آه ! لم تعد تحتمل اقترابه منها . . خمسة عشر يومًا تفصلها عن موعد حضوره . . لايزال أمامها الوقت الكافى للانتحار . وأخذت تعيد إلى ذاكراتها صورة «ريمون» وبعض ذكريات أخرى كانت فيما مضى تجعلها تشعر بالخجل : «كنت أنظر إلى جلد قبعته فى المكان الذى يلمس فيه جبهته . . وكنت أبحث فيه عن رائحة شعره . . » . وكانت تطيل فى تذكر وجهه ورقبته ويديه باعتبارها المظاهر الوحيدة لحقيقة خافية مليئة بالملاذ . . يالها من راحة لايمكن تصورها فى حالات اليأس ! وكانت تراودها فكرة أن «ريمون» لايزال حيًّا ، وأنها لم تفقد شيئاً ، بل وربما يأتى إليها . ولكن سرعان ما كانت تعودُ إلى الإقلاع عنها تماماً ، كما لو كان هذا الأمل قد أثار فزعها ، ثم تعود إلى هدوء

المرأة التى لا تنتظر شيئاً . وكانت تشعر بلذة بالغة ، وهى تقوم بتوسيع الهوة التى كانت تفصل بينها وبين من كانت تصر على أنه شخص طاهر . وكان حبها لهذا الصبى البعيد المنال يستعر ، ويبدو بعيدًا عنها بُعد النجوم . وكانت تقول : « أنا ، ومن أنا ؟ ما أنا إلا امرأة مجهدة ، ضائعة الأمل . أما هو فما زال يتمتع بصباه . إن طهارته سماء تفصل بيننا ، ومُناى أن يشق له طريقاً من خلالها » . وكانت رياح الغرب والجنوب تجر طوال هذه الأيام وراءها كتلاً قاتمة اللون ، وأفواجاً من السحب الزاخرة التى كانت تتردد فجأة، حينما توشك أن تتفجر من فوق المدينة ، فكانت تدور حول القمم المبهورة ثم تتلاشى مخلفة وراءها هذا الطقس المنعش الذى تنعم به حينما يتساقط المطر فى مكان ما .

لم ينقطع المطر عن همساته الخافتة ليلة الجمعة ، وبفضل مادة الكورال تقبلت «ماريا» بهدوء هذا الريح العطر الذى كانت تبعث به إليها الحديقة من خلال الستائر وهى راقدة فى فراشها غير المرتب ، وأخيرًا راحت فى نوم عميق .

عندما أشرقت شمس الصباح ، وارتاح جسدها ، أدهشه ما عانته من عذاب فى الليلة السابقة . لِمَ كان هذا الجنون ؟ لماذا تسىء التفكير دائماً فى نتائج الأمور ، وهذا الطفل الذى هو على قيد الحياة رهن إشارتها ؟ وبعد أن مرت هذه الأزمة استعادت «ماريا» صفاء ذهنها وتوازنها ، وربما أحست بشىء من خيبة الأمل ، وقالت فى نفسها : «ألم يكن هذا فقط هو موضوع عذابى ؟ ولكنه سيجىء » ، وحتى أطمئن لهذا ، سأجلس لأكتب له . . سأراه » . كان يتحتم عليها مهما كلفها من ثمن ، أن تواجه عذابها بالسبب فى عذابها ، وكانت تفرض على ذهنها ذكرى طفل ساذج لايقوى على

الأذى ، وأدهشها أنها لم ترتعد حينما خطرت لها صورته وهو يضع رأسه على ركبتها وقالت : « سأكتب إلى الطبيب أنى تعرفت علي ابنه » . وكانت تدرك تمام الإدراك أنها لن تكتب إليه ! ولِمَ لا ؟ ما الإثم الذى ترتكبه؟ .

وذهبت بعد الظهر إلى الحديقة وقد انتشرت فيها بقع الماء ، وكانت هادئة أكثر من اللازم حتى إنها أحست بخوف خفى : إن الإقلال من حِدَّة حبها العنيف هو بمثابة زيادة الإحساس بفنائها : إن هذا الحب ـ بعد انكماشه ـ لم يعد يخفى عنها وجه الفراغ فى حياتها . وسرعان ما نُدمت على عدم استمرار رحلتها هذه فى الحديقة لأكثر من خمس دقائق ، وسارت مرة أخرى فى الممرات ، ثم أسرعت لأن الحشائش كانت تبلل أقدامها . وفكرت فى أن تلبس خُفَّيْهَا ، وتستلقى على الفراش وتشعل التبغ وتقرأ . . ولكن ، ماذا تقرأ ؟ ليس أمامها الآن كتاب شائق . . وها هى ذى تعود مرة ثانية إلى المنزل، وتلقى نظرة على النوافذ ، وإذا بها تلمح «ريمون» واقفاً وراء زجاج نافذة حجرة الصالون .

كان قد ألصق وجهه على زجاج النافذة وأخذ يلهو بضغط أنفه عليه . . هذا المد العاطفى فى داخلها ، هل هو ابتهاج وفرحة ؟

صعدت درجات سلم الحديقة وهى تفكر فى هاتين القدمين اللتين صعدتاه قبلها ، ودفعت الباب المفتوح ونظرت إلى المزلاج الذى لامسته يده من قبل ، واخترقت حجرة الطعام بخُطاً بطيئة ، وشرعت تتحكم فى أسارير وجهها .

كان «ريمون» سيىء الحظ حقًّا لمجيئه بعد هذه الأيام التى عانت منها «ماريا» أشد العناء من أجله ، وشعرت بشىء من الحرج عندما وقعت عليه

عيناها لأول وهلة . وقارنت بين هذا الاضطراب وبين ذلك الفتى الذى هو سببه المباشر ، وأدركت أنها لم تستطع أن تسد هذا الفراغ . مع أنها لم تشعر فى هذه اللحظة بخيبة أمل ؛ لأنها كانت قد أحست فى الواقع بصدمة تتضح من ملاحظتها هذه :

ـ هل أنت آتٍ من عند الحلاق ؟

حقًّا ، إنها لم تره على هذه الصورة بشعره اللامع القصير ، ولمست فوق خده آثار جرح قديم ، وحينئذ قال لها :

ـ حدث هذا عندما سقطتُ من فوق الأُرجوحة وأنا فى الثانية من عمرى .

أخذت «ماريا» تراقبه وتحاول أن توفق بين رغبتها وآلامها ورجوعها وإقلاعها عنه ، وبين صورة هذا الشاب القوى المفتول العضلات ، هذا الكلب الكبير الضخم ، إن آلاف العواطف المنبثقة من قرارة نفسها بسبب هذا الفتى ، وكل ما يمكن أن تنقذه من أحلامها كان يتجمع على قدر المستطاع حول هذا الوجه المشدود ، الذى تعلوه الحُمرة ، ولكنها لم تكن تتعرف على تعبير معين فى عينيه ، أو على جبهته ، أو على إصرار هذا الفتى الذى يملأ الخوف قلبه على الانتصار ، هذا الجبان الذى صمم على الإقدام، ومع ذلك لم يبدُ لها فى يوم من الأيام أنه محتفظ بطابع الطفولة كما بدا لها فى ذلك اليوم ، وقالت له فى لهجة آمِرَة ورقيقة فى الوقت نفسه ، ما سبق أن كانت تقوله فيما مضى لفرانسوا :

ـ هل أنت عطشان ؟ سأعطيك بعد قليل شراب الفراولة ، ولكن بعد أن يجف عرقك .

وأشارت له إلى أحد المقاعد ، ولكنه جلس على المقعد الطويل نفسه الذى كانت قد استلقت عليه ، وأكد لها أنه لايشعر بالعطش ، ثم أضاف :

ـ على أية حال ، لا أشعر بالرغبة فى شراب أى عصير .

شدت «ماريا» رداءها حتى غطى قدميها اللتين كانتا قد انكشفتا قليلاً ، فنالت من جراء ذلك صيحة المديح : «يالها من خسارة!» .

فغيرت وضعها وجلست إلى جانب الشاب ، فسألها : لماذا لا تظلين مستلقية ؟ ثم قال : «أنا لا أسبب لك فزعاً» .

وكشفت هذه الكلمة لماريا أنها كانت فى واقع الأمر خائفة ، ولكن من أى شىء خائفة ؟ إنه «ريمون كوريج» أو «كوريج» الصغير ابن الطبيب ، وسألته بدورها : «كيف حال والدك العزيز؟» .

هز الفتى كتفيه ، ومط شفته السفلى إلى الأمام ، فقدمت له لفافة تبغ رفضها ، أما هى فقد أشعلت واحدة وقالت له بعد أن وضعت كوعيها على ركبتيها :

ـ نعم ، أخبرتنى من قبل أنك لا تشعر بأُلفة كبيرة بينك وبين والدك . تلك هى القاعدة الآباء والأبناء . . حينما كان «فرانسوا» يجىء ويختبىء فى ركبتى كنت أقول لنفسى : هيا ، فلأستفد من هذه الحالة فإنها لاتدوم .

أخطأت «ماريا» فى تفسير هز الكتفين ، وفى تفسير مط الشفة السفلى ، لأن «ريمون» فى هذه اللحظة كان يحاول جاهداً أن يبعد ذكر أبيه . . لا لأنه كان يشعر نحوه بعدم الاكتراث ، بل لأنه كان على العكس من ذلك ، يشعر بتسلطه عليه منذ الحديث الذى دار بينهما منذ يومين . . وكان

الطبيب قد لحق بريمون وهو يتجول فى ممر الكروم بعد العشاء ، ويدخن وحده . . ومشى بجواره صامتاً ، صمت رجل يريد أن يفصح عما فى نفسه . وكان «ريمون» يتساءل فى قرارة نفسه : «ماذا تريد منى ؟» وأسلم نفسه إلى متعة الصمت القاسية ، تلك المتعة التى كان يشعر بها حينما كان يستمتع بشروق شمس الخريف ، وهو فى عربة يتساقط الندى فوق زجاجها . وأكثر من ذلك أن «ريمون» كان يسرع فى خُبث ؛ لأنه لاحظ أن والده يحس بعناء كبير فى ملاحقته ، وكان يظل خلفه بقليل ، ولكنه ـ على حين غرة ـ لم يسمعه لاهثًا إلى جواره ، والتفت إلى الخلف فرأى الطبيب واقفاً بلا حراك وسط الكروم على صورة من السواد تحاكى ظلمة الليل . كان يضغط بيديه على صورة ، ويترنح كما لو كان مخمورًا . ثم خطا الطبيب بضع خطوات ، وألقى بثقله بين خطين من الكروم . اندفع «ريمون» نحوه وركع أمامه ، وضم إلى كتفيه وجه أبيه الذى أخذت الحيوية تنصرف عنه . نظر عن قرب إلى هذا الوجه ، وقد غمضت عيناه ، وأخذ لون خديه يحكى لون لُباب الخبز . قال «ريمون» . ما هذا يا والدى ؟ ما هذا يا والدى ؟» . وأيقظ الصوت المتوسل والآمر فى آن واحد ـ كما لو كان يتميز بفعل السحر ـ المريض الذى قال وهو يلهث قليلاً ، ويحاول أن يبتسم ابتسامة حائرة : «لاشىء ، لن يحدث بسبب ذلك أى شىء . . » وراح يشاهد وجه ابنه القلق ، ويصغى إلى صوته الهادىء حينما كان فى الثامنة من عمره، وهو يقول له : «أسنِدْ رأسك إلى كتفى ، أليس لديك منديل نظيف؟ منديلى متسخ» . وأخذ يمسح بكل رفق هذا الوجه الذى يسترجع الحياة . ورأت عينا الوالد ـ حينما فُتِحَتا من جديد ـ شعر الفتى المراهق والريح تعبث به ، ثم رأت بعد ذلك الكروم الكثيفة ، ومن وراء هذا كله سماء مربدة ، تنذر

برعـد قـوى . حتى ليظن المرء أن عربـات نقل محملة بالطوب تفرغ شحناتها .

عاد الطبيب إلى منزله متكئاً على ذراع ابنه ، وكان المطر الدافىء يتساقط على كتفيهما وخديهما ، ولامفر من هذا ، فلم يكن فى وسعهما الإسراع فى المشى . . وكان الطبيب يقول لريمون : «إنه التهاب رئوى كاذب، لاتقل آلامه عن آلام الالتهاب الحقيقى . . إنى أعانى من تسمم ، وعلىَّ أن أظل ملازماً الفرش ثمانياً وأربعين ساعة ، ولا آكل إلا طعاماً مسلوقاً ، ولكن حذارِ أن تخبر بذلك والدتك أو جدتك . . » وقاطعه «ريمون» قائلاً : «هل تسخر منى بقولك هذا ؟ هل أنت واثق تماماً من أن هذا الأمر ليس خطيرًا على الإطلاق ؟ أقسم لى أنه ليس بالأمر الخطر ؟ . وطلب السيد الطبيب بصوت خافت : «هل يضايقك إذن ؟ ؟ » . ولكن «ريمون» لم يدعه يكمل عبارته وطوق بذراعيه جسد والده الذى كان لايزال يلهث ، ولم يستطع أن يمنع نفسه من أن يصيح قائلاً : «ما هذه الوقاحة اللطيفة؟» فى تلك الساعات التى صار ابنه فيها غريباً بالنسبة إليه ، بل وعدوًّا له حينما صار هذا الابن قلبًا أصم ، لايستجيب إلى ندائه . ودخل الاثنان حجرة الصالون بدون أن يجرؤ الأب على تقبيل ولده .



ـ ما رأيك لو تحدثنا عن شىء آخر ؟ إنى لم أحضر إلى هذا المكان لكى أتحدث عن والدى ، إنكِ تعلمين هذا جيدًا ، أمامنا أشياء أجدى ، أليس كذلك ؟

مد ريمون يدًا ضخمة غير ماهرة نحوها ، فأمسكت بها تسعى إليها

وحجزتها برفق وهى تقول : « كلا ياريمون ، إنك لاتعرف والدك على حقيقته؛ لأنك تعيش بالقرب منه ، إننا نجهل دائماً حقيقة أقرب الناس إلينا . . قد يحدث أننا لا نرى ما يحيط بنا ، وسأضرب لك مثلاً على ذلك : عائلتى تصورت دائماً أنى قبيحة الشكل ؛ لأنى كنت أعانى قليلاً من حَوَلٍ فى عينى ، وكم كانت دهشتى عظيمة ، عندما أبلغنى رفيقاتى فى المدرسة أنى وسيمة الشكل » .

قال «ريمون» : « هيا ، قُصِّى علىَّ بعض نوادر مدرسة البنات » .

كانت الفكرة المتسلطة على عقله تجعله يبدو أكبر سنًّا من الواقع ، ولم تكن «ماريا» تجسر على ترك يده الضخمة ، تلك اليد التى كانت تشعر بانها مُبتلة ، أحست بشىء من الاشمئزاز ، مع أنها كانت هى اليد ذاتها التى جعلت وجهها يشحب بمجرد لمسها منذ عشر دقائق ، هذه اليد كانت فيما مضى تجعلها تغمض عينيها وتتحاشى النظر إليه ، فى حين تحتفظ بها بين يديها بضع لحظات ، لقد أصبحت الآن يدًا رخوة ومبتلة ، وما لبثت أن قالت : حقًّا ! أريد أن أجعلك تتعرف على حقيقة الطبيب . أنت تعلم أنى عنيدة ! » .

قاطعها الفتى ليؤكد لها أنه هو أيضاً عنيد ، وأضاف :

ـ وهكذا . . أقسمت اليوم أننى لن أكون أُلعوبة فى يديك . لم تسمعه ، ولكنها وسعت المسافة التى كانت تفصل بين جسديهما ، ثم نهضت وفتحت النافذة وهى تقول :

ـ من الصعب القول بأن الدنيا أمطرت ، فالجو خانق . . وأنا لا أزال

أسمع دوى العاصفة ، هذا إن لم يكن هذا الصوت.هو صوت طابية سان ميرار .

وأشارت لريمون تلفت نظرة إلى رأس إحدى السحب العميقة القاتمة اللون ، أضاءت الشمس أطرافها وهى تمر فوق قمم الأشجار ، ولكنه أمسك ساعديها بيديه ودفعها نحو مقعد طويل ، فتظاهرت بالضحك وقالت : «دعنى وشأنى » وكلما كانت تحاول الإفلات منه ، ازداد ضحكها لكى تفهمه أن هذا الصراع بمثابة لعبة ، وأنها لاتقصد أكثر من أن يكون لعباً . وصاحت آخر الأمر : « أيها الصبى الملعون ، دعنى وشأنى » . وكانت ضحكاتها أقرب ما تكون إلى تقلصات فى وجهها . وحينما شعرت قدماها بالأريكة ، رأت عن كثب بضعة آلاف من نقط العرق تتصبب من جبهة «ريمون» الضيقة ، وخياشيمه بنقطها السوداء . واستنشقت أنفاسه المحمومة . . كان يريد أن يمسك معصمى السيدة بيد واحدة حتى يستطيع أن يستخدم يده الأخرى ، غير أن «ماريا» استطاعت التخلص منه إثر هزة عنيفة منها ، وكان يفصل بينهما فى تلك اللحظة المقعد الطويل والمنضدة ، وأحد المقاعد . وراحت تلهث قليلاً وتتظاهر بالضحك ثم قالت له :

ـ ما هذا يا صغيرى ، أو تعتقد أن باستطاعتك أن تنال امرأة بالقوة ؟

أما هو ، الغاضب من جراء هذه الهزيمة ، فلم يكن يضحك ، لقد أصيب فى أدق نقطة من ذلك الغرور الذى استفحل فيه ، والذى كان ينزف دماً . لم ينس طوال حياته أن يتذكر هذه اللحظة التى حكمت عليه المرأة فيها بأنه منفر ، وقد يكون هذا الحكم هيناً ، لو لم تر فيه أيضاً أنه مثار السخرية ، إن انتصاراته المقبلة ـ وكل ضحاياه التى استسلمت له ، ونالها البؤس بسببه ـ لم تلطف مطلقاً من حرمة هذه الإهانة الأولى . وظل «ريمون»

لوقت طويل يدمى شفته بأسنانه ، ويعض وسادته أثناء الليل بسبب هذه الذكرى ، وحبس الفتى دموع الغضب ، ولم يخطر على باله أن ابتسامة «ماريا» كانت خدعة ، وأنها لم تحاول أن تجرح طفلاً سريع الغضب ، ولكنها كانت تبغى فقط أن تظهر شيئاً من أمر تلك الكارثة ، أو بالأحرى ذلك الانهيار الذى حدث فى نفسها ، آه ! عليه إذن أن ينصرف من هذا المكان ! لتظل هى بمفردها فيه !

وكان «ريمون» يدهش فى السابعة عندما يشعر بأن «ماريا» الذائعة الصيت إنما هى فى متناول يده ، وكان كثيراً ما يكرر فى نفسه : «هذه المرأة الصغيرة هى ماريا كروس ذاتها . . وما عليه إلا أن يمد يده ليجدها خاضعة لأمره ، جامدة لاتستطيع حراكاً . . وكان فى مقدوره أن ينال منها ثم ينصرف عنها ، ثم يعود إليها ثانية ، ومع ذلك فإن حركة يديه الممتدتين كانت كافية لإبعاد «ماريا» عنه بُعدًا كبيرًا . إنها لاتزال أمامه حقًّا ، لاتزال ، ولكنه كان واثقاً كل الثقة أنه لم يعد بإمكانه أن يلمسها ؛ لأن لمسها كان بمثابة لمس النجوم ، وأدرك فى تلك اللحظة أنها كانت جميلة حقًّا ؛ لأنه لم يكن ينظر إليها فيما مضى ، لانشغاله بإعداد الخطة التى تتيح له قطف هذه الثمرة الشهية والاستمتاع بها ، بدون أن يشك لحظة واحدة فى أن هذه الثمرة من نصيبه » . لم يبق لك الآن ، ياريمون إلا أن تفترسها بعينيك» .

وكانت تكرر له فى رقّه ، حتى لايتضايق ، ولكن فى عناد وإصرار هذه العبارة : «إنى فى حاجة إلى أن أكون وحدى ياريمون» . . افهم ما أقول ، ينبغى لك أن تتركنى وحدى . . » . وكان الطبيب قد تألم من قبل لأن «ماريا» لم ترغب فى حضوره ، ولكن «ريمون» كان يشعر بآلام أبشع ، كان يحس بالرغبة فى عدم اللقاء من جانب المحبوبة التى صارت غير قادرة على

إخفائها ، وعلى الاستمرار فى الخداع ، إنها لتطرب من قلبها بل إنها لتلفظه. إن غياب هذا المسكين بات ضروريًّا لحياة الحبيبة ، إنها تتوق إلى أن تلقى بالمعتدى فى طَى النسيان ، وأن تقول له : «هيا اخرج من حياتى » . إنها لاتدفعه إلى الخروج دفعًا ؛ لأنها تخشى مقاومته .

قدّمت «ماريا» إلى «ريمون» قبعته ، ودفعت الباب ، ثم أفسحت الطريق له ، وكانت أمنتيه أن يتوارى عن المكان ، فأخذ فى تلعثم يبدى أعذارًا سخيفة ، وقد غمره الخزى ، وعاد مراهقًا يشمئز من نفسه أشد الاشمئزاز ، ولكن هذا الصبى ما كاد يجد نفسه خارج البيت بعد أن أغلق من خلفه الباب ، حتى وجد فجأة من الكلمات ما كان يجدر به أن يلقيها فى وجه هذه المرأة . . ولكن الأوان كان قد فات ! ولسوف يعانى أعوامًا طويلة من هذه الفكرة « أنه انصرف بدون أن يقول لها ما تستحق » .

وبينما كان الفتى يفرغ وهو يسير فى الطريق كل الإهانات التى لم يعرف كيف يكيلها لماريا ، كانت قد استلقت على الفراش بعد أن أغلقت الباب ثم النافذة ، ومن وراء الأشجار ، كان طيرٌ مَّا يُلقى من حين لآخر نداءً متقطعاً يشبه الكلمات المبهمة التى يتفوه بها الرجل النائم ، وكانت القاعة تضج بصوت عربات الترام وصفارات المصانع ، على حين كانت أغانى يوم السبت المترنمة تتردد على الطريق . ومع ذلك كانت «ماريا» تكاد تختنق من صمت لم يكن خارجيًّا بالنسبة لها ، ولكنه صاعد من أعماق نفسها ، ولكنه يتكدس فى الحجرة الخالية ويغمر المنزل والحديقة والمدينة والعالم . وكانت تعيش فى وسط هذا الصمت الخانق وهى تستشعر لهيباً داخل نفسها ، ومع أنه قد حبس عن ذلك اللهيب فجأة كل غذاء ، فقد كانت- تزداد برغم ذلك - اشتعالاً . بأى شىء إذن كانت تتغذى هذه النار ؟ وتذكرت أنها

كانت ترى أحياناً فى نهاية الأمسيات التى كانت تقضيها بمفردها لهيباً غير متوقع ينبثق من البقايا السوداء المتراكمة فى المدفأة ، والتى كانت تعتقد أنها انطفأت ، فأخذت تبحث عن وجه الطفل السمح فى الترام ، ترام الساعة السادسة ، فلم تجده . ولم يعد يبقى فى ذاكرتها إلا صورة صبى وقح نافر ، خجول للغاية ، سريع الغضب والاجتراء ، وكانت هذه الصورة تختلف عن الصورة الحقيقية لريمون كوريج بمقدار ما كانت تختلف عنها الصورة التى أوحاها إليها حبها له ، فكانت تقول فى غضب موجهة الحديث إلى ذلك الذى أعطته فى خيالها أسمى الصفات وقدسته تقديساً : «كيف أشعر بآلام العذاب وبنشوة السعادة من جراء هذا الصبى السيىء . وكانت تجهل أن نظرة منها كانت كافية لتجعل من هذا الطفل الذى لاشكل له رجلاً ، وأن عددًا كبيرًا من نساء أخريات كن سيعرفن مكره ، ويتعرضن إلى ملاطفاته وإلى لكماته . وإذا كانت «ماريا» خلقته بحبها فإنها كانت تكمل عملها بإبداء احتقارها له : إنها بعملها هذا ألقت إلى هذا العالم بشاب يتوق إلى أن يبرهن لنفسه أن سحره لا تستطيع النساء مقاومته ، مع أن ماريا قد قاومته من قبل . وابتداء من هذا اليوم سوف تندس فى كل مغامراته المقبلة روح العداء الخافتة ، والرغبة فى أن يجرح المرأة ، وأن يجعل الظبية تئن تحت رحمته، إنه فى حياته القادمة سوى يجعل دموع «ماريا» تسيل على كل هذه الوجوه الغريبة ، ومما لاشك فيه أن هذا الشاب قد ولُد وهو يتمتع بغريزة القَنَّاص ، ولكن لولا «ماريا» تسعى إلى تهدئتها وتلطيفها ببعض الضعف .

كانت «ماريا» تقول فى نفسها : « من أجل هذا السفيه» .. ياله من أمر يدعو إلى الاشمئزاز . وبالرغم من ذلك كانت الشعلة التى لاتنطفىء

تشتعل داخل نفسها بدون أن يكون هناك ما يمدها بالغذاء . لن يكون فى العالم شخص يستفيد من هذا الضوء ، ومن هذا الدفء ، إذن أين تذهب؟ هل تذهب إلى حى «شارتروز» حيث يرقد جسد «فرانسوا» ؟ كلا ، عليك أن تعترفى أنك لم تبحثى وأنت بالقرب من هذه الجثة إلا عن حجة تحتجين بها . إنها لم تخلص فى زيارة الطفل الراقد فى المقبرة إلا لكى تتمتع بالعودة وهى جالسة إلى جوار طفل آخر تدب فيه الحياة . ليس هناك ما يُفعَل وليس هناك ما يُقال إلى جانب المقبرة ، إنها فى كل مرة كانت تصطدم بهذه المقبرة كما لو كانت تصطدم بباب بدون مزلاج ، قدر له أن يظل مغلقاً إلى الأبد . إنه لمن الأجدى بالنسبة إليها أن تركع على تراب الشارع . . ألا أيها الطفل الصغير «فرانسوا» . لقد أصبحت الآن حفنة من الرماد ، أنت من كنت فيما مضى مليئاً بالمرح والضحك والبكاء . . فمن ذا الذى ينبغى أن تنشده بالقرب منها ؟ أهو الطبيب ، هذا الشخص الثقيل الظل ؟ كلا . لا أريد شخصًا ثقيل الظل ، لكن لم هذا الجهد الذى نبذله نحو الكمال حينما يكون مقدرًا لنا ألاَّ نقوم بعمل حتى يتضح أنه عمل غير كريم على الرغم من حسن نيتنا ؟ إن كل الأهداف التى تفاخرت «ماريا» بأنها بلغتها ، كان أحط جانب منها يجد تزكية له .

لم تعد ترغب فى وجود أى شخص بجانبها ، كما أنها لاتتمنى أن تجد نفسها فى أى مكان آخر من العالم خلاف غرفة الاستقبال ذات الستائر المثقوبة . كلا ، ربما كانت تود أن تكون فى قرية «سانت كلير» . تذكرت طفولتها فى هذه القرية . . وتذكرت تلك الحديقة التى غادرتها العائلة المتدينة التى كانت تعادى والدتها . وكان يبدو لها أن الطبيعة كانت تنتظر هذا الرحيل ، الذى حدث فى نهاية إجازة عيد الفصح ، حين تمزقت الغلالة

القاتمة ، التى كانت تحجب أوراق الشجر وكانت البطارس تتسلق الأشجار وتزداد كثافة ، وتكسو بموجتها الخضراء اللزجة غصون شجر البلوط المتدلية . ولكن شجر الصنوبر كان يؤرجح قمماً رمادية اللون ، توحى إلى المرء أنها لا تكترث بالربيع ، حتى إنها فى ذات صباح ، نزعت هذه السحابة من اللقاح . هذه السحابة الكبريتية الهائلة إنما هى رمز الحب . وتذكرت «ماريا» دمية محطمة فى منحنى إحدى الطرقات ، ومنديلاً مشبوكاً فى البوص ، ورأت «ماريا» فى هذا اليوم بعد أن أصبحت غريبة عن هذه القرية أنها لن تجد من يستقبلها فيها سوى هذه الرمال التى خُيل إليها أنها انكفأت عليها .

وبعد أن أبلغتها «جوستين» بأن المائدة أُعدت ، صففت شعرها ، وجلست أمام الحساء المتصاعد منه الدخان . ولم يكن من المتوقع أن تتخلف الخادمة وزوجها عن السينما ، ووجدت نفسها بمفردها بعد نصف ساعة ، واقفة فى نافذة حجرة الصالون ، وكان شجر الزيزفون ذو الرائحة المعطرة ، بغير رائحة عطرة . وفى الحديقة صارت زهور أشجار الورود الجبلية قاتمة اللون . وحاولت «ماريا» أن تعثر على حطام تتشبث به خوفاً من العدم ، وحتى تسترد أنفاسها ، وقالت لنفسها : « لقد استسلمت إلى غريزة الهروب التى نملكها ، نحن النساء جميعاً ، حينما نجد أنفسنا أمام وجه بشرى ، أصبح قبيحًا نتيجة الفقر والحاجة ، إنك تقنعين نفسك بأن هذا الوحش الكاسر مخلوق يختلف تماماً عن الطفل الذى كنت تعبدينه . حقًا ، إنه نفس الطفل ، ولكنه فى هذه المرة كان يرتدى القناع ، كما هو الحال لدى النساء الحوامل اللواتى يحملن فوق وجوههن قناعاً مصغرًا ، والرجال الذين امتلأت قلوبهم بالحب يحملون أيضاً هذا الوجه ، وقد ألصقوه بوجوههم ،

هذا الوجه الكريه الفظيع ، الذى يعبر عن البهيمية تتحرك فى أعماقهم . إن «جالاتين» تهرب مما يخيفها ، وهذا هو أيضاً ما كانت تنشده . . لقد كنت أحلم بطريق طويل كله مداعبات وملاطفات ، وكنا قد انتقلنا بحركة لاتكاد تحس بها من المناطق المعتدلة ، إلى مناطق أخرى أكثر رخاوة ، ولكن هذا الجدى الصغير ، أسرع فى السير إلى هدفه ، فلماذا لم يستسلم إلى هذا الغضب الغشيم ! ربما كنت قد وجدت من هتك هذا الهدوء الذى لايمكن تصوره ، بل ربما كنت قد وجدت شيئاً أفضل من هذا الهدوء . . ربما لا يوجد فراغ بين الكائنات إلا استطعنا أن نملأه بفيض من المداعبات . . أى نوع من المداعبات ؟ وتذكرت «ماريا» أمرًا مّا ، والتوت شفتاها ، دليلاً على الاشمئزاز ، وصعد من أعماق ذاتها لفظ « ماهذا ؟» . واستبدت بها الصورة، وتراءى لها «لاروسيل» وهو يبتعد عنها بعد أن امتلأت خدوده بالدم ، وهو يزمجر قائلاً : «ماذا بِك ؟ إنكِ قطعة من الخشب ! » .

حقًّا ماذا كان يلزمها ؟ كانت تتجول فى الحجرة الخالية ، وتتكىء بساعديها على النافذة ، وتفكر فى أمرها . لم تكن تعرف أى نوع من الصمت هى فى حاجة إليه ، صمت يتيح لها أن تشعر بحبها ، بدون أن يضطر هذا الحب إلى لفظ أية كلمة تنبىء عنه ، ومع ذلك فقد كان على الحبيب أن يسمع هذا الصوت ، وأن يسعى إلى إشباع رغبتها الناشئة فى قلبها قبل أنْ يولد . إن كل مداعبة تفرض وجود تواصل بين قلبين ، ولكنها كانت ترى أنها سوف تكون ممتزجة بحبيبها امتزاجاً تامًّا ، حتى إن العناق لم يعد أمرًا ضروريًّا ، إذ أن العار هو الذى يضع دائماً حدًّا للعناق القصير . . وعندما تذكرت كلمة العار لاح لها أنها تسمع ضحكة «جابى دوتوا» المستهترة ، وهى تصيح ذات يوم فى وجهها بقولها : «كلا ، كلا . . وَجِّهى الحديث إلى

نفسك ، ليس هناك شيء طيب إلا هذا ، على عكس ما تعتقدين ، ليس هناك سوى هذا الأمر الذى لايخيب ظنى . . » . إذن ، من أين يأتى إليها هذا الاشئمزاز ، هل له من معنى ؟ هل هو دليل على رغبة خاصة لشخصٍ مّا ؟ كانت آلاف من الأفكار الغامضة تجيش فى صدر «ماريا» ثم تتلاشى كما تتلاشى فوق رأسها النجوم الهاوية ، والأجرام الضائعة فى صحراء السماء .

وقالت «ماريا» لنفسها : «أليس القاموس الذى يحكمنى ، هو القاموس الشائع بين الناس ؟ ألا أستطيع حقًّا أن أكون معزولة عن العالم أكثر مما أنا عليه ، وأنا أعيش بدون زوج ، بدون أطفال ، بدون أصدقاء ؟ ولكن ما وجه الشبه بين هذه العزلة وبين عزلة أخرى ، لم يكن فى استطاعة عائلة كلها حنان أن تحررنى منها ؟ » . وكانت تقصد بهذا تلك الوحدة التى نسعى جاهدين إلى أن نتبين فى أعماق نفوسنا الدلائل على نوع فريد لجنس كاد ينقرض ، لجنس نحاول أن نفسر غرائزه ومطالبه وأهدافه الغامضة ! آه ! كم تود «ماريا» ألا تنهك قواها فى هذا البحث ! وإذا كانت السماء لاتزال شاحبة من جراء الجزء الباقى من النهار ، والقمر الوشيك الولادة ، فقد كانت الظلمات تتكدس تحت الأوراق الهادئة . وأطلت «ماريا» بجسدها على الليل ، وأحست أنه يجذبها إليه ، أو أنها شعرت بكآبة النباتات تستميلها ، فى حين كانت تشعر فى قرارة نفسها بالرغبة الملحة فى أن تتلاشى فى ذلك الليل ، وأن تفنى فيه ، أكثر من رغبتها فى أن تستنشق نسيم الهواء المثقل بالغصون الوارفة ، أحست بهذا حتى امتزجت صحراؤها الداخلية بصحراء الفضاء ، وحتى يكون الصمت الذى فى داخلها مختلفاً عن صمت طبقات الجو العليا .



الفصل العاشر

بعد أن تخلص «ريمون» وهو فى الطريق ، من التفكير فى السباب والإهانات التى لم يكلها لماريا ، مما كان يزيد فى سخطه وضيقه، أحس بالرغبة فى الإساءة إليها إساءة بالغة ، ولذلك أبدى رغبته عند عودته إلى المنزل فى رؤية أبيه . كان الطبيب قد قرر أن يمكث بالفراش ثمانيًا وأربعين ساعة بدون أن يتناول طعاماً ، وأن يعيش على الماء ، كما أمره بذلك الطبيب المعالج ، وكان هذا الأمر قد أدخل السرور على قلب أمه وزوجته ، فالذبحة الصدرية الكاذبة لم تكن فى الواقع أمرًا كافياً لتقنعه بهذا البقاء ، ولكنه أطاعه رغبة فى دراسة أثر هذا العلاج على نفسه ، وكان الطبيب «روبنسون» قد حضر قبل ذلك فى اليوم السابق . . كانت السيدة كوريج تقول : «كنت أفضل أن يكون «دولال» هو الطبيب المعالج ، ولكن «روبنسون» هو على كل حال طبيب يجيد الكشف على المرضى .

كان «روبنسون» يمزق جانب الحائط ، ويصعد السلم بخطوات خافتة ، لأنه كان يخشى دائماً أن يلتقى بمارلين ، مع أنه لم يرها قط ، وكان «لوريج» الأب مغمض العينين ، ورأسه خاوياً من كل شىء ، ولكن ذهنه كان صافياً صفاءً غريبا ، وجسمه طليقاً تحت الملاءة الخفيفة ، فى مأمنٍ من ضوء النهار، يتتبع بدون جهد تسلل أفكاره ، وكان ذهنه يتجول فى هذه الميادين

النائية ، وقد عثر عليها متشابكة ، مثله فى ذلك كمثل الكلب الذى يعدو بين الشجيرات حول سيده وهو يتنزه ، ولكنه لا يصطاد . وكان يرتب فى ذهنه بدون عناء مقالات لم يكن عليه إلا أن يحررها ، ويجيب عن موضوعات النقد التى وُجهت إليه بمناسبة آخر بحث تقدم به إلى الجمعية البيولوجية . إن وجود أمه بجانبه كان يُدخل فى قلبه الهدوء ، وكان يشعر بنفس الحالة بالنسبة إلى زوجته ، وكان يسره أن يدرك ذلك ، فقد ظل أخيراً بلا حراك بعد مطاردة مضنية ، وأتاح للوسى زوجته أن تسترده من جديد . كان يعجب فى قرارة نفسه كيف كانت أمه تتوارى حتى تتجنب كل صدام . وكانت المرأتان تتقاسمان هذه الفريسة بدون شجار ، هذه الفريسة التى انتزعت لمدة ما من عملها ، ومن الدراسة ، ومن حب المجهول ، والتى لم تكن تقاوم حبهما لها ، بل كانت تهتم بأتفه كلام تتفوهان به ، والتى كان عالم هذه الضحية يزداد ضيقًا لكى يكون مطابقًا لعالمها . وهاهو ذا الطبيب يرغب فى معرفة ما إذا كانت «جولى» الخادمة قد عزمت على مغادرة المكان أم أنها قد تستطيع التفاهم مع خادمة «مارلين» ولكن سواء كانت يد أمه هى التى كانت تلمس جبهته أم يد زوجته ، فإنه كان يستعيد تلك الطمأنينة التى كان يشتهر بها وهو طفل مريض ، وكان يبتهج لأنه لن يموت وحيدًا ، وخطر له أن الموت قد يكون أبسط شىء فى الوجود ، حين يأتيه فى غرفته المصنوعة من خشب الزان المألوف له ، حيث توجد الأم والزوجة تحاولان الابتسام ، إن وجودهما قد يخفف اللحظة الأخيرة ، كما يخفف مرارة كل دواء، نعم ، إنه يود أن ينصرف من هذا العالم محاطاً بهذا الكذب ، وهو يعرف كيف يكون مخدوعاً .

وتدفق الضوء وغمر الحجرة ، ودخل «ريمون» وهو يزمجر ويقول : «الإنسان لايرى شيئاً فى هذا الظلام » . واقترب من هذا الرجل الراقد،

الرجل الوحيد الذى يستطيع أن يسىء لماريا هذا المساء فى وجوده . كان يحس فى فمه بطعم ما هو على وشك تقيئه . قال له المريض : «قَبِّلْنى» . وكان الطبيب ينظر بلهفة إلى هذا الابن الذى مسح وجهه منذ يومين وهو فى ممر الكروم . ولكن الشاب كان يرى بوضوح تام ملامح وجه أبيه ؛ لأنه دخل حينما كان النور ساطعاً فى هذه الظلمة ، فسأل أباه فى لهجة خشنة :

ـ هل تذكر حديثنا عن «ماريا كروس» ؟

ـ نعم .

فى تلك اللحظة اكتشف «ريمون» وهو ينحنى على هذا الجسم الممدود لكى يقبله أو لكى يطعنه بضربة سكين ، اكتشف عينين مليئتين بالقلق ترمقان شفتيه ، وأدرك أن هذا الآخرَ كان يتألم أيضاً ، فقال فى نفسه : «كنت أعلم هذا منذ تلك الليلة التى نعتتنى فيها بالكذب » . . لم يشعر «ريمون» بأى غيرة من أبيه ؛ لأنه لم يكن فى مقدوره أن يتخيل أن أباه كان يوماً عاشقاً لماريا ، إنه لم يشعر بأية غيرة ، بل بميل غريب إلى البكاء الممزوج بالغضب والسخرية . . ما أتعس هذين الخدين الرماديين تحت اللحية الخفيفة ! وهذا الصوت المخنوق الذى يتوسل إليه قائلاً :

ـ نعم . . ماذا تعرف ؟ . . خبرنى بسرعة . .

ـ خُدعت يا أبى . . أنت الوحيد الذى تعرف جيداً «ماريا كروس ! وقد عزمت على إخطارك بهذا الأمر ، والآن عليك أن تستريح . هل تعتقد أن الامتناع عن الأكل يفيدك ؟

سمع «ريمون» فى ذهول هذا الحديث الذى تفوه به ، إنه على العكس تماماً مما كان يود أن يقوله ؛ ووضع يده على جبهة أبيه الجافة الحزينة ، تلك

اليد التى كانت «ماريا» قد أمسكت بها منذ لحظة ، ووجدها الطبيب غضة، وخشى أن تبتعد عنه فقال : « رأيى فى «ماريا» كونته منذ زمن بعيد» .

وبينما السيدة «كوريج» تدلف إلى الغرفة ، وضع الطبيب أصبعه على شفتيه، فابتعد «ريمون» بدون إحداث أى صوت .

أحضرت والدة الطبيب مصباح الغاز ؛ لأنه أصبح من الضعف بحيث لايقوى على النظر إلى مصباح الكهرباء ، وبعد أن وضعت المصباح على مائدة صغيرة ، أنزلت غطاءه ، وكان هذا الضوء المحدود هو ضوء الليالى الماضية الذى ساعد على خلعه هذا العالم الغامض ، لحجرات لم يعد لها وجود ، تلك الحجرات التى كان المصباح يصارع فيها ظلاماً دامساً انتشر فى حجرة مليئة بأثاث لايصل إليه سوى بصيص من الضوء . . كان الطبيب يحب «ماريا» ، لكنه لم يكن متعلقاً بها ، كان يحبها كما ينبغى أن يحبنا الأموات . . وكانت ذكراها قد لحقت بغرامياته السابقة التى بدأت منذ عهد المراهقة . . وأخذ الطبيب يتتبع هذا الضرب من التفكير ، فأدرك فجأة أن هناك عاطفة شغلته دائماً على مر السنين شبيهة بتلك العاطفة التى قد انتهى من الإحساس بعذابها . إنه حقًّا يستطيع أن يسترجع سلسلة غرامياته واحدة بعد الأخرى ، ويذكر أسماء كل العواطف التى تنازعت قلبه بدون جدوى ، مع أنه كان فى يوم من الأيام فى عنفوان شبابه ، لم تكن إذن السن هى التى تفصله عن «ماريا» . . لم يكن فى مقدوره أن يجتاز الصحراء التى تفصله عن تلك المرأة حتى وهو فى الخامسة والعشرين من عمره . وتذكر أنه حينما غادر المدرسة الثانوية ، وكان قد بلغ سن «ريمون» الحالية ، أحب بدون أمل . إن عدم القدرة على الوصول إلى قلب الشخص الذى يُكنّ له كل مودة هى

أساس لمن أسس طبيعته . لم يدرك هذا الأمر واضحاً إلا عندما كان يفوز بنصف نجاح ، حينما كان يقرب إليه من يسعى إلى اكتساب مودته ، بعد أن يكون قد هان أمره ، وانحط شأنه ، وأصبح مختلفاً تماماً عما كان قد أحس به الطبيب فى بادىء الأمر ، وما تكبده من عناء بسببه ، كلا ، ليس له إذن أن يبحث فى مرآته عن سبب هذه العزلة التى قُدر له أن يموت فيها ، إن رجالاً آخرين يرضخون حتى فى شيخوختهم ، لطبيعة قوانين حياتهم ، إن شأنه فى ذلك شأن أبيه ، بل ربما شأن «ريمون» أيضاً . إنهم يطيعون ميولهم الغرامية ، أما هو فقد أطاع ـ حتى فى شبابه ـ مصيره الانعزالى .

ولما كانت هاتان السيدتان ، قد نزلتا لتناول العشاء ، فقد سمع صوتًا من أصوات طفولته ، هو صوت الملاعق وهى تلمس الأطباق ، ولكن حفيف الأوراق فى الظلام ، وصوت الصراصير ، ونقيق ضفدعة مبتهجة بالمطر ، كان أقرب إلى أذنه وإلى قلبه . ثم صعدت السيدتان وقالتا : «مؤكد أنك ضعيف للغاية . . » فقال : «إنى غير قادر على أن أقف على قدمى » .

ولكنهما كانتا فى الواقع مبتهجتين لضعفه هذا ؛ لأن الامتناع عن الأكل كان علاجاً بالنسبة له ، واستطردتا قائلتين : « حقًّا إنك لتشعر بالحاجة إلى أن تأخذ . . » .

« وكان هذا الضعف يساعده على أن يسترجع طفولته ، وكانت السيدتان تتحدثان بصوت خافت ، فسمع الطبيب اسماً ، وسألهما : « ألم تكن هذه السيدة من آل ماليشيك ؟ » .

ـ أو تصغى إلينا ؟ . . كنت أظن أنك نائم . . كلا . . إن سلفتها من آل ماليشيك . . أما هى فهى من عائلة مارتان .

ولكن الطبيب كان نائماً حينما حضر آل باسك ، فلم يفتح عينيه إلا بعد أن سمع بابى غرفتيهما تغلقان . ثم طوت أمه أشغال الصوف ونهضت متثاقلة وقبلته على جبهته وعلى عينيه وفى رقبته وقالت : « حرارتك ليست مرتفعة » .

وظل وحيداً مع السيدة «كوريج» التى قالت : «ركب «ريمون» مرة أخرى الترام إلى «بوردو» ، ويعلم الله فى أية ساعة سيعود إلينا . كانت ملامحه مضطربة هذا المساء لدرجة تثير الفزع ! وحينما ينفق المال الذى حصل عليه بمناسبة الأعياد سيبدأ فى الاستدانة ، ما لم يكن قد بدأها فعلاً» .

قال الطبيب بصوت هامس : « إنه ابننا الصغير . . وها هو ذا قد بلغ التاسعة عشرة من عمره . . » وارتجف حينما تذكر شوارع مدينة بوردو وهى خالية من المارة أثناء الليل . وتراءت له صورة هذا البحار المستلقى على الأرض الذى تعثر فيه ذات ليلة حينما كان وجهه وخده ملطخين بالنبيذ والدم . . وسمع وقع أقدام تجر أذيالها فى الطابق الأعلى ، ثم نبح كلب نباحاً شديداً من ناحية المطبخ . . واسترقت السيدة «كوريج» السمع وقالت : « إنى أسمع وقع أقدام شخص . . ليس «ريمون» بالقطع ، وإلا لما نبح الكلب » .

وكان شخص ما يتقدم نحو المنزل ، بدون أن يبدى أى حذر أو اكتراث ، بل إنه على العكس من ذلك ، كان يحرص على ألاَّ يخفى نفسه ، واهتز مصراع النافذة ، وأطلت السيدة «كوريج» وقالت : « من هناك ؟ » .

ـ أريد الطبيب لأمر عاجل .

ـ تعلم أن الطبيب لايغادر بيته أثناء الليل ، اذهب إلى القرية عند الطبيب «لارو» .

ألح الرجل الذى كان يمسك بيده مصباحاً ، وصاح الطبيب الذى كان يغلب عليه النعاس ، بزوجته قائلا : « أخبريه أنه لاجدوى من إصراره ، إذ ليس هناك أى داع لأن يسكن المرء الريف بوجه خاص ، حتى لا نتعرض للقلق أثناء الليل » . قالت : هذا محال يا سيدى . . زوجى لايقوم إلا بالكشف فقط . . ومن ناحية أخرى فإنه يعهد للطبيب «لارو» بالحالات . .

لكن الأمر يتعلق بإحدى عميلاته ، إنها جارتكم ، وسوف يحضر إذا عرف اسمها ، السيدة «ماريا كروس» التى وقعت على رأسها .

ـ «ماريا كروس» ! لماذا تريد أن يُقلق نفسه من أجلها هى بدلاً من أى شخص آخر ؟

ولكن الطبيب نهض من فراشه ، حينما سمع هذا الاسم وأزاح زوجته قليلاً من طريقه ، وأطل من النافذة وقال :

ـ أهو أنت يا «مارو» ؟ إنى لم أتعرف على صوتك . . ماذا حدث للسيدة؟

ـ وقعت يا سيدى على رأسها ، إنها تهذى وتنادى السيد الطبيب .

ـ خمس دقائق ، أمهلنى خمس دقائق أرتدى فيها ملابسى .

أغلق الطبيب النافذة ، وأخذ يبحث عن ملابسه ، وقالت زوجته : «لن تذهب إليها ! » .

لم يرد الطبيب عليها ، بل أخذ يتساءل فى صوت خافت قائلاً : «أين جواربى ؟ » .

كانت زوجته تعترض على هذا السلوك ، فقد أعلن منذ لحظة أنه لن يغادر الفراش بأى ثمن أثناء الليل ! لِمَ إذن هذا التغيير ؟ إنه غير قادر على الوقوف . وقد يُصاب بالإغماء من شدة الضعف ، فقال لها : «الأمر يخص إحدى عميلاتى . إنك تدركين عدم وجود مجال للتردد» .

أجابته فى سخرية : « نعم ، أدرك تماماً ، وقد احتجت إلى بعض الوقت . . والآن أدرك تماماً » .

حتى هذه اللحظة لم تكن السيدة «كوريج» تشك فى سلوك زوجها ، ولم تسع إلا إلى تجريحه ، أما هو فلم يكن يتخذ نحوها موقف الحَذر ، إذ كان واثقاً من انصرافه . حقًّا إنه بعد هذا الحب الذى عذبه لم ير شيئاً يدعو إلى الإدانة أو يدعو إلى الإيضاح ، فى الارتياع الحنون الذى ألم به هذا المساء ، ولم يخطر له أن زوجته لاتستطيع أن تقارن مثله الحالات القديمة ، بحالة حبه الراهنة لماريا كروس ، إنه لم يكن يتجاسر على إظهار قلقه كما أظهره فى ذلك المساء قبل شهرين . إن حركتنا الغريزية تخفى الحب حينما تشتد حرقته ، ولكن حينما ننصرف عنه ، ونبتعد من نشوته لنتقبل جوعاً وعطشاً أبديين ، يخطر لنا أنه ليس هناك أى داع لأن نبذل جهدًا نفر به من مظهرنا ، فقال :

« كلا ، يا لوسى المسكينة ، إن كل ما سبق بعيد منى الآن . . لقد انتهى كل شىء . نعم ، إنى متمسك للغاية بهذه البائسة . ولكن ليست هناك أية صلة » .

استند الطبيب إلى السرير ، وهمس قائلاً : « حقًّا ، إنى لم أذق اليوم طعامًا » ، وعندئذ طلب من زوجته أن تعد له قدحًا من الشوكولاته على موقد الكحول ، فأجابته قائلة : هل تعتقد أنى سأجد شيئاً من اللبن فى هذا

الوقت ؟ من المؤكد أنه ليس بالمطبخ خبزٌ ، ولكن حينما تنتهى من معالجة هذه المرأة ، سوف نعد لك طعام العشاء . . إنه ثمن بسيط لذهابك إليها .

ـ كم أنت غبية ، يا صديقتى المسكينة ! لو أنك تعرفين . . أمسكت بيده وقالت له ، وقد اقتربت منه :

ـ قلت منذ لحظة : كل هذا ، انتهى أمره . . كل هذا بعيد عنى . . أفهم من هذا أنه قد حدث شىء بينكما ؟ ماذا ؟ من حقى أن أعرف . . إنى لن ألومك على شىء ، ولكنى أريد أن أعرف .

واضطر الطبيب إلى أن يحاول مرتين لبس حذائه وهو يلهث ، وكان يزمجر ويقول : « كنت أتحدث بصفة عامة . . ولم يكن حديثى يتعلق بماريا كروس، هيا يا «لوسى» ، ألم تنظرى إلىّ ؟» . ولكنّ «لوسى» كانت تسترجع فى مخيلتها الأشهر الأخيرة المنصرمة . . آه . . إنها حصلت أخيراً على مفتاح السر ! إن كل شىء يتضح الآن . إن كل شىء يبدو واضحاً . . وصاحت قائلة : « يا بول ، لا تذهب إلى هذه السيدة ، إنى لم يسبق أن طلبت منك أي شىء . إنك تستطيع أن توافقنى على هذا » .

كان الطبيب يعترض فى رفق قائلاً : « الأمر لا يتعلق بشخصه ، بل الواجب عليه الذهاب إلى عميل مريض ، قد يكون على حافة الموت . . فالسقوط على الرأس قد يسبب الموت» . وأضاف قائلاً : « لو أنكِ منعتنى من الذهاب فستكونين مسئولة عن موتها » .

ابتعدت عنه «لوسى» لعجزها عن الإجابة ، وأخذت تقول فى تلعثم ، حينما هم بالانصراف : « قد تكون مؤامرة مدبرة من قبل ، وقد تكون هذه

هى كلمة السر » . ثم تذكرت أن الطبيب لم يتناول أى طعام منذ اليوم السابق . وكانت تنصت وهى جالسة على المقعد إلى همس الأصوات فى الحديقة .

ـ نعم ، سقطت من النافذة . . ولا نستطيع أن نفسر هذا إلاَّ على أنه حادث ، إنها لم تكن لتختار نافذة حجرة الاستقبال فى الدور الأرضى ، لو أنها أرادت القضاء على نفسها . . نعم ، إنها تهذى . . إنها تشكو من آلام فى رأسها ، ولا تتذكر شيئاً .

وسمعت السيدة «كوريج» أن زوجها يأمر الرجل بالذهاب إلى القرية لإحضار بعض الثلج ، فقد يعثر عليه إما فى الفندق أو عند القصَّاب ، وكان عليه أن يذهب أيضاً إلى الصيدلى لإحضار شراب البرومير . كما سمعته وهو يقول : « سأذهب عن طريق غابة «بورج» ، سيكون الطريق أقصر مما لو قطعت الطريق الآخر بالقرية » .

ـ لست فى حاجة إلى المصباح ، فإننا نرى فى ضوء القمر كما لو كنا فى أثناء النهار .

وما كاد الطبيب يعبر باب المطبخ الصغير ، حتى سمع صوتاً لاهثًا يناديه باسمه ، تعرف على زوجته وهى مرتدية «روب دى شمبر» وقد صففت شعرها فى شكل ضفيرة استعداداً للنوم ، كانت تمد إليه قطعة من الخبز الجاف ، وقليلاً من الشيوكولاتة ، وقد أنهكها العَدْو ، وجعلها غير قادرة على الكلام .

اخترق الطبيب غابة « بورج» حيث كان القمر يرسل ضوءه على البقعة التى خلت من الأشجار ، بدون أن يستطيع بنوره الباعث أن يخترق

الأوراق، ولكن القمر كان ينشر ضوءه على الطريق ، ويمتد فيه كما يمتد فى فراش خُفِرَ خصيصاً لضوئه . وكان الطبيب يجد فى ذلك الخبز وتلك الشكولاتة ، طعم وجبة العصر التى كان يتناولها فى القسم الداخلى بالمدرسة، كان يجد فيها طعم سعادته فى الفجر حينما كان يذهب إلى الصيد، وحينما كانت قدماه مبتلتين بالندى ، وكان يبلغ حين ذاك السابعة عشرة من عمره . وكانت الصدمة قد أصابته بشىء من الذهول ، بدأ يفيق منه ويشعر بالألم . . وأخذ يتساءل قائلاً : « لو كانت «ماريا» ستموت فَمن هو الذى أرادت أن تموت من أجله ؟ ولكن هل سمعت إلى هذا فعلاً؟ إنها لا تذكر شيئاً . آه ! ما أسخف هؤلاء الذين أصابتهم صدمة ، ولا يذكرون شيئاً أبداً ، إنهم يلفُّون بالظلمات أَهَمَّ لحظة فى مصيرهم ! ولكن لا ينبغى استجوابها . . حتى يعمل عقلها أقل قدر ممكن من الجهد . . تذكر أنك لست إلا طبيباً استدعى إلى فراشها . كلا ، ليس هذا انتحاراً . . حينما يريد الإنسان أن يموت ، فإنه لا يختار نافذة فى الدور الأرضى . . إنها على ما أظن لاتتناول شيئاً من المكيفات . . صحيح أن غرفتها كانت تشتم منها رائحة الكحول ذات مساء . . ولكنها كانت تشكو من الصداع » .

وهَبَّتْ عاصفة ثانية ، راحت تزمجر من وراء قلقه الخانق ، عند حدود ضميره الواعى ، كانت هذه العاصفة تنبىء عن انفجارها عندما يحين لقاؤها، وأخذ يقول فى نفسه : «مسكينة لوسى ، إنها تعانى من الغيرة ! إنها يائسة ! ولكن من الأفضل أن أفكر فى هذا الأمر فيما بعد . ها قد وصلت . . حقًّا ، إن هذا المنظر التافه يشبه أحد مناظر أوبرا فوتر . . إنى لا أسمع أحدًا يصيح من الألم » .

كان الباب الرئيسى مفتوحاً قليلاً ، اتجه الطبيب كما هى عادته نحو

حجرة الصالون الخالية ، ثم عاد أدراجه وصعد إلى الطابق الأعلى ، فتحت «جوستين» باب الحجرة ، فاقترب من السرير حيث كانت «ماريا» تزيح بيدها منشفة تغطى جبهتها ، تزيحها وهى تئن ، لم ير هذا الجسد تلتصق به ملاءة السرير ، ذلك الجسد الذى كان قد نزع عنه من قبل ثيابه فى مخيلته . ولم ير أيضاً شعورها المحلولة ، ولا تلك الذراع المكشوفة حتى الإبط ، ولكن كل ما كان يهمه أن تتعرف «ماريا» عليه ، وأن يكون هذيانها متقطعاً ، وكانت تكرر قولها : « ماذا حدث أيها الطبيب ؟ ما الذى جرى ؟ » وسجل فى ذهنه حالة فقد الذاكرة . والآن وقد انحنى على هذا الصدر العارى ، حيث كان يرتعش فيما مضى ، عندما يتخيله مستقرًّا وراء ما يكتنفه من غلالات ، ويسمع دقات قلبها . . ثم يلمس بأصبع خفيفة جنبها المجروح، ورسم حدود الجرح وقال : « أتشعرين بألم فى هذا المكان ؟ وهنا ؟ وهنا ؟ » . . كانت تتألم أيضاً من خصرها ، فطوى الملاءة بكل حذَر ولم يكشف إلا على المكان الصغير الذى أصابته الكدمات ، ثم أعاد الغطاء إلى مكانه . بعد ذلك أخذ يعد دقات القلب وعينه على ساعته . . إن هذا الجسد قد عُهد به إليه ليشفيه من مرض ، لا ليمتلكه . وكانت عيناه تعلمان تماماً أن الأمر لم يعد بالنسبة إليهما مكاناً للمتعة ، ولكن للملاحظة ، وصار ينظر إلى هذا الجسد بكل ما لديه من شهوة ، وبكل ما أُوتى من ذكاء ، وكان عقله الصافى يسد الطريق على هذا الحب التعس .

كانت «ماريا» تئن وتقول «كم أتألم!» ، ثم تبعد الكمادة وتطلب كمادة جديدة تغمسها الخادم فى إناء ماء ساخن ، وكانت تصيح فى الطبيب قائلة : «أسرع قليلاً ، هل أنت محتاج إلى ساعة من الزمن لتنفيذ أوامرى؟!» .

كان الطبيب معنيًّا تماماً بكل هذه المظاهر التى لحظها عند آخرين تعرضوا لمثل هذا الحادث . إن هذا الجسد المستلقى أمامه ، هذا الجسد الذى انبعث منه أحلامه ، ورؤاه المتحسرة وسبحات فكره لم يعد يثير فى نفسه فضولاً . . إن السيدة المريضة راحت تتحدث بدون هذيان ، ولكن فى شىء من الانطلاق والسرعة . وأعجب الطبيب بماريا هذه التى كانت تعانى من رداءة النطق ، والتى كانت اعتادت أن تبحث عن كلماتها التي لا تجدها دائماً ، هاهى ذى قد أصبحت فجأة فصيحة التعبير ، لاتجد أية صعوبة فى العثور على أدق التعبيرات ، بل وعلى الألفاظ العلمية ، ساءل الطبيب نفسه عن هذا الغموض الذى يجعل المخ يتضاعف عشرات المرات بمجرد ضربة واحدة !

وكانت «ماريا» تقول : «كلا ، أيها الطبيب ، كلا ، إنى لم أسعَ إلى الموت ، بل إنى أمنعك من الاعتقاد بأن هذه الرغبة قد جالت فى خاطرى ، إنى لا أذكر شيئاً ، ولكن من المؤكد أنى لم أسع إلى الموت ، بل إلى النوم . إنى لا أتوق أبدًا إلاَّ إلى الراحة ، لو افتخر شخص ما أمامك بأنه دفعنى إلى الموت ، فإنى أمنعك من أن تصدق قوله هذا ، أتدرك ماذا أعنى ؟ إنى أمنعك .

ـ نعم يا صديقتى . . إنى أقسم لكِ ، أن أحداً لن يفخر بهذا أمامى . . انهضى قليلاً ، وابتلعى هذا . . إنه بروميد . . هذا سيهدئك إلى حد ما .

ـ لست فى حاجة إليه الآن ، إنى أتألم ، ولكنى هادئة . أبْعِدْ هذا الضوء إنى سكبت قليلاً من الدواء على الملاءة . ماذا بوسعى أن أفعل ؟ سأسكب مرة أخرى من شرابك هذا ، إذا راق لى ذلك .

وحينما سألها الطبيب عمَّا إذا كان الألم قد هدأ قليلاً ، أجابت : أنها كانت تتألم إلى أقصى حد ، ولكن جرحها ليس هو السبب الوحيد فى ذلك . ورفعت صوتها من جديد وهى تكثر من القول ، وهذا ما دفع «جوستين» إلى أن تقول «إن سيدتى تتحدث كما لو كانت تقرأ كتاباً» . وطلب منها الطبيب أن تذهب لتستريح ، أما هو فسيسهر على راحة «ماريا» بمفرده حتى الصباح .

وقالت «ماريا» : « هل هناك منقذ سوى النوم ، أيها الطبيب ، أجب عن سؤالى هذا ؟ إن كل شىء يبدو لى واضحاً الآن ! لقد أصبحت أفهم مالم أكن أفهمه . إن هذه المخلوقات التى تتخيل أننا نحبها ، وهذه الغراميات التى انتهت بصورة بائسة ، إنى أدرك حقيقتها الآن . . ودفعت الكمادة التى بردت بيدها ، وظل شعرها المبتل لاصقاً بجبهتها كأنه ابتل بفعل العرق ، إننا لا نستطيع أن نصف هذا بأنه مجموعة من الغراميات ، بل إنه غرام واحد كامن فى داخل أنفسنا ، إننا نلتقط ونجمع كل ما نستطيع التقاطه ، مما قد يتفق مع هذا الغرام من مصادفات اللقاء والأعين والشفاه . يا له من جنون نعانيه حينما نأمل فى بلوغ هذا الهدف . . هل خطر لك أن ليس هناك طريق آخر بيننا وبين الآخرين إلا طريق اللمس والعناق . . أى طريق الشهوة ؟! ومع ذلك فإننا نعلم جيدًا إلى أين يقود هذا الطريق ، ولماذا شق لنا . إنه شُق لنا لاستمرار النوع كما تقول أيها الطبيب ، ولهذا فقط ، نعم ، هل تدرك أننا نسلك الطريق الوحيد الذى فى استطاعتنا أن نسلكه؟ ولكن لم يمهد قط حتى نصل إلى ما نسعى إليه ؟

وكان الطبيب فى بادىء الأمر يستمع إلى هذا الخطاب بأذن غير صاغية ، ولم يحاول أن يدرك ماذا كانت تعنى من ورائه ، غير أنه كان يعجب مما تقصد

إليه بهذه الفصاحة المبهمة ، كما لو أن هذه الصدمة الطبيعية كانت كافية لأن توقظ إلى حد ما أفكاراً خاملة فى قرارة نفسها .

ـ أيها الطبيب ، ينبغى علينا أن نحب المتعة ، لقد كانت صديقتى «جابى» تقول لى : « كلا ، يا صغيرتى «ماريا» ، إنها الشىء الوحيد فى العالم الذى لم يخيِّبْ ظنى قط . هل تتصورين هذا ؟ واأسفاه ! ليست المتعة فى متناول الجميع . . لست فى مستوى المتعة . . ومع ذلك فإن المتعة هى التى تجعلنا ننسى الهدف الذى نسعى إليه ، وتصبح هى ذات الهدف . . حقًّا ، إنه من اليسير أن نقول : « دع العقل جانباً» .

وقال الطبيب : « إنه من الغريب أن تطبق «ماريا» على المتعة مبدأ الفيلسوف «باسكال» الذى يتعلق بالإيمان . وقدم لها ملعقة من الشراب ، حتى تهدأ وتستريح . ولكنها دفعت الملعقة بيدها ، وسكبتها على فراشها مرة أخرى وصاحت : « كلا ، كلا ، لا أريد البرومير . . أنا حرة فى أن ألقيها على فراشى ، ولست أنت الذى سيمنعنى من ذلك » . ثم قالت بدون تمهيد : « أحسست دائماً أن بينى وبين الذين أردت أن أمتلكهم ، مستنقعاً كريه الرائحة ، لم يكونوا يدركون قصدى . . كانوا يعتقدون أنى ناديتهم لكى ننغمس فيه معاً .

وكانت شفتاها تتحركان ، فتخيل الطبيب أنها تهمس بأسماء وبألقاب ، فانحنى عليها بلهفة ، ولكنه لم يسمع الاسم الذى كان كفيلاً بأن يثير اضطرابه . ونسى هذه المريضة لبضع ثوان ، ولم ير أمامه إلا المرأة الكاذبة ، فأخذ يؤنبها قائلاً :

ـ إنكِ كغيركِ من النساء ، هيا اعترفى بهذا ! كغيرك من النساء ، لا

تبحثين إلا عن شيء واحد . . المتعة . . نحن جميعاً لا نبحث إلا عن هذا .

رفعت «ماريا» ذراعيها الجميلتين ، وأخفت وجهها ، وأنَّتْ طويلاً . وهمس الطبيب قائلاً : « ماذا فعلت ؟ حقًّا ، أنا مجنون ! » .

وجدد الكلمات ، وملأ ملعقة أخرى بالشراب ، وأمسك الرأس المتألم برفق . وأخيراً قبلت «ماريا» أن تشرب الدواء ، وقالت بعد فترة من الصمت : « نعم ، أنا أيضاً ، أنا أيضاً ، ولكن أيها الطبيب ، إننا عندما نرى البرق ، نسمع الصواعق فى نفس اللحظة ، وهكذا تختلط فى نفسى المتعة والاشمئزاز ، كما هى حال البرق والصاعقة ، إنهما يحدثان فى آن واحد ، وليس هناك أى فاصل زمنى بين المتعة والاشمئزاز .

صارت أكثر هدوءًا ، ولم تعد تتحدث ، فجلس الطبيب على أحد المقاعد ، ساهرًا على علاجها وفى رأسه أفكار مبهمة متضاربة ، كان يعتقد أن «ماريا» نعست ، لكن صوتها ارتفع فجأة ، حالماً هادئاً وهى تقول :

ـ إنسان ، قد نصل إليه ، ونمتلكه ، لكن حب طريق الجسد ، إنسان قد نكون نحن ملكاً له .

أبعدت «ماريا» قطعة القماش المبللة عن جبهتها ، بيد غير مستقرة ، ثم ساد صمت ليل يوشك على الانتهاء . . إنها ساعة النوم ، الأشد عمقاً ، فالنجوم غيرت مكانها ولم نعد نتعرف عليها .

كان نبضها هادئاً ، فنامت نوم الطفل ، خفيف التنفس ، وصعد الدم إلى وجنتيها فأضاءهما . لم تعد جسداً يتعذب .

قال الطبيب فى نفسه: « هل ينبغى أن يسهر جسدك المعذب طويلاً بالقرب من هذا الجسد الناعس ؟» .

خطر له هذا الخاطر : « إن سعادة الجسد هى الجنة المفتوحة أبوابها للسذج . من ذا الذى قال إن الحب هو لذة الفقير ؟ كان من الممكن أن أكون هذا الرجل الذى يستلقى بالقرب من هذه المرأة كل مساء بعد أن ينهى يومه . ولكن لم تكن «ماريا» هى تلك المرأة بعينها . . إذن لجعلت منها أمًّا أكثر من مرة . وكان جسمها قد حمل الآثار التى تبقى على الأشياء التى استخدمت واستهلكت كل يوم فى أعمال تافهة . . وحيئذ لانشعر بالرغبة ، بل بعادات سيئة . . ها قد لاح الفجر . لن تتلكأ الخادم فى الحضور .

خشى الطبيب أن يكون غير قادر على العودة إلى داره ، أخذ يقنع نفسه بأن الجوع هو الذى ينهك قواه ، ومع ذلك خشى قلبه ، وأخذ يعد ضرباته ، لعل القلق يحرره من كآبته الغرامية ، ولكنه شعر بشعور خفى ، شعر أن مصير « ماريا » ينفصل بصورة غير محسوسة عن مصير حياته ، انفضت عرا الحبال التى كانت تربطه بها ، ورُفعت المراسى ، وتحركت السفينة بدون أن يشعر بتحركها ، وبعد ساعة لن تزيد على أن تكون بقعة فى عرض البحر ، وكثيراً ما كان الطبيب يلاحظ أن الحياة تجهل التمهيد للأمور. ومنذ الصباح لاحظ أن الأشياء التى كانت موضع حنانه قد اختفت جميعها فجأة ، وجرفتها عاطفة أخرى ، وبعبارة ثانية : انتقلت إلى مكان آخر ، وغادرت المدينة ، وكفت عن الكتابة .

ليس الموت هو الذي يحرمنا ممن نحبهم ؛ بل على عكس هذا ، فإنه يحتفظ بهم لنا ويثبتهم فى شبابهم المحبوب . . إن الموت هو ملح حُبنا ، والحياة هى التى تذيب الحب ، غدًا سيكون الطبيب مستلقياً على فراش

المرض ، وبجواره زوجته ، وغدًا سيشرف «روبنسون» على فتاته «ماريا» ويرسلها إلى مدينة «لوشان» لتفيد من مياهها المعدنية ؛ لأن أعز صديق له قد استقر فى هذه المدينة ، ويتحتم عليه أن يعاونه على تكوين مجموعة من العملاء . وفى الخريف سيقرر السيد «لاروسيل» الذى كثيرًا ما تدفعه أعماله إلى الذهاب إلى باريس أن يستأجر بالقرب من الغابة شقة ، ويعرض على «ماريا» العيش فيها ؛ لأنها ستقول إنها تفضل الموت على العودة إلى منزل حى «تالانس» ذى السجاجيد الممزقة ، والستائر التى كثرت فيها الثقوب ، حتى لاتعانى مرة أخرى من شتائم وسباب أهل «بوردو» .

ودخلت الخادم الغرفة ، وسواء كان الطبيب قد أحس أنه ضعيف إلى درجة أنه لم يعد قادراً على شغل نفسه إلا بهذا الضعف ، أو كان قد أحس فى هذه اللحظة بالقوة والحيوية ، فإنه لم يسمع أى صوت من داخل نفسه ينذره بالنظر طويلاً إلى «ماريا» وهى نائمة . لم يكتب له أن يعود إلى منزلها ، ومع ذلك قال للخادم : « سأعود هذا المساء لأعطيها ملعقة من البروميز إذا تعبت » . ولما كان يترنح فقد اضطر إلى الاستناد إلى الأثاث . وكانت هذه هى المرة الوحيدة التى لم يلتفت فيها إلى الوراء وهو يفترق عن «ماريا» .

وكان يأمل أن يُنشط نسيم الساعة السادسة المنعش دمه ، ولكنه اضطر إلى التوقف فى أسفل الدَّرَج وأسنانه تصطك . وكانت تمتد أمامه هذه الحديقة التى كثيرًا ما عبرها فى بضع ثوان حينما كان ينطلق فى لهفة نحو حبه، أما الآن فقد راح ينظر إلى الباب البعيد وقال فى نفسه : ليس لدىَّ القوة على الوصول إليه . وصار يجر قدميه فى الضباب ، وخطر له أن يعود أدراجه ، حقًّا إنه لن يستطيع أبدًا مواصلة السير حتى الكنيسة ، حيث من الجائز أن يجد هناك العون من أى إنسان ، وأخيراً وصل إلى الباب ، ورأى

من خلف السياج عربة ، إنها عربته . وتعرف من خلال الزجاج المغلق على وجه جامد هو أشبه بوجه إنسان ميت ، إنه وجه «لوسى كوريج» . فيفتح الباب ويرتمى على زوجته ويتكىء برأسه على كتفها ويفقد وعيه .

قال له زوجته : « لاتنفعل ، إن «روبنسون» يهتم بكل شىء فى المعمل، ويشرف على مرضاك . إنه فى هذه اللحظة فى «تالانس » فى مكان تعرفه . . لاتتكلم » .

ومن أعماق هذا التعب المضنى ، أخذ الطبيب يراقب قلق السيدتين ، زوجته وأمه ، ويفطن إلى همسات تدور من وراء الباب ، فهو لايشك فى أنه مريض حقًّا ، ولكنه لا يثق فى ملاحظاتهما مطلقاً . وقال فى نفسه : «لاتزيد على كونها نزلة برد . . ولكنك لم تكن فى حاجة إلى ذلك ، وأنت تعانى من فقر دم . . وطلب الطبيب رؤية ابنه «ريمون» ، فأخبرتاه أنه خارج المنزل ، وقالتا : «حضر أثناء نومك ولم يشأ أن يوقظك » . والحقيقة أنه منذ ثلاثة أيام كان الملازم «باسك» يبحث يائساً عن «ريمون» فى مدينة «بوردو» ، ولم يجد إلا أن يعهد بمهمة البحث عنه إلى شرطى سرى خاص وقال له : «احرص على ألاَّ يعرف أحد بذلك » .

وبعد ستة أيام دخل «ريمون» ذات مرة حجرة الطعام ، على حين كان الجميع يجلسون حول المائدة ، وكان هزيلاً شاحب الوجه ، يحمل تحت عينه اليمنى آثار لكمة . راح يأكل بشراهة ، حتى الفتيات الصغيرات لم يجرؤن على سؤاله ، غير أن «ريمون» سأل جدته عن حالة والده فقالت له : «مصاب بنزلة برد . . ليس الأمر بخطير ؛ ولكننا كنا قلقين بسبب حالة قلبه، ويرى «روبنسون» أنه لاينبغى تركه وحيدًا ؛ ولذلك فلا مفر من السهر عليه .

وأعلن «ريمون» أن دوره فى السهر سيكون الليلة . ولما كان «باسك» يخاطر بقوله : «من الأفضل لك أن تذهب للنوم ، إنك لو نظرت إلى وجهك . . » واعترض «ريمون» ، فهو لايشعر بأى تعب ، فقد نام نوماً هادئاً طوال مدة غيابه ، وأضاف : «تعلم جيدًا أن الأَسِرَّة لاتنقص فى مدينة بوردو » .

كان الرد بلهجة حملت « باسك» على أن يطأطىء رأسه . وعندما فتح الطبيب عينيه بعد ذلك بمدة رأى «ريمون» واقفاً ، فجذبه إليه وهمس فى أذنه قائلاً : « رائحة المسك تنبعث منك ، لست فى حاجة إليك ! اذهب إلى فراشك » . وفى منتصف الليل أفاق الطبيب من نعاسه بسبب حركات ذهاب وإياب « ريمون » فى الحجرة . كان الفتى يترقب فتح النافذة على مصراعيها ، وأخذ يطل بجسده إلى الخارج ، ثم زمجر قائلا : « الليل خانق . . » وهنا دخلت بعض الفراشات الحجرة ، وبعد أن خلع «ريمون» سترته والصديرى والياقة ، عاد وجلس على المقعد ، وسمع الطبيب بعد ثوانٍ تنفسًا هادئاً ، فاستيقظ عند الفجر ، قبل الشخص المعنى بالسهر عليه . نظر فى ذهول إلى ذلك الرأس المتدلى الخالى من الأنفاس ، كما لو كان النوم قد قتله . . وكان كم قميصه ممزقاً ، من فوق ذراع مفتولة العضلات ، تحاكى لون التبغ ، ويظهر عليها وشم قبيح ، شبيه بالوشم الذى يجيد البحارة رسمه ، أما تلك الكدمات التى كانت تحت عينه ، فقد كانت أثرًا لإحدى اللكمات ، ولكن كدمات أخرى فوق رقبته وكتفه وضدره ، كانت قد اتخذت شكل الشفاه .



الفصل الحادى عشر

لم يكف باب الحانة الصغيرة عن الدوران ، وكانت دائرة الموائد قد أخذت تضيق حول الراقصين ، وتحت أقدامهم ، وكانت السجادة المصنوعة من الجلد ، تنكمش كما كان الحال بالنسبة لجلد الغزال ، كانت حدود هذا الجلد ضيقة لدرجة جعلت الراقصين مشدودى القامة ، ثابتين فى أماكنهم ، وكانت النساء الجالسات على المقاعد يضحكن ، حينما يرون على أذرعتهن - التى يلتصق بعضها ببعض التصاقاً وثيقاً - آثاراً قرمزية تركتها مداعبات حدثت عفوًا ، وكانت المرأة التى تدعى «جلاديس» وصديقها يلتفان بالفراء .

وقال الصديق لزملائه الجالسين : «أفهم من هذا أنكم لن تحضروا معنا؟» .

فأجاب «لاروسيل» بأنهما يرحلان فى الوقت الذى بدأ الجو فيه يكون مسليًا ، وذهب ليجلس إلى مقعد عال لا مسند له ، بعد أن أدخل يديه فى جيبيه وراح يهز كتفيه ، يسبقه بطنه الكبير . وأضحك خادم البار وبعض الشبان الجالسين حينما تباهى بأنه يملك سر إعداد مشروب ساحر .

واحتست «ماريا» التى ظلت وحدها جالسة إلى إحدى الموائد جرعة من الشمبانيا ، ثم وضعت كأسها ، وكانت تبتسم ، بدون سبب واضح ، غير

مكترثة بوجود «ريمون» ، وهى تحس فى قرارة نفسها أنها محصنة ضده ، وأنها بعيدة عنه بما تملكه من خبرة بالحياة خلال سبعة عشر عاماً ، وكان «ريمون» مثل الغطاس الطائش الذى يخرج من أعماق السنين الميتة ويطفو على السطح ، ومع ذلك فلم تكن تملك من هذا الماضى المبهم سوى طريق رفيع ، سرعان ما اجتازته بين ظلمات كثيفة ، وكان الشاب قد سلك سبيله ككلب خافض الرأس ، متجاهلاً كل الذين اعترضوا سبيله . . ولكن لم يعد هناك وقت للأحلام . نظرت إليه «ماريا» نظرة خاطفة من خلال دخان السجائر والراقصين ، وراحت تتساءل : لماذا لم يبتسم لها ، وكان «ريمون» يرتاع من أن تتكون تحت نظرات هذه المرأة صورته كصبى ، بعد كل هذه السنوات التى مضت ، صورة الصبى الخجول المرتبك . وكان «كوريج» هذا المشهور بمغامراته البريئة يرتعد فى ذلك الماء ؛ لأن «ماريا» تستطيع أن تنهض بين لحظة وأخرى وتختفى عن الأنظار . أليس عليه أن يقوم بمناورة ما ؟ إنه يخضع لهذه الحتمية التى تحكم علينا باختيار مطلق لا يتغير أبدًا لبعض العناصر التى تختارها المرأة ، وبذلك تحكم على نفسها بالجهل بالعناصر الأخرى إلى الأبد ، ليس بوسعه أن يفعل شيئاً ضد قواعد هذه الكيمياء . إن كل شخص يحتك به يستخلص منا هذا الجزء الذى لايتغير ، والذى كنا نود أن نخفيه فى أغلب الأحيان . إننا نتألم حينما نرى المحبوب وهو تحت بصرنا بالصورة التى اتخذها عنا ، ويمحو بذلك أعز فضائلنا ، ويكشف ما فينا من ضعف وخزى ورذيلة . . إنه يفرض علينا الصدمة التى اتخذها عنا ، ويرغمنا على أن نتطابق مع فكرته المحدودة طالما نظر إلينا ، وإن هذا الحبيب لم يعرف أبدًا أن فضائلنا تتفجر ، ومواهبنا تتألق ، وقوتنا

تبدو خارقة للعادة ، وأن وجهنا يشبه وجه ملاك فى نظر محبوب آخر لانكترث بما يكنه لنا من عاطفة .

وحين عاد «كوريج» فى نظر «ماريا» ذلك الصبى الخجول ، لم يعد يتمنى الانتقام ، بل أصبحت أمنيته أن تعرف سيرته الغرامية ، والانتصارات التى حصل عليها إثر طرده من «تالانس» ، فقد خطفته سيدة أمريكية وأقامت معه ستة أشهر فى فندق «ركس» على حين كانت عائلته تعتقد أنه فى باريس يعد نفسه للالتحاق بمدرسة السنترال ، ولكن هذا هو بالضبط مالم يستطع التحدث عنه ؛ لأنه يكشف لماريا اختلافه عما كان عليه فى غرفة الصالون التى يمتزج فيها الترف بالفقر ، تلك الغرفة المليئة بالستائر ، حيث كانت تقول له وقد أشاحت بوجهها عنه : « أنا فى حاجة لأكون بمفردى يا «ريمون» ، افهم قولى يا «ريمون» ، ينبغى أن أكون بمفردى » .

كانت ساعة انصراف معظم الناس قد دنت ، ولم يبق إلا رواد هذه الحانة الصغيرة ، كانوا قد تخلصوا من آلامهم اليومية حينما تخلصوا من معاطفهم وكانت هذه الزوجة الشابة الملتفة بردائها الأحمر تضطرب من شدة الفرح ، وقد مدت ذراعيها كما لو كانتا جناحين ، وكان الرجل يمسك بخصرها . ما أسعد الاثنين ! وما أسعد هذين المخلوقين وقد اتحدا محلقين فى هذا الجو الراقص ! وكان هناك رجل أمريكى يحمل فوق كتفيه رأس صبى صغير ، كان يقوم بمفرده ببعض خطوات الرقص يمليها عليه مجهول ، وربما تكون هذه الخطوات مبتذلة ، لكنَّ الحاضرين الآن كانوا يصفقون له ، فقد كان يحييهم تحية ساذجة ، وعلى شفتيه ابتسامة طفل سعيد .

عاد «فكتور لاروسيل» إلى الجلوس أمام «ماريا» ، وكان يلتفت وراءه أحياناً لكى يمعن النظر إلى «ريمون» ، وكان يبدو وكأنه يتوسل للحصول

على تحية بوجهه العريض ذى اللون الذى يشبه لون النبيذ الأحمر ، ما عدا تلك الجيوب التى كانت موجودة تحت عينيه ، فقد كانت سوداء . كانت «ماريا» تتوسل إليه بدون جدوى أن ينظر إلى جهة أخرى ، فإن الشىء الذى كان السيد «لاروسيل» لايستطيع أن يتحمله فى باريس هو ذلك العدد من وجوه لايعرفها ، فلما كان فى مدينته ، كان كل وجه يذكره باسمه أو بمصاهرة . ولم يكن يعجز بنظرة واحدة أن يصف وجوهًا عن يمينه لأشخاص يكنّ لهم كل احترام وأدب ، أو أن يصف عن يساره وجوهًا لأناس يعرفهم المرء ولكنه لايحييهم . ليس هناك أمر شائع مثل ذاكرة الوجوه هذه التى يجعلها المؤرخون من مميزات عظماء الرجال ، إن «لاروسيل» كان يذكر «ريمون» لأنه رآه ذات يوم فى عربة أبيه ، ولأنه فى هذه المناسبة ربت على خده ، ولو كان رآه فى مدينة بوردو وهو يسير على رصيف مبنى البلدية لما أظهر أى اهتمام به . ولكن هذا المكان ، بالإضافة إلى عدم تعوده الإهانة الناتجة عن عدم معرفة أحد به ، كانت رغبته الخفية ألاَّ تظل «ماريا» بمفردها ، على حين يعبث هو مع الفتاتين الروسيتين العاريتين من خلال ردائهما . وافترض «ريمون» وهو يلاحظ بدقة حركات «ماريا» أنها كانت تحاول أن تصرف «لاروسيل» عن أن يوجه إليه الحديث ، ويقنع نفسه بأنها لاتزال بعد سبعة عشر عاماً ترى فيه هذا الوحش الساذج الخجول . وسمع الشاب «لاروسيل» يزمجر قائلاً : « مادمت أريد هذا فيجب أن ترضى به» . واتجه الرجل نحو «ريمون» وقد أخفت الابتسامة وجهه السيىء الملامح ، وأقبل عليه فى ثقة هؤلاء الناس الذين يعتقدون أن مصافحتهم شرف ، وقال : « أنا لا أخطىء ! إنه حقًّا ابن «كوريج» ذلك الطبيب الطيب ! ولكن زوجته كانت تتذكر أنها عرفت «ريمون» فى طفولته ، فى أثناء معالجة الطبيب لها » .

وأمسك الرجـل بقدح الشاب وأرغمه على الجلـوس بالقرب مـن «ماريـا» التى سرعان ما سحبت يدها بعد أن مدتها قليلاً . جلس «لاروسيل» لحظة معهما ، ثم نهض وقال بدون خجل : «أتسمحان لى ؟ لحظة واحدة . . » .

وقبل أن يحصل على رد منهما لحق بالفتاتين الروسيتين الواقفتين ، وظل الشاب صامتًا ، مع أنه كان من الممكن أن يعود «لاروسيل» بين لحظة وأخرى ، وكان على «ريمون» أن يستفيد من هذه الدقيقة ، ولكن «ماريا» كانت عازفة عنه ، فشم رائحة شعرها القصير ، وتأثر للغاية عندما رأى برأسها بعض شعرات بيضاء ، هل هى بضع شعرات فقط ؟ ربما . . وكانت تلك الشفتان الغليظتان أشبه بثمرة لم يمسسها ضر ، ولم يبق فى عينيها إلا ضـوء صـافٍ تعلوهما جبهة مكشوفـة . آه ، ما أهمية ما تركه الزمـن مـن أثر على رقبتها وصدرها ، ونهش فيهما فأكسبهما شيئاً مـن الرخـاوة ! وقالت «ماريا» بدون أن تنظر إلى الشاب : « إن زوجى فضولى لدرجة » .

أبدى «ريمون» دهشته من أنها قد تزوجته ، وأظهر حمقًا يتصف به شاب فى الثامنة عشرة من عمره . فأجابته قائلة : « ألم تكن تعلم هذا ؟ إن كل مدينة بوردو على علم به » .

وكانت قد عزمت على أن تواجه «ريمون» بصمت ثلجى ، ولكنها خجلت من أن يكون هناك رجل فى العالم ، وأن يكون هذا الرجل من مدينة «بوردو» ويجهل أنها تُدْعَى الآن زوجة «دكتور لاروسيل» ، واعتذر لها عن هذا

الجهل بقوله : «إنه لم يقم بمدينة «بوردو» منذ سنوات عديدة . وعندئذ لم تستطع أن تضع لهذا الصمت حدًّا ، وأخبرته بأن السيد «لاروسيل» اتخذ قرارة في السنة التالية لانتهاء الحرب . . وكان قد تردد طويلاً بسبب ابنه . . ثم أضافت :

- « برتران هو الذى توسل إلينا ، وطلب منا عقد هذا الزواج بعد خروجه من الجيش . . أما أنا فلم أكن متمسكة ، ولكنى رضخت لاعتبارات سامية» .

وأضافت : أنها كانت تود أن تسكن مدينة «بوردو» ، ثم قالت :

- « لكن برتران طالب بكلية الهندسة ، ولهذا يقضى السيد «لاروسيل» خمسة عشر يوماً فى الشهر فى باريس . . ووجودهما معًا فى هذه المدينة يهيىء للشاب حياة عائلية » .

وأحست بالخجل فجأة ؛ لأنها تحدثت معه وكشفت له عن مكنون أسرارها، وسألته وهى بعيدة عنه : « ما أخبار الطبيب العزيز ؟ إن الحياة تفرقنا عن أعز أصدقائنا . . ياله من سرور حينما أسعد برؤيته ! » . ولكن حينما قال لها «ريمون» صادقاً : والدى فى باريس هذه الأيام ، يقيم فى فندق « جراند أوتيل» وسيكون سعيدًا » . فأنهت الحديث وتظاهرت بأنها لم تسمع قوله . . وأخيراً تظاهر « ريمون » بالشجاعة ، وتجاسر بالتعرض للموضوع الذى كان يزعجه ؛ لأنه كان يتوق إلى مضايقتها وإثارة غضبها ، فقال لها : « ألستِ غاضبة منى ، ومن تصرفى الأحمق ؟ لم أكن فى ذلك الوقت إلاَّ طفلاً ساذجًا . . قولى لى إنكِ لست غاضبة منى . . » .

ـ غَاضبة منك ؟

وتظاهرت بأنها لا تفهم ما يقصده ، ثم قالت : « آه ! إنك تشير إلى هذا المشهد السخيف . . ولكن ليس هناك داع إلى الصفح ، وتعتقد أنى كنت طائشة فى تلك الفترة . . إنَّ أَخْذَ المسألة بجد بسبب سلوكك الصبيانى أمر غريب . . ويبدو لى اليوم عديم الأهمية . . إنك لا تستطيع أن تصدق إلى أى حد هو بعيد عنى الآن . . » .

نجح فى مضايقتها حقًّا ، ولكن ليس بالطريقة التى كان يأملها ، فقد كانت تمقت أن تتذكر «ماريا كروس» القديمة ، ولاتعتبر مغامرتها معه إلا أمرًا مضحكاً . وكانت تتساءل فى حذر عما إذا كان قد بلغه فى هذا الوقت أنها كانت تبغى الموت ـ كلا ، ففى هذه الحالة كان قد أظهر شيئاً من الزهو، ولم يبد بمثل هذا التواضع . إن «ريمون» قد توقع كل الاحتمالات ماعدا أسوأها ، أى عدم المبالاة .

وقالت «ماريا» : « كنت أعيش فى ذلك الوقت منطوية على نفسى ، وكنت أوجه اهتماماً بالغًا إلى توافه الأمور . يبدو لى أنكَ تحدثنى عن امرأة أخرى » .

كان «ريمون» يعلم جيدًا أن الغضب والكراهية هما امتداد للحب ، ولو أن «ريمون» استطاع أن يوقظ هذا الغضب وتلك الكراهية فى قلب «ماريا» لكان هذا دليلاً على أن فى قضيته شيئاً من الأمل ، ولكنه لايثير إلاَّ مضايقة هذه المرأة ؛ لما مارسته فيما مضى من مداعبات تافهة . وعندئذ أضافت بلهجة تنم عن السخرية : « اعتقدت إذن أن لهذه السخافات قيمة فى حياتى ؟ » .

غمغم ريمون بأنها كانت لها قيمة فى حياته ، وأنه لم يعترف قط لنفسه بالحقيقة ، ولكنه الآن يبوح بها بدون وعى . حقًّا ، إنه لم يشك قط فى أن مصير حياته قد تأثر من هذا الحادث اليائس الذى وقع أثناء سن المراهقة ، وكان يتألم وهو يسمع صوت «ماريا» الهادىء وهى تقول :

- برتران على حق حينما يقول إننا لا نعيش حياتنا الحقيقية إلا بعد الخامسة والعشرين أو الثلاثين من العمر .

وكان «ريمون» يحس بصورة مبهمة أن هذا القول ليس حقيقيًّا ، وكل ما ينبغى أن يتم يتخذ شكله النهائى فى داخل أنفسنا عند انتهاء سن المراهقة ، فحينما يبلغ الإنسان عتبة شبابه يكون كل شىء قد أخذ وضعه النهائى ، ولا يستطيع إضافة جديد ، وربما يتم هذا الوضع ونحن فى سن الطفولة ، إن بعض الميول الدفينة ، فى جسدنا قبل أن نولد ، ترعرعت معنا ، وامتزجت بطهارة سن المراهقة ، وحينما تبلغ سن الرجولة ، نراها تزدهر فجأة ، وتكشف عن زهرة مخيفة .

كان «ريمون» حائرًا ، وجه ما لديه ضد المرأة البعيدة المنال . وتذكر ما كان مشغوفاً به من «ماريا» ، ومع أنه كان قد تأكد كلما استرسل فى الحديث من أن كلماته كان يتفوه بها فى وقت يكاد يكون مناسباً . . وصرح لها قائلا : « طبعاً ، فهذا الحادث لم يَحُلْ بينى وبين الحب ، أتدرين كيف ؟ مما لاشك فيه أننى فزتُ بنساء أكثر من أىِ فِتى فى مثل عمرى ، نساء لهن قيمتهن » .

ألقت «ماريا» برأسها إلى الوراء ، وسألته وعيناها نصف مغلقة بلهجة تدل على الاشمئزاز مستفسرة عن سبب الشكوى ، قائلة : « مادام الأمر بالنسبة لك ليس إلا هذا العمل السيىء . . » .

وأشعلت سيجارة ، وأسندت رأسها المقصوص الشعر على الجدار ، وأخذت تتابع من خلال الدخان دورات الراقصين ، وبينما كان أعضاء فرقة الجاز يستردون أنفاسهم انفصل الرجال عن النساء ، وصفق الجميع ، ثم مدوا أيديهم نحو العازفين فى حركة توسل لمتابعة العزف ، كما لو كانت حياتهم مرتبطة بضجيج هذا العزف ، وانطلق العازفون يسترسلون فى العزف بروح من الشفقة عليهم حين كانت بعض الفراشات تنطلق فى الجو تعانق الراقصين من جديد .

كان « ريمون » ينظر فى حقد وكراهية ، إلى تلك المرأة ذات الشعر المقصوص وهى تدخن ، وأخذ يبحث عن الكلمة التى تجعلها تثور بدون وعى ، وأخيراً وجدها ، فقال : « على كل حال ، أنتِ فى هذا المكان» .

أدركت «ماريا» ما كان يعنيه بهذا القول ، وهو أن الإنسان يتوق دائماً إلى غرامياته الأولى . استمتع برؤية وجهها وهو يتحول إلى لون قرمزى ، وإلى حاجبيها وهما يقتربان علامة على الضيق . وقالت :

ـ «أمقت دائماً هذا النوع من الأماكن ، ويبدو لى أنك لا تعرفنى تماماً ، إن والدك يتذكر عذابى جيدًا حينما كان السيد «لاروسيل» يجرنى وراءه إلى ملهى الأسد الأحمر . ولن يفيدك فى شىء لو أخبرتك بأنى لست فى هذا المكان إلاَّ بدافع من الواجب ، نعم ، بدافع من الواجب . . ولكن ، لايستطيع رجل مثلك أن يدرك شيئاً من وخز الضمير . . .إن «برتران » شخصيًّا هو الذى يدفعنى إلى أن أساير إلى حد ما ميول زوجى ، إذا أردت أن أحتفظ بشىء من التأثير عليه لاينبغى لى أن أظهر التزمت . إنك تعلم

جيدًا أن «برتران» واسع الأفق ، فهو الذى توسل إلىَّ ألاَّ أعارض والده حينما أراد أن أقص شعرى » .

أحس الشاب أنه ما على «ماريا» إلا أن تذكر اسم «برتران» حتى ترتاح وتهدأ نفساً ، ويبدو عليها الحنان . وتخيل «ريمون» طرقة خالية فى حديقة «بوردو» وقد أوشكت الساعة على الرابعة ، وتخيل طفلاً يلهث يطارده شخص ويقول له : « أعد إلىَّ كراستى » . وهذا الطفل الهزيل فى يوم ما ، ترى أى نوع من الرجل أصبح ؟ . . وحاول «ريمون» مرة أخرى أن يجرحها فقال .

ـ هأنت ذى الآن لديك ابن كبير .

لم تشعر بأى حرج ، بل على العكس من ذلك ، ابتسمت وبدت عليها السعادة وسألته قائلة : « حقًّا ، تعرفت عليه فى المدرسة» .

وفجأة أحست بأن «ريمون» زميل قديم لبرتران ، فقالت : « حقًّا ، إنه ولد كبير ، ولكن ولد قد نعتبره فى الوقت نفسه صديقاً وأستاذاً . إنك لن تستطيع أن تدرك إلى أى حد أنا مدينة له » .

ـ نعم ، لقد أخبرنى أنك مدينة له بزواجك .

ـ نعم ، بزواجى .

ـ ولكن ليس هذا كل ما فى الأمر ، إنه كشف لى . . .

ـ لا داعى للحديث عن ذلك ، فإنك لن تستطيع أن تفهم ، وعلى كُلٍّ كنت أفكر فى اللحظة التى كنت فيها زميلاً له ، أود أن أعرف من أى نوع من الأطفال كان . وكثيراً ما استجوبت زوجى بشأنه . والعجيب أن والده

يجد عادة شيئاً يقوله عن ابنه ، وكثيراً ما كان يكرر لى قوله: « كان طفلاً لطيفاً كغيره من الأطفال » ، والواقع ليس هناك دليل على أنك استطعت أن تراقبه بصورة دقيقة ؛ لأنك أكبر منه سنًّا إلى حد كبير . . » .

غمغم «ريمون» قائلاً : « أربع سنوات فقط ، وهى قليلة» . . ثم أضاف : «إنى لأذكر صبيًّا يشبه رأسه رأس فتاة » .

لم تغضب «ماريا» ، ولكنها أجابت بشىء من الاحتقار الرزين ، بأنها تستطيع أن تتخيل أنه من العسير عليهما أن يتفقا ، وأدرك «ريمون» أن ابن زوجها يعلو فى نظرها عنه بقدر لايستطيع قياسه . كانت تفكر فى «برتران» وكانت قد شربت الشمبانيا ، وابتسمت ابتسامات الرضا والسعادة . وصفقت هى أيضاً بيديها مثل الراقصين ، بعد أن انفصل كل واحد عن صاحبته حتى تسهم الموسيقا أيضًا فى نشوتها ، ترى ماذا تبقى فى ذاكرة «ريمون» من النساء اللاتى فاز بهن ؟ إنه لا يكاد يتعرف على بعضهن لكثرتهن . ولكنه لم ينقض يوم أثناء السبعة عشر عامًا بدون أن يوقظ هذا الوجه الذى يراه الآن ، فى هذا المساء بالذات ، من زاويته الجانبية ، وبدون أن يسبه ، بل بدون أن يربت عليه . . وكانت «ماريا» بعيدة عنه فى هذه اللحظة ، حتى إنه شعر بأنه لايحتمل هذا البُعد ، فنطق مرة أخرى باسم «برتران» حتى يقترب منها بأى ثمن كان ، فقال لها : « أظن أنه سيترك الكلية هذه السنة » .

فأجابته بلطف : إنها سنته الأخيرة . فقد أضاع أربع سنوات بسبب الحرب ، وإنى على ثقة من أن ترتيبه سيكون من بين الأوائل» . ولما أضاف «ريمون» أنه من المؤكد سيخلف أباه ، اعترضت «ماريا» قائلة : «إنه سيترك

له الوقت الكافى حتى يبت فى اتخاذ قراره فى هذا الأمر ، وإنها على كل حال واثقة من أنه قادر على أن يفرض نفسه فى أى مكان ، وأن «ريمون» لايستطيع أن يدرك قيمة هذا الإنسان .

ـ إن تأثيره فى الكلية عجيب . . ولكن لست أدرى لماذا أحدثك عن هذه الأمور .

وسألته وكأنها تهبط من السماء : « أما أنت فكيف حالك؟ » .

ـ أقوم ببعض الأعمال ، إنى أبذل كل ما فى وسعى . وفجأة بدت له حياته حقيرة ، فهى لاتكاد تسمتع إليه ، ولاتحتقره ؛ لأنه فى نظرها ليس له وجود . ونهضت «ماريا» قليلاً ، وصارت تلوح للسيد «لاروسيل» الذى كان لايزال يثرثر وهو جالس على المقعد الخشبى الذى لا مسند له ـ وصاح «لاروسيل» : «دقيقة واحدة» . فقالت فى صوت خافت : « وجهه أحمر . . يكثر من الشراب . . » .

وأخذ العازفون يلفون الآلات الموسيقية كالأطفال الذين غلب عليهم النعاس . أما البيانو فهو الذى كان عاجزاً عن التوقف ، إذ كان فى الحلبة راقصان يدوران ، أما الآخرون فقد خارت قواهم . لقد حانت الساعة التى كثيراً ما كان يتذوقها «ريمون» ، تلك الساعة التى يكف فيها الرجل عن التحفز ، وتمتلىء عيناه بالحنان ، ويخفت صوته ، وتندس يداه . . وكان يبتسم فى تلك اللحظة ويفكر فيما سيأتى به بعد ذلك ، وقد لاح الفجر ، حينما خرج وهو يصفر ، تاركاً وراءه جسماً كما لو كان قتيلاً . . لم تكن حياة «ريمون» بأكملها كافية لكى يشبع منها ؛ إذ أنها كانت لاتبالى به مطلقاً ، حتى إنها لم تلاحظ أنه قرب ركبته من ركبتها ، إذليس له أى تأثير عليها .

ومع ذلك فقد كانت فى متناول يده أثناء السنوات التى انقضت ، واعتقدت أثناءها أنها تحبه . حقًّا ، لم يكن هو على علم بذلك ؛ لأنه لم يكن سوى طفل . . كان عليها أن تخطره بها كانت تطلبه منه ، لأنها لو فعلت ذلك لما نفر من أية هفوة من هفواتها معه ، ولتقدم فى هذه الحالة بالبطء الذى قد يروق لها . إنه يعرف كيف يخفف عند الحاجة الانتقال إلى الرغبة . . أما الآن فقد فات الأوان . . فهل عليها أن تنتظر قروناً حتى يتم اللقاء بين قدريهما من جديد فى ترام الساعة السادسة ؟ ورفع عينيه نحوها ونظر فى المرآة إلى شبابه الذى بدأ يتحلل ، فرأى فيه دلائل الشيخوخة . إن الوقت الذى يحب فيه الإنسان قد انطوى ، ووقت الحب حينما يكون المرء جديرًا به فقط ، ووضع يده على يد «ماريا» فقال لها : «أتذكرين الترام؟ » .

هزت كتفيها ، ووجدت فى نفسها الجرأة على أن تسأله بدون أن تلتفت إليه قائلة : « عن أى ترام تتحدث ؟» . وأضافت ـ حتى لاتتيح له فرصة الإجابة ـ قائلة : «هل تتفضل وتطلب من السيد «لاروسيل» الحضور ، وتستدعى حارسة الملابس ، وإلاَّ فلن نغادر هذا المكان » .

كان يبدو أنه لم يسمع قولها هذا ، فقد تعمدت «ماريا» حينما سألته : «أى ترام» أن يعترض ، بحيث يخبرها بأن لا شيء جدير بالاعتبار فى حياته ، سوى هذه الدقائق التى كانا يجلسان فيها وجهًا لوجه ، وسط هؤلاء الفقراء الذين كان الندم يجعلهم يلقون بوجوههم المكتسية بالفحم إلى الوراء ، وكانت الصحف تنزلق من بين أيديهم الغليظة . تذكر هذه المرأة ذات الشعر الطويل وهى ترفع نحو المصباح قصة فى جريدة يومية ، وكانت شفتاها تتحركان كما لو كانت تصلى . إن قطرات المطر كانت تترك أثرًا فى هذا الطريق الصخرى من خلف الكنيسة « تالانس» ، وكان أحد العمال

يسبقهما أحياناً على متن دراجته ، وهو منحن على مقدمة الدراجة يحمل كيسًا من القماش وقد خرجت منه زجاجة . وكانت أوراق الأشجار التى يعلوها الغبار تشبه الأيدى التى تبحث عن الماء من خلال الأسوار . وقالت «ماريا» :

أرجوك ، كن لطيفاً . . وعُدْ إلىَّ بزوجى . . إنه لم يعتد الإفراط فى الشراب إلى هذا الحد ، وكان ينبغى أن أمنعه من هذا . . إنه لايتحمل .

نهض «ريمون» واستبشع من جديد منظره فى المرآة . وما فائدة الاحتفاظ بالشباب ؟ حقًّا ، إنه من الممكن أن يفوز الإنسان بالحب ، ولكن لم يعد لديه حق الاختيار . إن كل شىء ممكن لمن يملك بهاء ربيع الجسد الوقتى . . لو أن هذه المعاملة كانت قد تمت قبل خمس سنوات ، لما يئس «ريمون» من حظه ؛ لأنه كان يعرف أحسن من غيره ما بوسع فترة الشباب الأولى عند الرجل من انتصار على عدم الاستلطاف . وكان يعتقد أنه منزوع السلاح ، وكان ينظر إلى جسمه كما لو كان ينظر إلى سيفه المكسور، فى ليلة المعركة .

فقالت له «ماريا» : « إذا لم تتخذ قراراً فى ذلك الأمر ، فسأذهب إليه بنفسى ، إنهم يحثونه على الشراب ، فكيف أستطيع أن أعود به إلى المنزل ؟ يا له من عار ! وماذا يقول «برتران» لو رآك هنا بجانبى وأبوه هناك ؟ إنه سوف يدرك كل شىء ، إنه يدرك كل شىء » .

● ● ●

فى هذه اللحظة سمع صوت جسم ضخم ينهار ويقع على الأرض ، فأسرع «ريمون» نحوه وحاول بمساعدة الخادم أن يعين «فكتور لاروسيل» على النهوض ، وكانت قدماه متشابكتين بالمقعد الخشبى الملقى على

الأرض. كانت يده المتخشبة ملطخة بالدم ، ولا تزال قابضة بإصرار على زجاجة مكسورة ، ألقت «ماريا» وهى ترتجف على كتفى والد «برتران» المعطف ، ورفعت ياقته لكى تخفى وجهه المحتقن . كان الخادم يقول لريمون وقت أن كان يدفع الحساب : « لانستطيع أن نجزم إذا كانت هذه بادرة ذبحة صدرية » . وحمل الخادم الرجل البدين حتى سيارة الأجرة بسبب شدة خوفه من أن تزهق روحه قبل أن يعبر عتبة الباب .

جلس «ريمون» و«ماريا» على المقعدين الأماميَّيْن ، وكانا يرغمان الرجل على الرقاد ، وكانت بقعة الدم تزداد اتساعاً على المنديل الملفوف حول يد المريض ، وكانت «ماريا» فى تلك الأثناء تئن وتقول : « إن هذا الأمر لم يحدث له من قبل .. كان ينبغى أن أتذكر أنه لايحتمل الشراب .. هل تقسم لى على الاحتفاظ بالسر ؟» . وكان «ريمون» يطير فرحاً ويحيى بسرور عظيم الأمل الذى عاد إليه من جديد . كلا ، إنه لم يكن فى الإمكان أن يفترق عن «ماريا» هذا المساء ، ياله من جنون حقًّا دفعه إلى أن يشك فى طالعه! وكان الليل بارداً ، على الرغم من أن الشتاء كان قد أوشك على الانتهاء . وكانت طبقة من الصقيع تكسو ميدان «الكونكورد» تحت ضوء القمر . وكان «ريمون» يحجز فى مؤخرة السيارة هذه الكتلة التى كانت تتفوه من وقت لآخر بكلمات مبهمة . وفتحت «ماريا» زجاجة النوشادر التى أحب الشاب رائحتها التى تذكره برائحة الخل . كان جسم «ريمون» يزداد شعوراً بالدفء وهو جالس بجانب جسم حبيبته ، وكان يستفيد من وميض كل مصباح حتى يملأ عينيه من هذا الوجه الجميل ، الذى يبدو عليه الهوان . وأمسكت «ماريا» لفترة قصيرة برأس الرجل .

كانت قبل كل شىء تبغى ألاَّ يدرك البواب شيئاً ، وقبلت بكل سرور

خدمات «ريمون» حتى تصل بالمريض إلى المصعد . وما كادا يُرقدانه على الفراش حتى وجدا أن يده تنزف الدم بغزارة ، وأن عينيه أصبح لونهما أبيض . ازداد هلع «ماريا» وصارت عاجزة عن تقديم العناية المألوفة . . ترى هل يتحتم عليها أن توقظ الخدم المقيمين فى الطابق السابع ؟ يالها من فضيحة !! وقررت أن تتصل بالطبيب ، ولكنها لم تحصل على أى رد ؛ لأنه كان قد استخدم جهاز قطع الحرارة ، فانفجرت باكية وتذكر «ريمون» أن والده فى باريس ، وخطرت له فكرة الاتصال به ليحضر ، وعرض الأمر على «ماريا» ، وهاهى ذى تبحث فى دليل التليفونات عن رقم «الجراند أوتيل» بدون أن تشكره . وقال «ريمون» :

ـ والدى يحتاج إلى الوقت الذى يرتدى فيه ملابسه ، ثم العثور على سيارة أجرة حتى يحضر .

أمسكت «ماريا» فى هذه المرة بيده ، وفتحت باب إحدى الغرف وأضاءتها قائلة : هل تتفضل بالانتظار فى هذا المكان . إنها غرفة «برتران» ، وأضافت : أن المريض استطاع أن يتقيأ ، وأن حالته قد تحسنت ، ولكن الجرح كان لايزال يقلقها . ولما خرجت من الغرفة جلس «ريمون» وزرر معطفه لأن المدفأة كانت رديئة ، وكان يسمع فى داخل نفسه صوت والده ، وقد غلبه عليه النعاس ، وخطر له أن هذا الصوت آتٍ من بعيد . وكانا لم يتقابلا منذ ثلاث سنوات منذ وفاة الجدة «كوريج» ، وكان «ريمون» يشعر فى تلك الأثناء بضائقات مالية ، وقد يكون قد طالب بحقه فى الميراث ، فى عبارات قاسية ، ولكن ما جرح الشاب ودفعه إلى أن يقطع صلته بأهله إنما هو توبيخ والده له من جراء سلوك معيشته التى كانت تثير اشمئزاز ذلك الرجل الحسى . إن سلوكه كوسيط كان يبدو فى نظر والده غير جدير بأحد

أفراد عائلته ، كان الأب يريد أن يفرض على «ريمون» ممارسة العمل فى وظيفة منتظمة ، إن والده سوف يحضر بعد قليل إلى هذا المكان ، فهل كان عليه أن يقبله أو يكتفى بأن يمد له يده ؟

إن «ريمون» ليتساءل ، ولكنَّ أمرًا يجذبه و يستحوذ على انتباهه ، ألا وهو سرير «برتران» ، إنه سرير من الحديد ضيق للغاية ، وغطاؤه قطنىٌّ مشجر بالورد ، وضحك «ريمون» من منظره ؛ لأنه كان يشبه سرير فتاة . كانت جدران الغرفة عارية ، ما عدا جداراً واحدًا تكسوه الكتب . وكان حال الكتب منظماً . وخطر بباله : « إذا حضرت «ماريا» إلى منزلى فستجد منظراً مختلفاً ، ستجد أريكة قليلة الارتفاع إلى درجة أنها تكاد تكون فى مستوى السجادة . إن كل مخلوقة خاضت المغامرة فى هذه الظلمة الخافتة ، تشعر بالاضطراب الذى سببه عدم الألفة . وتحس بالإغراء لأن تستسلم» . وفى هذه الغرفة حيث كان «ريمون» ينتظر ، لم يكن بها ستارة واحدة تخفى الزجاج الذى أكسبته ليالى الشتاء برودتها . إن الشخص الذى يسكن هذه الغرفة كان يود أن يوقظه قبل أن يدق أول جرس من أجراس الكنائس . لم يقدر «ريمون» على تمييز دلائل الحياة الظاهرة . إن هذه الغرفة التى أعدت كعيادة توحى إليه بفكرة أن عدم الاستجابة فى الحب هى بمثابة إرجاء ماهر. واستطاع « ريمون » أن يقرأ بعض أسماء الكتب ، فأخذ يزمجر قائلاً : «كلا، ياله من أبله ! » . لم يكن هناك أمر غريب عنده أكثر من هذه القصص التى كانت تمت إلى عالم آخر . لِمَ تأخر والده فى الحضور ؟ . . كان يود ألاَّ يظل بمفرده ، إذْ أحس كأن هذه الغرفة تسخر منه . . وفتح «ريمون» النافذة ونظر إلى أسطح المنازل تحت ضوء القمر الذى تأخر غروبه . .

ـ والدك هنا .

أغلق الشباب النافذة وتبع «ماريا» إلى غرفة «فكتور روسيل» ، ولاحظ شبحاً منحنياً على السرير ، كما لمح على أحد المقاعد قبعة والده الضخمة ، وهذه العصا ذات المقبض العاجى ، وكان يستعملها «ريمون» فيما مضى حصاناً ، حينما كان يلعب لعبة الخيل ، ولكن حينما اعتدل والده لم يتعرف عليه ، مع أن هذا الشيخ الذى يبتسم له ويضمه إلى صدره والده . . وصاح الطبيب قائلاً :

ـ الامتناع عن التدخين . . تناول اللحوم البيضاء عند الظهر ، الامتناع عن تناول اللحم الأحمر فى المساء ، هذا ما يجعل الإنسان يعيش قرناً من الزمان ، هذا هو كل مافى الأمر .

كرر الطبيب بصوته المتراخى : « هذا كل ما فى الأمر » . وكانت عيناه تتشبثان بالنظر إلى «ماريا» ، وأسرعت وسبقت الحوادث حينما رأته جامدًا ساكنًا وقالت :

ـ أعتقد أننا الآن نحتاج جميعًا إلى شىء من الراحة .

وتبعها الطبيب إلى الردهة وهو يقول فى صوت خافت :

ـ على كل حال ، من محاسن المصادفات أننا تلاقينا من جديد .

وكان يتصور وهو يرتدى ملابسه ليعود بسرعة إلى العربة التى أحضرته إلى المريض أن «ماريا» ستقاطعه بقولها : « والآن وقد عثرت عليك أيها الطبيب لن أتركك أبدًا » ، ولكنها لم تنطق بهذه العبارة حتى بادرها بقوله وهو على عتبة الباب : «على كل حال ، من محاسن المصادفات . . » هاهو ذا يكرر

العبارة التى اعتادها للمرة الرابعة ، رغبة فى الحصول على الإجابة المتوقعة بدون جدوى . كانت «ماريا» تمد له معطفه فى غير ضيق ، حينما لم يعثر على الكُم ، بل كانت تقول فى رفق :

ـ حقًّا ، إنَّ العَالَمَ صغير . ألم نلتق هذا المساء ؟ إننا نستطيع أن نلتقى كذلك مرة أخرى .

ولما كانت تتظاهر بأنها لا تسمع ملاحظة الطبيب هذه ، فقد رفع الطبيب صوته قائلاً : « ربما يستحسن أن نهيىء الفرصة للحظ ؟ » .

حقًّا ، إن الأموات لينزعجون إذا ما عادوا إلينا ! إنهم يعودون أحيانًا وقد احتفظوا منا بصورة كنا نتمنى بشدة تحطيمها ، يعودون إلينا وهم متشبعون بذكريات نتوق إلى نسيانها ، إن كل حى يُرزق ويشعر بالانزعاج من جراء هؤلاء الغرقى الذين يعود بهم المد إلينا .

قالت «ماريا» : « لم أعد أيها الطبيب تلك المرأة المتكاسلة التى عرفتها من قبل ، سأذهب لأستريح قليلاً ؛ لأنه ينبغى أن أستيقظ فى الساعة السابعة » .

وأحست بشىء من الضيق حينما لم يعترض الطبيب على قولها ؛ إذ أنها كانت فى شدة الضيق من جراء إحساسها بأن عين الشيخ تلاحقها فى إصرار، وهو يعيد على مسمعها قوله : « هيا ، ألا تعتقدين أنه فى مقدورنا أن نهيىء الفرصة للحظ ؟ ألا تعتقدين ذلك ؟» . فأجابت بشىء من اللطف : بأنه على علم بعنوانها . فأجاب الطبيب : « بالنسبة لى فأنا نادراً ما أذهب إلى مدينة «بوردو» ، أما أنتِ فربما . . إنه ، حقًّا ، سلوك لطيف أن يُتعب المرء نفسه من أجل غيره » .

وقالت له « إذا انطفأ نور السلم فستجد الزر فى هذا المكان » .

ولكن الطبيب لم يتحرك ، وكان يصر على السؤال : « ألا تشعرين بشىء من جراء سقوطك ؟ » .

خرج «ريمون» من الظلام وسأل : «أى سقوط ؟» . فهزت رأسها وهى تكاد تنفر ، وقالت بجهد عظيم : « أتدرى ما قد يكون أيها الطبيب ؟ ربما نستطيع أن نتراسل . . لست أميل إلى كتابة الرسائل حقًّا . ولكن بالنسبة لك . . » .

فأجابها بقوله :

ـ تبادل الرسائل لا يساوى شيئاً . . فما فائدة الكتابة إذا لم يرَ بعضنا بعضاً ؟

ـ كلا ، كلا ، أتعتقدين أن الواثقين من عدم اللقاء يتمنون أن تمتد صداقتهم بفضل حياة المراسلات الصناعية ؟ خصوصًا إذا ما لاحظ أحدهم أنها سخرة بالنسبة للآخر ، الإنسان يصبح جباناً حينما تكبر سنه يا «ماريا» ، كُلٌّ منا قد حصل على نصيبه ؛ ولذلك فإنى أخشى زيادة الأسى .

لم يكن الطبيب قد قال لها من قبل مثل هذا القَدْر من الكلام . وأخذ يسائل نفسه عمّا إذا كانت قد فهمت مقصده آخر الأمر ؟ كانت غير ملتفتة إليه فى هذه اللحظة ؛ لأن «لاروسيل» كان يناديها ، وكانت الساعة قد أوشكت على الخامسة ، وكانت فى لهفة لأن تتخلص من آل «كوريج» فقالت :

ـ إذن أنا التى سأكتب إليك أيها الطبيب ، وستكون عليك سخرة الرد على رسائلى .

ولكن بعد فترة قليلة من الزمن ، سمعها زوجها وهى تضحك بعد أن أغلقت الباب ودفعت المزلاج ، فسألها وهى تدخل الغرفة عن سبب ضحكها فقالت : « إنك تدرى ما يخطر ببالى الآن . . ستسخر منى لو قلت لك إن الطبيب كان يجاذبنى أطراف الحديث ، ويميل إلىَّ بعض الشىء حينما كنت فى مدينة «بوردو» . . فما أدهشنى ذلك مطلقاً . . »

فأجابها «فكتور لاروسيل» بصوت متراخ : « إنه لا يشعر بالغيرة . . » وعادت إلى ذاكرته إحدى نوادره القديمة فقال : « ها هو ذا شخص آخر قد نضج للحجر البارد» . وكان يعنى بذلك القبر ، وأضاف : « هذا الرجل المسكين أصيب بنوبة قلبية ، وإن عدداً كبيراً من زبائنه كانوا يستشيرون خلسة أطباء آخرين ؛ لأنهم لم يجرءوا على تركه » . فسألته «ماريا» :

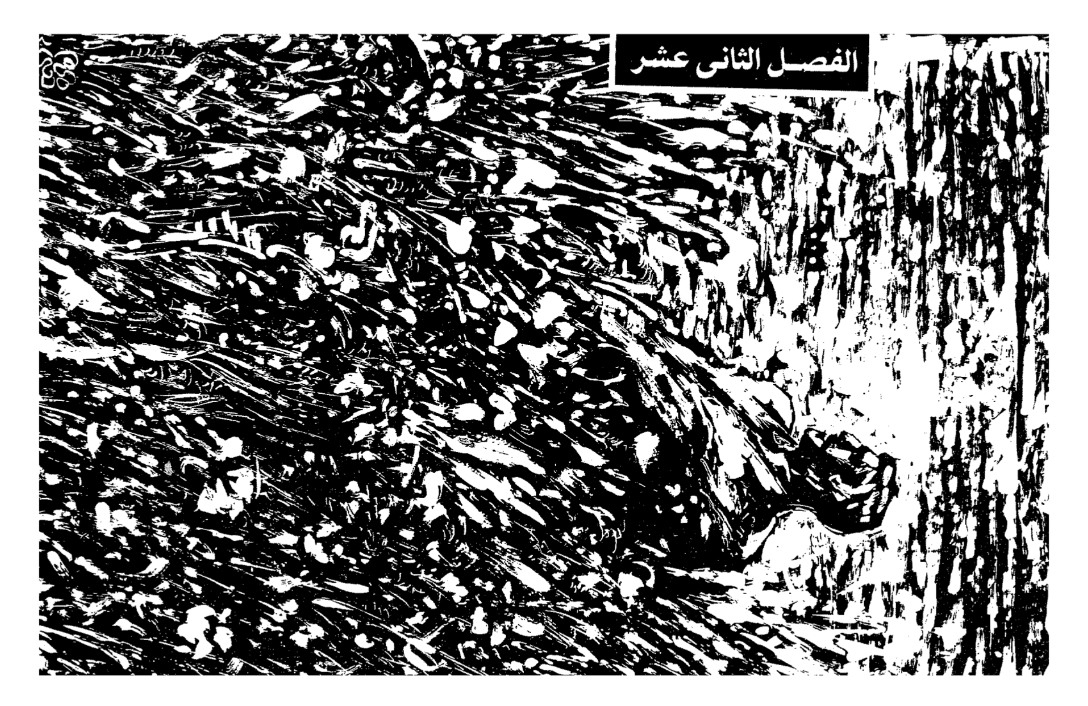
ـ ألا تشعر بعد بألم فى قلبك ؟ ألم تعد تحس بألم فى يدك ؟

ـ لعل ما حدث لى هذا المساء ، لا ينتشر فى مدينة «بوردو» ، عن طريق «كوريج» الصغير !

ـ لا يذهب أبداً إلى هناك . . ثم . . سأطفىء المصباح .

وجلست فى الظلام ، ولم تتحرك إلى أن سمعت شخيراً هادئاً ، عندئذ خرجت لتدخل غرفتها ، وترددت أمام باب غرفة «برتران» ، وكان شبه مفتوح ، فلم تستطع أن تقاوم نفسها ، فدفعت الباب ، وما كادت تدلف إلى الغرفة حتى شمت ، وهى ثائرة ، رائحة التبغ ، رائحة إنسان . وقالت

فى نفسها : « يبدو أنى فقدت صوابى حتى أدخل هذا المكان ، ذلك الـ . .
وفتحت النافذة لريح الفجر ، وركعت لحظة بجانب الفراش ، وتحركت شفتاها ، وأدارت عينيها إلى الوسادة .


الفصل الثانى عشر

كانت سيارة الأجرة تحمل الطبيب «وريمون» ، كما كان الحال فيما مضى حينما كانت سيارة الأجرة ذات الزجاج الذى يتساقط عليه المطر ، تحملهما فى طريق الضواحى ، ولم يتبادلا أى كلمة ، كما كان الحال فى تلك الغدوات القديمة ، ولكنه لم يكن الصمت نفسه . وكان «ريمون» يمسك بيد العجوز المرتمَى قليلاً عليه . وقال «ريمون» : «لم أكن على علم بأنها متزوجة . . إنها وزوجها لم يُخطرا أحدًا بذلك ، أو على الأقل هذا هو ما أعتقده وما آمله . وعلى أية حال لم يخطرنى أحد بذلك » . .

وكان يقال إن «برتران» هو الذى ألح فى جعل علاقتهما شرعية ، وذكر الطبيب عبارة «فكتور لاروسيل» هذه : « إنى أقوم بزواج يحتمه القانون » . . وهمهم « ريمون» قائلاً : « إنه لأمر فظيع ! » . وكان يلاحظ خلسة فى ضوء المصباح الخافت هذا الوجه المعذب من وراء هاتين الشفتين المبيضتين ، وارتاع من منظر هذا الوجه الجامد ، وهذا القناع المتحجر ، وبحث فى ذهنه عن كلمات ، ونطق بأول ما خطر له منها قائلاً :

« كيف حال العائلة ؟» .

وكان الجميع على ما يرام لا سيما «ماريا» التى قال عنها الطبيب إنها غريبة الأحوال ، فهى لم تعد تحيا إلا لبناتها ، تصحبهم إلى المجتمعات

وتخفى دموعها ، وتظهر جديرة بذلك البطل الذى فقدته ، وكان الطبيب لايفوت أبدًا فرصة تمجيد صهره الذى قُتل فى مدينة «جيز» ، كما كان لا يفوته أيضًا أن يعتذر عن تصرفه نحوه حينما كان على قيد الحياة ،ويتهم نفسه بعدم فهمه على حقيقته ، فما أكثر الرجال الذين لقوا أثناء الحرب مصرعهم بصورة تعلو على سلوكهم ! وقد تمت خطبة «كاترين» ابنة «مارلين» الكبرى إلى ابن السيد «ميشان» ، وينتظر الجميع أن يبلغ هذا الشاب الثانية والعشرين من عمره حتى تعلن الخطبة . وأضاف الطبيب محذرًا : « إياك أن تبوح بهذا الأمر لأحد » .

نطق الطبيب بهذا التحذير مقلدًا صوت زوجته ، وتماسك «ريمون» حتى لايجيبه عليه قائلاً : « من ذا الذى يهمه هذا الخبر ؟» .

توقف الطبيب عن الحديث كما لو كان قد أُصيب بألم حاد . وكان الشاب مسترسلاً فى التفكير فى اعتبارات عدة ، وقال لنفسه : « لقد بلغ التاسعة والستين أو السبعين من عمره . وهل يستطيع الإنسان أن يتألم فى هذه السن بعد كل هذه السنوات التى انقضت ؟» . وشعر ريمون عندئذ بجرحه هو ، وارتاع للأمر ، وقال فى نفسه :

« لا ، لا ، إن هذه الحالة ستمر سريعًا» . وتذكر ما كانت تردده على سمعه إحدى صديقاته :

« حينما أتألم من الحب أنطوى على نفسى وأنتظر ؛ لأنى واثقة بأن ذلك الرجل الذى أتمنى أن أموت من أجله ربما لن يساوى شيئاً فى نظرى غدًا ، وموضوع كل هذا العذاب ربما لايساوى نظرة واحدة من جانبى . إن الحب فظيع ، كما أن الكف عن الحب أمر مُخْزٍ . . » ومع ذلك فإن هذا العجوز ينزف قلبه منذ سبعة عشر عاماً . إن الغرام يحتفظ بكيانه ويتركز حينما تكون الحياة رتيبة ، ويكون طابعها الخضوع للواجب ، ففى هذه الحالة لايستهلكه

شيء ما ، ولايتلاشى من أية همسة ، بل نراه يتكدس ويتراكم ويفسد ، ويسبب التآكل فى هذا الإناء الحى الذى يحتويه .

وتدور سيارة الأجرة حول قوس النصر ، ويبدو لهما أن الطريق الأسود اللون ينساب بين أشجار شارع الشانزليزيه الهزيلة ، مثلما ينساب نهر الابريب ، وقال «ريمون» لوالده : « أعتقد أنه قد انتهى زمن الأعمال الوقتية ، فقد عرضت علىّ وظيفة فى أحد المصانع ، إنه مصنع الشيكوريا ، وقد أُكلف إدارة هذا المصنع بعد مضى سنة . فأجابه الطبيب فى غير اكتراث : إنه سعيد للغاية » ووجه إليه فجأة هذا السؤال :

ـ كيف عرفتها ؟

ـ من هى ؟

ـ إنك تعلم من أقصد .

ـ الزميل الذى عرض علىّ هذه الوظيفة ؟

ـ كلا ، أقصد «ماريا» .

ـ إن هذا تاريخ قديم . . أعتقد أنى كنت أتبادل معها بعض الكلمات فى الترام حينما كنت أدرس الفلسفة .

ـ إنك لم تخبرنى بهذا قط ، كلا ، أذكر أنك ذات مرة أخبرتنى بأن صديقًا لك قد أشار لك عليها فى الطريق .

ـ هذا ممكن . . لقد انقضت سبعة عشر عاماً ، ولم أعد أذكر جيدًا . . آه! نعم ، إنها فى اليوم التالى لهذه المقابلة وجهت إلىّ الحديث لكى تسألنى عن أخبارك ، فقد كانت تعرف من أنا . وأعتقد من جهة أخرى ، أنه لو لم يكن زوجها هو الذى أقبل علىّ لكانت احتقرتنى .

وبدا الطبيب مطمئناً لهذا القول ، فانزوى فى ركن العربة وغمغم قائلاً : ومن جهة أخرى ، ما فائدة هذا ؟ وقام بحركة تدل على أنه يبعد عن نفسه فكرة ، وراح يتحسس وجهه ، ثم انتفض واتجه نحو «ريمون» وبذل جهدًا حتى يفر من أفكاره ، وحتى لاينشغل إلا بابنه فقط ، ثم قال له :

ـ حينما يستقر وضعك تَزَوَّجْ يا بنى .

ثم عاد العجوز إلى نفسه وانغمس فى أفكاره، على حين كان «ريمون» يضحك ويعترض على قوله هذا . . فبادره الطبيب بقوله :

ـ لايمكن أن تدرك إلى أى حد تطيب حياة الإنسان فى كنف أسرة . . أى نعم ، إن الإنسان يحمل حينئذ هموم الآخرين ، وهو كوخز الإبر تجذب الدم إلى الجلد ، أتدرك ما أقول ؟ إنها تصرفنا عن جرحنا الخفى ، ذلك الجرح الخفى الذى يدمى فى داخل أنفسنا ، وتصير هذه المشاغل ضرورية بالنسبة لنا . . كنت أود أن أنتظر هنا حتى نهاية المؤتمر ، ولكن الأمر أقوى منى : سأركب قطار الساعة الثامنة صباحاً . إن المهم فى الحياة هو أن يخلق الإنسان لنفسه مأوى . . نعم ينبغى أن تحملنا امرأة فى النهاية كما حملتنا فى البداية .

همهم «ريمون» قائلاً : شكرًا ، إنى أفضل الموت على . . . » .

وأخذ ينظر إلى هذا الرجل المنهك القُوى الذى أوشك على الموت . وقال الأب :

ـ لا تستطيع أن تتصور الحماية التى وجدتها وأنا أعيش بينكم . . فالزوجة والأولاد يحوطون بنا ويحاصروننا ويحموننا من مجموعة الأشياء التى نشتهيها . . فأنت الذى لم يبادلنى الحديث كثيرًا ، لا أقصد يا عزيزى أن

ألومك بقولى هذا ، لم تدرك كم مرة شعرت بيدك على كتفى ، وأنا على وشك أن أنساق نحو نداء لذيذ ، لتشدنى برفق إلى الوراء .

وزمجر « ريمون» قائلاً : «يا له من جنون أن يعتقد المرء أن هناك لذات محرمة !» .

وأضاف :

ـ آه ، لسنا من نفس النوع ، لو حدث لى ذلك لسرعان ما أزحته عن كاهلى .

ـ لا تعتقد أنى لم أسبب لوالدتك عذاباً ! ليس الاختلاف بيننا كبيراً . . كم من مرة أزحت عائلتى من ذهنى ، إنك لا تعلم ذلك ! لاتعترض علىَّ فتقول : « إن بعض التصرفات قد تكون أفضل بالنسبة لسعادتها منذ ثلاثين عاماً . . نعم ، ينبغى أن تعلم يا «ريمون» أنك سوف تتألم حينما تكون زوجاً أسوأ من الزوج الذى كنت أنا . . نعم ، نعم ، لقد تخيلت الخطأ الذى كنت أتوق إليه ، فهل هذا كان أفضل من أن أمارسه ؟ وهل تعلم كيف تنتقم والدتك منى الآن بالمبالغة فى العناية ، وأنا أثقل عليها ، وهذا شىء ضرورى بالنسبة لى . . إنها تتعب من أجلى ليل نهار وتحوطنى بنظراتها . . آه ، سيكون موتى هادئاً . . إنك تعلم تمام العلم أنه لم يعد لنا بعد اليوم من يخدمنا بإخلاص ، فكثيرًا ما تقول لى إن خدم اليوم لا يشبهون خدم الأمس ؛ ولذلك فإنه لن يحل أحد مكان «جولى» ، أتتذكر «جولى» ؟ لقد عادت إلى قريتها وقد حَلَّت والدتك محلها فى كل شىء . . وكثيرًا ما أضطر إلى لومها ؛ لأنها لا تتردد فى أن تكنس المنزل بنفسها ، وأن تدعك خشب أرض الغرف» .

وكفَّ الطبيب عن الحديث ، وقال متوسلاً على حين غرة :

ـ لا تبقَ وحيدًا .

لم تتح الظروف لريمون الإجابة : فقد توقفت سيارة الأجرة أمام «الفندق الكبير» واضطر إلى النزول والبحث عن النقود اللازمة . ولم يكن الطبيب يملك إلا قليلاً من الوقت يعد فيه أمتعته .

● ● ●

إن هذا الوقت الذى يحتل فيه الكناسون وبائعو الخضر الشارع كان مألوفاً لريمون ، فتنفس بعمق ، ثم تعرف على كل الانطباعات التى كان يحس بها أثناء عودته مع الفجر . إن هذه الانطباعات كانت أشبه بفرحة الحيوان المتعب ، بعد أن أحس بالشبع ، ولايتوق إلا إلى الوصول إلى جحره ، وإلى النوم الذى ينفذ إلى أعماق هؤلاء الناس ، إنه لمن حُسن حظه أن أراد والده أن يفترق عنه حينما بلغا باب الفندق الكبير . . لقد تقدمت به السن حقًّا ! يا له من هبوط وهو أن ! وقال فى نفسه : «مهما كان بُعد العائلة ، فلن يفصله عنها شىء ، فما كان أهلنا بعيدين عنا فى يوم من الأيام » . وأدرك أنه لم يفكر فى «ماريا» وحينما تذكر أنه كان عليه أن يقوم بأشياء عديدة فى ذلك اليوم ، أخذ مفكرته وبحث عن صفحة تاريخ اليوم . . وذهل حينما أحس أن يومه أصبح كبير الاتساع . . كيف يصدق أن الأشياء التى كان مقدرًا لها أن تملأه قد انكمشت إلى هذا الحد ؟ الصباح ، إنه خال كخلو الصحراء . . أما بعد الظهر ، فكان لديه موعدان ، إنه لن يذهب .

وكان ينحنى على هذا اليوم كما ينحنى الطفل على بئر ، لا لشىء إلا ليقذف فيها بعض الحصى . حقًّا ، كيف يتأتى له أن يسد هذا الفراغ ؟ هل يدق جرس باب « ماريا » ويعلن اسمه للخادمة ويُدْعَى للدخول ويجلس حيث تكون جالسة ، ويتجاذب معها أطراف الحديث ؟! إنّ أقل من هذا

قد يكون كافياً لشغل هذه الساعات الخاوية ، وساعات أخرى عديدة ، حتى لو حدد موعدًا مع «ماريا» لتاريخ قد يكون بعيدًا ، فقد يكون قادرًا على أن يهزم الأيام التى قد تفصله عن اليوم بصدر يشبه صدر الصياد حين يتربص للفريسة ! حتى لو أنها أجلت هى هذا الميعاد فقد يحس بالرضا إذا حددت له موعدًا آخر . وقد يكون هذا الأمل الجديد على مستوى هذا الفراغ اللانهائى فى حياته ، إذ أن حياته ليست إلا فراغاً لابد من موازنته بالانتظار.

وقال فى نفسه : « لنتدبر الأمر بصورة منطقية ، لنبدأ بالشىء الممكن ، تُرى هل يفيد أواصر الصلة ببرترام لاروسيل ، أعنى أننا ندخل فى حياته ؟ ولكن لايجمعنا ذوق مشترك أو علاقة مشتركة . . هل أقابل فى أية كنيسة هذا الشماس ؟ وراح يعبر فى خياله كل المراحل التى تفصل بينه وبين «ماريا» ، وبعد أن عبر هذا الفراغ الفاصل بينه وبينها صار يمسك هذا الرأس الغامض فى ذراعه الأيمن المطوى . إنه يشعر بعضلة ذراعه هذا ، وقفاها الحليق الذى يشبه وجنات الصبى . ويقترب هذا الوجه نحوه ، ويتضخم ، وهو للأسف بلا جدوى ، كما لو كان على شاشة السينما ، ويندهش «ريمون» لأن المارة لا يلتفتون إليه ولا يدركون جنونه . حقًّا إن ملابسنا تجيد إخفاءنا . .

ويرتمى على مقعد أمام كنيسة «المارلين » ، إن رؤيتها من جديد كانت بمثابة كارثة بالنسبة إليه . . كان ينبغى له ألا يراها . . إن كل عواطف الغرام التى أحس بها منذ سبعة عشر عاماً ، قد أشعلها فى نفسه بهدف نسيانها ، كما يفعل فلاحو منطقة الإند حينما يشعلون النار المضادة . . ولكنه رآها وظلت نارها قوية فى قلبه تتغذى بوهج غرامه الذى حاول أن يقضى على ذكراها به . . وأصبحت عيوبه الحسية وعاداته الخفية وخبرته فى

الغرام ، تلك الخبرة التى اكتسبها ورعاها بكل صبر ، أصبح كل هذا شريكاً فى هذا الحريق الذى أخذ يتأجج ويزحف على جبهة عريضة وهو يرسل الشرر . . وكان يكرر فى أعماق نفسه :

ـ انطو على نفسك ، هذه الحالة لن تدوم ، وإلى أن تنتهى هذه الحالة ، فعليك أن تسلو وانتظر ، أما عن والده فقد سبق أن عانى حتى الموت من هذا العذاب ولكن ، ما أجمل الحياة التى عاشها ! المهم فى الأمر هو أن نعرف ما إذا كان الغرام قادرًا على أن يحرره من العشق ، إن كل شىء يخدم العشق ، فالامتناع يثير ثائرته ، والإشباع يقويه . إن الفضيلة التى نتحلى بها تجعله متيقظاً ، وتسبب الثورة . إن العشق يدخل الفزع فى قلوبنا ويجذبنا ، ولكن إذا ما استسلمنا ، فلن يكون حبنا فى مستوى مكايده . . آهٍ أيها المجنون !! كان ينبغى لك أن تسأل والدك كيف عاش وهو يعانى من ذلك السرطان . . ماذا يوجد يا ترى فى أعماق حياة فاضلة ؟ وماهى وسائل الهروب من المآزق ؟ ماذا تستطيع أن تفعله الأقدار ؟

وكان «ريمون» يحاول أن يتابع حركة العقرب الكبير على (مينا) الساعة الكهربائية الكائنة على يساره ، وخطر له أن والده غادر الفندق فى تلك اللحظة . . واستبدت به الرغبة فى أن يقبل مرة أخرى هذا العجوز المسن ، إنها مجرد رغبة صادرة عن ابن ، ولكن هناك علاقة دم أخرى تربط بينهما ، إنه رباط أكثر سرية ، إنها قرابتهما عن طريق «ماريا» .

وأسرع «ريمون» نحو نهر السين ، وإن كان لديه متسع من الوقت ليلحق بالقطار قبل الرحيل ، وربما كان يسلم نفسه بهذا إلى الجنون الذى يلزم بالجرى هؤلاء الذين تشتعل ملابسهم بالنار . لقد كان على يقين أنه لن يحظى أبدًا بماريا ، وأنه سيموت دون أن يحظى بها . وهذا اليقين كان يؤلمه . إن هذا الشاب الذى فاز بعدد ضخم من النساء احتفظ بهن تارة ، وألقى بهن بعيدًا عنه تارة أخرى ، وكان يشعر بالغضب الذى يشعر به بعض

الرجال الذين عاشوا مثل العذارى محكوماً عليهم بالعذرية ، حينما يتصورون بشاعة الموت قبل أن يتذوقوا الحياة . إن ما حصل عليه عديم القيمة ، والشيء الذى لا يُقَدر بثمن هو ذلك الشيء الذى لن يفوز به أبدًا.

يا لها من امرأة «ماريا» هذه ! ! وذهل حينما شعر أن إنساناً ما قد يستطيع أن يؤثر كل هذا التأثير فى قدر شخص آخر بدون أن يتعمد ذلك . إنه لم يفكر قط فى هذه الفضائل التى تنبعث من أنفسنا ، وتؤثر فى قلوب أخرى ، تبعد عنا كثيراً بدون علمنا . وكان يسير على هذا الإفريز بين حديقة التويلرى ونهر السين . والسبب فى ذلك أنه ، فى بداية هذا اليوم ، أحس أنه غير مزود بالطموح والمشروعات ، وبوسائل التسلية ، ليس هناك ما يجعله يحيد عن حياته التى انقضت . وحيث إنه لم يعد يأمل فى المستقبل ، فقد أخذت حياته الماضية تظهر أمامه . وما أكثر المخلوقات التى سَبَّبَ اقترابُه منها شؤماً لهم . أضف إلى ذلك أنه لايعرف كم من حياة أحسن توجيهها ، وكم من حياة أضاعها . إنه يجهل أنه كان السبب فى أن امرأة قامت بقتل نفس فى أحشائها ، وأن فتاة انتحرت ، وأن زميلاً له قد دخل الدير ، واكتشف «ريمون» وهو على حافة الفراغ الفظيع ، أى ذلك اليوم الذى سيقضيه بعيدًا عن «ماريا» وما سيليه من أيام بدون صحبتها ، واكتشف فى الوقت نفسه عزلته ووحشته ، ومع هذا كان هناك ائتلاف روحى وثيق بينه وبين امرأة ، هو ثقة من أنه لن ينال منها منالاً ، وكان يكفى أن ترى هى الضوء حتى يظل «ريمون» فى الظلمات ، ولكن إلى متى ؟ فإذا أراد أن يفلت من الدوران فى فلكها ـ مهما كلفه الأمر ـ فما هى المسارات الأخرى التى تتفتح له خلاف الذهول والنوم ؟! . . إلا إذا انطفأ هذا النجم فجأة فى سمائه ، كما ينطفىء كل غرام . وكأن «ريمون» يحمل فى نفسه غرامًا جنونيًّا ورثه عن أبيه ، غراماً استبد به ، قادرًا على أن ينبثق عنه إلى نهاية الحياة ، نعم ، هناك

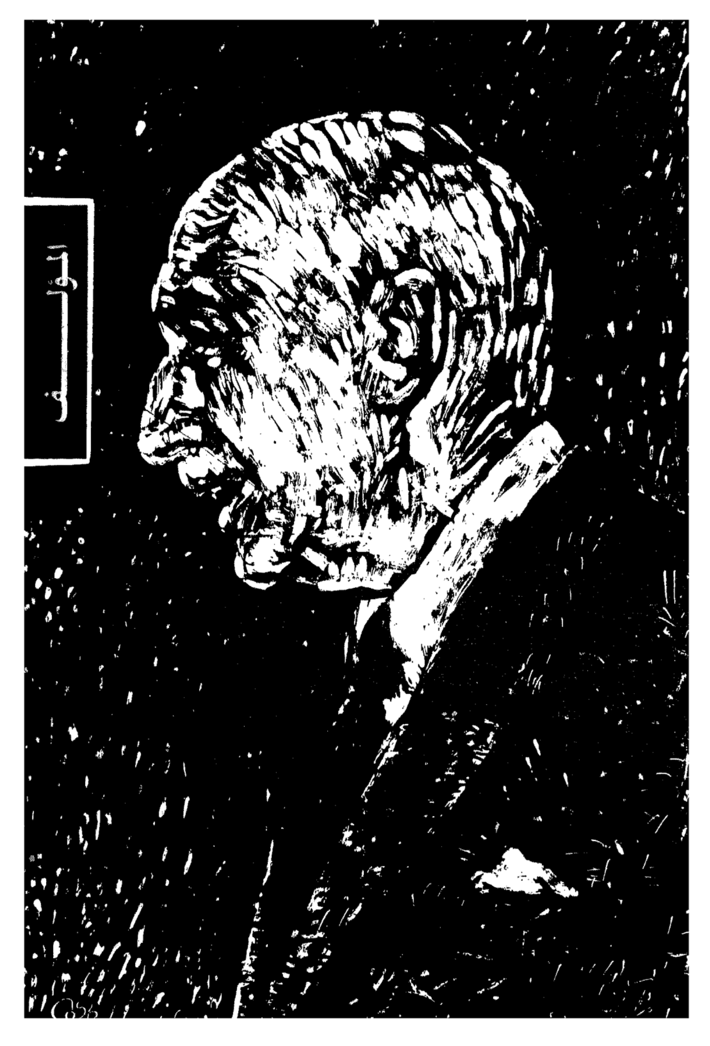
عوالم أخرى مليئة بالحياة ، ونساء على شاكلة «ماريا» سيدور يائساً فى أفلاكها . . إنه ليتحتم أن يتكشف للأب والابن ـ قبل وفاتهما ـ ذلك الشىء الذى ينادى ويجذب ، ذلك المد المحرق دون علمهما .

وعبر «ريمون» نهر السين الهادىء ، ونظر إلى ساعة المحطة ، وقال لنفسه : إنه لابد أن يكون والده فى القطار ، وعرج على الرصيف الذى سيرحل منه القطار ، وسار محاذياً للعربات ، ولم يبحث عنه طويلاً ؛ إذ رأى خلف زجاج النافذة وجهًا تبدو عليه ملامح الموت ، مغمض الجفنين ، ويداه متشابكتان على جريدة منشورة ، ورأسه ملقىً إلى الوراء ، وقد فَغَر فاه . ونقر « ريمون» على الزجاج ، ففتحت الجثة عينيها ، وتعرف على القارع ، وابتسم، ثم تقدم نحوه فى ممشى العربة متعثراً . . ولكن هذه السعادة قد تعكر صفوها بسبب الخوف من أن يتحرك القطار بدون أن تتاح لريمون فرصة النزول ـ وقال الطبيب :

ـ والآن وقد رأيتك وعرفت أنك تريد أن ترانى ، عَجِّلْ يا عزيزى بالانصراف ؛ لأنهم يغلقون الأبواب .

وحاول الشاب بدون جدوى أن يؤكد أن الباقى من الزمن خمس دقائق ، وأن القطار سيتوقف فى محطة «أوستر ليتر» ، ولكن الرجل لم يَسْتَعِدْ هدوءه إلاَّ حينما رأى ابنه على الرصيف من جديد . وهنا أحاطه بنظرة مفعمة بالحب ، بعد أن أنزل زجاج النافذة .

وسأله «ريمون» عمَّا إذا كان هناك شىء ينقصه ؟ وهل هو فى حاجة إلى صحيفة أخرى أو إلى كتاب ؟ وهل حجز له مكاناً فى عربة الأكل ؟! وكان الطبيب يجيب عن كل هذه الأسئلة بنعم . . وهم يلتهم بنظراته هذا الصبى ، هذا الرجل الذى يختلف عنه كثيرًا ، وإن كان يشبهه إلى حد كبير . وأخذ يفترس بنظراته هذا الجزء من كيانه الذى قد يعيش من بعده قليلاً ، والذى ربما لا يراه بعد ذلك .



فرانسوا موريـاك

في الحادى عشر من أكتوبر عام 1885 ، ولد فرانسوا مورياك في المدينة التى كتب عنها كثيراً «بوردو» ، وتخرج في كلية الآداب عام 1906 ، وفى عام 1925 فازت روايته « صحراء الحب » بجائزة القصة الكبرى من المجمع اللغوى الفرنسى ، وبعدها عين عضواً بالمجمع ورئيساً لجمعية رجال الآداب . وقد اشترك في المقاومة بين عامى 1939 و 1942 . . وبعد أن عمل بالصحافة ونشر قصائده ، أصدر مجلة « المائدة المستديرة » عام 1946 . . وفى السادس من نوفمبر عام 1952 أعلنت الأكاديمية السويدية فوزه بجائزة نوبل في الآداب . . ومن الطريف أنه عُين عضواً في جمعية الصداقة الفرنسية ـ المصرية عام 1965 .

في عام 1909 نشر ديوانه الأول « الأيدى المتماسكة» ، وفيه أعلن عن إيمانه المتعارض مع إلحاد والده ، المتفق مع مشاعر والدته . . ثـم نشر ديوانـه الثانـى ، وقصـته الأولى ، وقصته الثانية ، ولكـن الحـرب غطـت على هذه الإصدارات ، وكل الإصدارات التى ظهرت لغيره أيضاً في تلك الفترة .

أما رواياته التالية فلم تحظَ هى الأخرى بأى تقدير أدبى ، وهى «الجسد والدم » ، و«لياقة» ، و«القبلة» ، و«نهر من النار» .

وأما أولى رواياته الناجحة فقد كانت بعنوان «الأم» التى كتبها عام 1923 ، وهى تختلف عن «الأم» لجوركى برغم تكرار العنوان نفسه .

وفى الثامن من سبتمبر عام 1924 نشر قصته الرائعة « صحراء الحب » في « مجلة باريس » وقد حظيت بتقدير النقاد جميعاً .

واستمر مورياك فى نشر رواياته التى كثر الإقبال عليها بسبب رواية «صحراء الحب » التى وضعته جنباً إلى جنبٍ مع كبار كُتَّاب جيله ، بل وكبار الكُتاب الفرنسيين عبر التاريخ .

وفى عام 1928 نشر « تريز دوكيرو » ، ثم الجزء المكمل لها بعنوان « نهاية الليل » عام 1935 . وفيما بين الروايتين كتب مورياك « ما كان منسيًّا » عام 1930 ، وفى العام التالى كتب تكملة لها بعنون « عذابات وسعادة » ، بعدها بعام واحد كتب « عقدة الأفاعى » ثم « معجزة زونترناك » .

ومرة أخرى تحظى روايته « الباريسية » عام 1941 بتقدير كبير يؤكد قصة « صحراء الحب » والطمأنينة الروحية التى كتب بها كل الأعمال الروائية والشعرية والمسرحية والدراسات والمقالات أيضاً .

ففى كتابه « الروائى بشخصياته » يقول : « الفنان فى طفولته يختزن المشاهد والصور والكلمات ، وحتى النكت والدعابات ، وهى - بدون أن يدرى - تعيش بداخله ، ثم تظهر فى الوقت المناسب » .

وقد أحب مورياك الطبيعة وعبر عنها فى كل أعماله ، منذ تخرج من الجامعة وحتى تفرغه تماماً للأدب .

تـأثر موريـاك بموريس باررِيس الذى تنبأ له بمستقبل أدبى باهر بعد أن قـرأ ديـوانه الأول « الأيـدى المتماسكة » ، وكـان الديوان يبين إيمانه ويعلن عنه بوضوح . وظلت هذه الدفقة الروحية تتردد فى أعماله ، وبصفة خاصة « نهر النار » ، و « جينيتريكس » ، وقد سبقتا « صحراء الحب » مباشرة .

وفيما بين عامى 1928 و 1938 تحدث مورياك عن أدبه وعن الأدب بصفة عامة ، فكتب « حياة جان راسين » عام 1928 و « الله » عام 1929 ، و«باسكال وشقيقته جاكلين » عام 1931 ، و«الصحيفة » عام 1934 ، وحتى عام 1937 .

أما فى عالم المسرح فقد كتب مورياك « آدموديه » عام 1938 ، و«المحبون الفاشلون » التى عرضت عام 1945 ، وظلت هى أشهر وأبرز أعمال مورياك المسرحية . . ثم كتب « ممرميلانو» عام 1947 ، و «الجحيم على الأرض » عام 1950 ، وهى تنتمى إلى المسرح السيكولوجى أو النفسى .

وفى أثناء اندلاع الحرب العالمية أصدر « الكراسة السوداء » منذداً بتلك المذابح اللاإنسانية واللاأخلاقية واللادينية ، ولم يكتفِ بذلك ، بل اشترك فى المقاومة داخل الأراضى الفرنسية .

وبعد انتهاء الحرب لم تعد الأعمال النمطية العادية التقليدية تُرضى الناس ، فقد ظهرت التيارات العبثية لتعبر عن اليأس واللامنطق ، بحيث تشكلت الأذواق على هذا النحو ، فتجلت كتابات جان بول سارتر ، وطغت على كل ما عداها .

وقد حاول فرنسوا مورياك أن يبدأ مرحلة جديدة فكتب عام 1951 بشكل جديد ، حتى جاءت جائزة نوبل لتتوج موهبته وإبداعه . . بعدها تفرغ حتى عام 1960 للكتابات النقدية والتحليلية والتأملية فى الصحف والمجلات .

وقد أوضحت تقارير لجنة جائزة نوبل أن « مورياك » لم يكن روائيًّا

كاثوليكيًّا ـ أى متديناً ـ وإنما هو كاثوليكى يكتب الرواية . . ومن هنا أطلق على « مورياك » الكاتب الأخلاقى .

وفى الواقع أن شخصياته تشعر دائماً بالعطش ، عطش الطمأنينة ، عطش النقاء ، عطش الحب .

ولقد تغذى « مورياك » بأفكار « باسكال » ، فأدرك بعمق تعاسة الإنسان بدون الله . . كذلك تأثر ببودلير ، فوجد « فى كل إنسان ـ فى كل لحظة ـ تتصارع فيه نزعتان ، واحدة نحو الله ، والأخرى نحو الشيطان » . ومن هذا المزيج صنع دراما أو مأساة أبطاله . . فالقلوب عنده مضطربة ومختلطة . . ولكنه كروائى كان يسعى إلى المزج أيضاً ، ولكى يحقق أهدافه كان يرى أن الفن يتطلب التناغم والتوحد والحياة حتى يصبح مقنعاً .

وقد فكر « مورياك » كثيراً فى مشاكل الإبداع الروائى ، شأنه شأن ستندال وبلزاك وفلوبير ، وتوصل فى كتابه « الروائى وشخصياته » إلى أن الكاتب « لكى يعبر عن هذا العالم الشاسع والمتغير لابد أن يحتكم إلى ضميره الإنسانى » .

وفيما عدا موهبته كمحلل نفسى ومراقب دقيق ، فإن فرنسوا مورياك يدخل فى عداد كبار الكُتَّاب ، على الأقل بأسلوبه ، ذلك الأسلوب الذى يتميز بالثراء والخصوبة والوضوح ، والدقة والجدة أيضًا .

فمنذ « شاتو بريان » لم يتمكن كاتب آخر ـ حتى بارريس ـ من أن يتمتع بغنائية الأسلوب وهو يكتب نثراً ، غير مورياك ، وعلى حد تعبير بودلير فى «عودة الإنسانية إلى وطنها » . . وهذا ما ظهر جليًّا عند مورياك من خلال «المذكرات الداخلية عام 1959 . .

وقد كتب « مورياك » فى عام 1928 كتابه عن « الرواية » ، وضع فيه خلاصة أفكاره عن العمل الروائى ، وملاحظاته عن السابقين عليه ، فيما أسماه « التصدى لكتابة الرواية » ، وكأنها معركة تحتاج إلى تفكير وتخطيط ، واستعداد وتهيؤ ، ثم مراجعة وتنقية .

ولم تكتف الصحافة الأوربية بما كتبه ، شارحاً ومحللاً وكاشفاً عن فنه وأدبه ، فأَجْرَتْ معه حواراً من أشهر الحوارات التى جرت معه ومع غيره من الأدباء .

سؤال : قلت إن كل روائى عليه أن يبتدع أسلوبه الخاص . فما هو أسلوبك ؟

مورياك : طوال الوقت وأنا أكتب رواية ، أسأل نفسى : ما هى التقنية التى أستخدمها .

وعندما أبدأ فى الكتابة لا أتوقف لأسأل نفسى إن كنت أتدخل مباشرة فى الحكاية ، أو إنْ كنت أعرف الكثير عن شخصياتى ، وإذا كان لابد أن أحكم عليهم أم لا . . أكتب بكل بساطة ، ولا أحبس نفسى فى فكرة مسبقة عما ينبغى أو لا ينبغى له .

فإذا كنت أسأل نفسى الآن تلك الأسئلة ، فذلك لأن غيرى يسألنى إياها ، ولأنها تُسْأَل حولى دائماً .

إن أزمة الرواية الفرنسية التى يتحدثون عنها كثيراً ستحل عندما يتصدى شباب الكُتَّاب للكتابة ، واضعين نُصب أعينهم الحلول التى توصل إليها جويس وكافكا وفوكنر .

سـؤال : برغـم كل شىء ، ألم تلجـأ إلى أساليب خاصـة لكتابـة الروايـة ؟

موریاك : كل روائى يعثر تلقائيًّا على الأساليب التى تناسب طبيعته ، ففى روايتى « تيريز دوكيرو » استخدمت الوسائل المستخدمة فى السينما الصامتة ، مثل غياب المقدمة ، الفلاش باك ، البداية المباشرة . . هذه الوسائل كانت جديدة وحديثة فى ذلك الوقت ، وهذا الأسلوب السينمائى - حتى السينما الناطقة - أفادنى كثيراً فى أعمالى الروائية بعد ذلك .

سؤال : عندما تبدأ فى الكتابة ، هل تكون كل خيوط العقدة الأساسية معروفة لديك ؟

موریاك : هذا يتوقف على الرواية ذاتها ، وإن كان ذلك لا يحدث بشكل عام ، أملك فقط نقطة البداية والشخصيات ، ويحدث أحياناً أن الشخصيات التى تظهر فى البداية لا تستمر حتى النهاية ، وفى المقابل تتعمق أدوار الشخصيات التى بدت مسطحة فى البداية ، كذلك فإن شخصيات مؤثرة لا تظهر إلا قرب النهاية . . ولأضرب مثلاً بمسرحية سمودية هذه المرة ، ففى البداية لم يكن لدى تَصَوُّر كامل عن شخصية «كوتور» ، وفجأة ظهرت أهميته التى فرضت نفسها علىَّ .

سؤال : وأنت فى خِضَم الكتابة ، هل تجد نفسك مواجهاً بمشكلة خاصة أو مشاكل ؟

موریاك : لم يحدث لى ذلك ، ولكنَّ نَقْدًا وُجِّهَ لبعض رواياتى السابقة من الناحية الفنية ، ولهذا أصبحت أراجع الرواية بعد كتابتها لأقرأها بعينى الناقد وليس الكاتب ، حتى أتخلص من المآخذ التى من الممكن أن أكون قد

وقعت فيها وأنا مندمج فى الكتابة ، مسترسلٌ فى الوصف ، أو مندفعٌ وراء شخصية أو مأخوذ بحَدَثٍ من الأحداث . .

سؤال : هل تكتب أحياناً عن موقف لا خبرةَ لك به ؟

مورياك : تقصد لم يحدث لى . . وهو أمر طبيعى ، فليست كل المواقف شخصية ، وإلا فإنى أكون بهذا الشكل كمن يكتب مذكراته ، ولكنها مواقف قد تكون وقعت لغيرى ، رأيتها أو سمعتها أو قيلت لى ، أو جاءتنى من المخزون الأدبى والاجتماعى . . فأنا لم أقتل أحداً من قبل ، ولم أضع السم لأحد ، ولم أُصَب بسرطان ، ولم تكسر قدمى ، وهكذا . . ولاشك أن تجربة أو أكثر ، أو موقفا أو أكثر ، من الممكن أن تكون خاصة بالكاتب ، بل إن شخصية من الشخصيات من الممكن أن تكون هى شخصية الكاتب . . ولكنى أيضًا ابتدعت من المواقف والشخصيات ما لم يكن لها وجود على الإطلاق .

سؤال : العودة إلى الماضى ، ألا تفرض نفسها على الكاتب ، على الأقل فى مدة معينة ، بالتجارب والأحداث والمعايشات ؟

مورياك : بالتأكيد ، ولذلك فإن كاتباً شابًا لن يجد وراءه غير الطفولة والمراهقة ، فى حين أن الكاتب الناضج سيجد خلفه حصيلة كافية ومحصلة طيبة تفيده فى كتاباته ، شريطة ألاَّ يكتب مذكرات وذكريات .

إن كل رواياتى تتخذ إطاراً لها مرحلة مراهقتى وشبابى ، وكلها أشياء حدثت فى الماضى . . ولكن بروست هو الذى ساعدنى فى فهم حالتى حتى أدركت أنى لا ينبغى أن أقلد بوعى ، أو أنقل كل شىء كما هو .

سؤال : هل تسجل أصواتاً سابقة عَلَّكَ تستفيد بها فى المستقبل إذا ما أدركت أهميتها أو طرافتها ؟

موررياك : لا أفعل ذلك مطلقاً ـ فأنا لا ألاحظ ولا أصف ، ولكنى أكتشف ، أو قل أعيد اكتشاف الأحداث المخزونة إذا ما استدعى الأمر ذلك ، ومعنى استدعائه هو نفسه مصدر أهميته .

سؤال : إلى أى مدى تتحكم فى كتاباتك الحواس : حاسة السمع ، وحاسة البصر ، وحاسة الشم ، وهكذا .

موررياك : بشكل كبير ، لقد لاحظ كل النقاد أهمية حاسة الشم فى رواياتى ، فقبل أن أبدأ الرواية أستعيد الأماكن والمناظر والألوان والروائح . . أستعيد جَوَّ طفولتى وشبابى . . أكون شخصياتى وعالمى .

سؤال : هى تكتب كل يوم ، أو فقط عندما تشعر بالإلهام ؟

موررياك : أكتب كلما رغبت فى ذلك ، فى مرحلة من حياتى كنت أكتب كل يوم ، فلا ينبغى أن يتوقف سيل الكتابة فى عمل واحد متصل ، أو رواية قائمة بذاتها ، وعندما لا أشعر بأى دافع أو إملاء ، وهو ما يسمى بالوحى والإلهام ، أتوقف على الفور .

سؤال : هل حاولت أن تكتب رواية مختلفة تماماً عن كل ما كتبت ؟

موررياك : فكرت مرة أن أكتب رواية بوليسية ، ولكنى لم أفعل .

سؤال : كيف تختار أسماء شخصياتك ؟

موررياك : وقعت فى خطأ باستخدام الأسماء التى كانت محيطة بى فى «بوردو» مدينتى ، ولكنى حاولت بعد ذلك أن أتخلص من هذا الأسر

والتأثر، وأخذت أجعل لكل اسم معنى يفسر الشخصية أو يعبر عنها بقدر الإمكان ، ولكن بدون تعنت أو إلزام .

سؤال : إلى أى مدى تتطابق شخصياتك مع شخصيات واقعية ؟

موریاك : فى لحظة الانطلاق أو البداية غالباً ما تكون الشخصية الروائية صورة من شخصية فى الواقع ، ولكن بعد ذلك تتغير الشخصية ، وقد تتناقض على حسب سير الأحداث لتصبح شيئاً مختلفاً عن الأصل ، إلا فيما يتعلق بالشخصيات الثانوية ، فقد تظل كما هى ، على اعتبار أنها شخصيات عابرة وغير مؤثرة فى الأحداث .

سؤال : هل لك طريقة خاصة يتحول بها الشخص الواقعى إلى شخص من صنع الخيال ؟

موریاك : لا توجد طريقة .. إن ما يحدث ببساطة فى الرواية ، هو صناعة طبقة كريستالية حول الشخصية ، ولكن بشكل غير محدد . وبالنسبة للروائى فإن هذا التحول مرتبط أيضاً بحياته الخاصة . أما إذا افتعلت مواصفات غير موجودة بشكل أو بآخر فى الواقع ، فإن النتيجة تجيء بشخصية غير إنسانية .

سؤال : هل أوجدت شخصك أو شخصيتك فى بعض شخصياتك ؟

موریاك : أضع جزءاً من ذاتى داخل كل شخصية ، بحد معين ، أو بنسبة محددة ، حتى لا تتشابه كل الشخصيات . ولكن وضعت نفسى بالكامل فى « الطفل المحمل بالقيود » وكذلك فى « الثوب » .. فى حين أن «إيف » فى رواية « فرونتوناك » أنا وليس أنا فى الوقت نفسه .. فيوجد بيننا تشابه ، تشابه كبير ، وفى الوقت نفسه يوجد بيننا اختلاف كبير .

سؤال : من الناحية الفنية ، من هم الكُتّاب الذين تأثرت بهم ؟

مورياك : لا أستطيع الإجابة ؛ لأنه فيما يتعلق بفن الكتابة فإننى لم أتأثر بأحد ، أو تأثرت بكل من قرأت له ، فالكاتب هو نتاج ثقافة ، وأحياناً نتأثر بكتابات وكُتّاب فى طيّ النسيان ، ومن الجائز أن يجيء التأثر حتى من الكتب المدرسية ، ومجلات الأطفال ، والرسومات ، والأماكن الأثرية ، وما إلى ذلك ، فالتأثر وارد ، ووارد بشدة . . ولكن ما أستطيع أن أقرره ، هو أننى لم أتأثر تأثراً مباشراً بكاتب روائى آخر ، فأنا روائى تكوَّن من الجو المحيط به ، ولقد تعمقت الشعراء ، فلعل التأثر جاءنى من الشعراء وليس من الروائيين . . ومع هذا يمكننى أن أحدد أسماء أحببتها بالضرورة ، وأعجبت بها بالقطع ، ولا أعلم أتأثرت بها فى النهاية أم لا ؟ وهل هذا التأثر لمس شخصيتى أو سلوكى أو أدبى أو فنى ، فى جزء أو فى أجزاء ؟ لست أدرى بالضبط . . وهم ، راسين ، وبودلير ، ورامبو ، وكذلك موريس جبران ، وفرنسيس جيمس .

وإذا حاولنا أن نتلمس خصائص « مورياك » الأدبية والفنية ، فسنجد أنه اختار لمعظم رواياته ومسرحياته أيضاً توقيت ما قبل الحرب العالمية الأولى . . ولعل هذا هو السبب فى أنه صور مجتمعات لم تُصَبْ ولم تُعانِ بعد من ويلات الحروب . . بدليل أن أسلوبه لم يعد ملائماً لقارىء ما بعد الحرب العالمية الثانية .

كما اختار « مورياك » الجو الريفى ، ربما كان متأثراً فى ذلك بإقامته المبكرة فى بوردو ، أو لتنقله فى أنحاء الريف الفرنسى ، أو لإدراكه أنه ككاتب أخلاقى ربما وجد فى الريف وأهل الريف وعادات الريف ما يتلاءم

مع مفهومه الأخلاقى ، بعكس باريس مثلاً ، حيث لا عيب ولا حرام ولا تقاليد .

ولم يكتف « موررياك » باستلهام القيم الأخلاقية من الريف ، بل امتد ذلك إلى استلهام الطبيعة والمشاعر النابضة والأحاسيس النقية والصدق ، سواء فى الحب أو فى الكراهية ، ورابطة الدم والانتهاء الأسرى ، وكل أشياء لا وجود لها فى العاصمة ، أو حتى فى المدن الكبرى .

وكما اعترف موررياك فى حديثه الصحفى ، نجد سندًا قويًا لما ذكر عن تأثره بالفلاش باك السينمائى ، سواء أفاد فى ذلك من السينما الصامتة أو السينما الناطقة . . وهو لم يستخدم هذا الأسلوب لمجرد التجديد والابتكار فى طريقة السرد التى كانت حتى هذا الحين مقيدة بالزمن كوحدة متصلة ومتتابعة ، ولكنه استخدمها لأنها تسمح بتفجير اللحظة الآنية فى الزمن الحاضر ، ثم ترجع إلى الماضى لتبرر ما حدث فى الحاضر ، وما يمكن أن يترتب عليه فى المستقبل ، برغم أن السينما الحديثة بدأت تضيق بهذه الطريقة، وأصبح السيناريو الذى يعتمد على الفلاش باك ضعيفًا نسبيًا .

لقد عنى « موررياك » بالإنسان ومشاكله ومشاعره ، وغرائزه أيضاً ، فهو يهتم بحريته ، ويتتبعه بين الميلاد والموت ، ويحرضه على الثورة ، ويحلل غريزة الحب والجنس عنده ، أحياناً على طريقة فرويد ، وأحياناً أخرى على طريقته الخاصة .

أما الهدف الأخلاقى الأسمى عند « موررياك » فهو مناجاة الله ، والاعتراف بعظمته ، والتدليل عليها ، ليس من منطلق دينى تعليمى

فحسب ، ولكن من منظور الحياة والكون ، وما فيهما من منجزات ومعجزات يعجز من هو دون الله عن الإتيان بها . . ومن هنا تصبح الخطيئة عند مورياك ، ليست تعدياً على الإنسان ، ولكن ابتعاداً عن الله ، وخروجاً على تعاليمه ، بل هو يُكَفِّر مرتكبها ؛ لأنه بذلك يخالف تعاليم الله .

ونصل إلى رواية « صحراء الحب» فنجد أنها الرواية التى وضعت اسم «فرنسوا مورياك » فى الصفوف الأولى مع كُتَّاب الرواية المعترف بهم نقديًّا وجماهيريًّا .

والرواية تحكى عن امرأة مات ابنها وهو صغير « فتجد فى شاب يبدى إعجابه بها عوضًا تُوَجِّهُ نحوه عاطفة الأمومة ، وليست هى العاطفة التى يتصورها الشاب ، ومن هنا تكون صدمته فيما بعد .

هذه المرأة ذاتها تترك الفرصة أمام رجل فى الخمسين ، طبيب معروف ، لا يجد السعادة مع زوجته التقليدية لكى يحبها ، وتوهمه بأنها تبادله الحب ، والواقع أنها لا تحبه .

وتكون المفاجأة ، عندما تتشابك الخيوط ويلتقى المتوازيان اللذان لا يلتقيان أبداً ، فالشاب هو ابن الطبيب ، الطبيب الذى لا يكشف لابنه علاقته بهذه المرأة إذْ لا مبرر لذلك ولا ضرورة ، وهو فى الوقت نفسه لا يعرف أن ابنه على علاقة ـ ولو وهمية ـ بمحبوبته . . أما الابن ففى مرحلة من هذه العلاقة بينه وبين المرأة يعرف طبيعة علاقة والده بها ، عندما تكشف هى أنهما ابن وأب !

يشفق الابن على أبيه ؛ لأنه يتصور أن المرأة تحبه هو ولا تحب أباه ، فيحاول أن ينصح الأب بالابتعاد عن هذه المرأة سيئة السلوك ، فيرفض الأب

أن يصدق هذه الصفة فيها ، فيدافع عنها بدون أن يكشف عن علاقته بها ، حتى زوجته وأفراد أسرته يتهمونها بسوء السمعة كلما جاءت مناسبة لذكر اسمها ، فالجميع يعيشون فى مدينة صغيرة واحدة هى « بوردو » ، بل وفى منطقة واحدة ، يعرف بعضهم بعضاً بالأسماء ، وبالأشكال ، والتلاقى أيضاً .

وتتسبب المرأة فى التباعد بين الابن والأب ، بل والقطيعة . فقد حولتهما إلى غريمين ، إلا أن رابطة الدم تصحو عند الابن عندما يمرض الأب مرضاً مؤثراً ، كذلك تصحو تلك الرابطة عندما يجد الأب نفسه فى مواجهة بلا طائل مع ابنه ، بسبب امرأة تركتهما معاً إلى شخص آخر ، له ابن هو الآخر، تعيش معهما معاً ، فالرجل يحل محل الزوج ، وابنه يحل محل ابنها الميت ، وكلاهما صورة مكررة من الأب والابن اللذين تقرر الابتعاد عنهما معاً .

ومع هذا يقف الاثنان منها موقفاً مشرفاً أكثر من مرة . . فعندما تقع على رأسها وتكاد تصاب بارتجاج فى المخ ، لا تجد غير الطبيب الأب الذى يتحمل المشاق وهو مريض من أجل إنقاذها . . وعندما يقع زوجها الجديد مضرجاً فى دمائه لا تجد غير الابن يساعدها فى حَمْله من الحانة إلى السيارة ، إلى حجرته فى البيت ، ثم يسارع بالاتصال بوالده الطبيب الذى يُسرع بالمجىء لإنقاذ الزوج ، مؤدياً واجبه كطبيب ، بدون أن يضع فى الاعتبار الغَيرة أو الكراهية أو القطيعة . . وفى هذا الموقف الإنسانى الرفيع يلتقى الجميع لأول مرة ، الأب والابن والمرأة ـ أو الحبيبة أو المحبوبة .

وتنتهى الرواية وقد عاد الأب الطبيب الذى أصابه الوهن إلى أسرته وزوجته ، ناسيًا تماماً موضوع تلك المرأة التى عانَى منها كثيراً وكاد يفقد ابنه بسببها . . أما الابن فإنه يجد فى باريس ـ البعيدة عن بوردو ـ سلوى لتضميد

جراحه ، وبَدْءِ الحياة من جديد . . أما هى فلا تزال بين ذلك الزوج الضائع وابنه الذى لا يظهر ، وحياتها التى لم تستقر بعد ، أو لعلها لا تستقر أبداً .

إنها نهاية مفتوحة وغير محددة ، تؤكد تأثر « مورياك » المستمر بالسينما ، وفى الوقت نفسه تخرج عن الأُطُر التقليدية للروايات التى تضع نهاية مغلقة للأحداث وللأبطال معاً .

● ● ●



فتحى العشرى

تخرج فى كلية الآداب ـ جامعة القاهرة ـ قسم اللغة الفرنسية وآدابها عام 1968 .

* عمل منذ عام 1969 بجريدة الأهرام محررا بالقسم الأدبى، ثم ناقدا مسرحيا وأدبيا، ثم مشرفا على صفحة المسرح بالطبعة الدولية، ونائباً لرئيس القسم الأدبى، ورئيساً لقسم السينما . .

* اختير مؤخراً مسئولاً عن لقاءات واتصالات نجيب محفوظ ، وصار المتحدث الرسمى باسمه .

أعد ويعد العديد من البرامج الإذاعية والتليفزيونية فى المجال الثقافى . . ويقدم برنامجا تليفزيونيا بعنوان (دعوة للقراءة) . .

* عين رئيساً لتحرير سلسلة الرواية العالمية التى تصدر عن هيئة الكتاب بوزارة الثقافة . .

* اختير سكرتيراً عاماً لجمعية محمد حسين هيكل الثقافية، وأميناً عاماً لجمعية المسرح، ونائباً لرئيس جمعية كتاب ونقاد المسرح التى كان يرأسها الراحل توفيق الحكيم . .

* عضو اتحاد كتاب مصر، وعضو نقابة الصحفيين، وعضو نقابة السينمائيين (قسم السيناريو) وعضو نقابة المهن التمثيلية (قسم النقد) . .

* عمل مديراً لتحرير مجلة الفصيل السعودية .

* عمل مديراً لمكتب القاهرة لمجلات زينة والرياض وعالم السيارات . .

* يكتب للعديد من المجلات الثقافية العربية : الكويت ، المعرفة ،

دراسات أجنبية ، الحرس الوطنى ، الفيصل ، العهد ، الشرق الأوسط .

* له أكثر من عشرين كتاباً بين الترجمة والتأليف (دراسات ونقد تطبيقى) أهمها :

مهاجر بريسبان ـ الآلة الجهنمية ـ انفعـــــالات ـ دقــات المسرح ـ ليلة القتلة ـ كهف الحكيم ـ شباب هذا العصر ـ سينما نعم . . وسينما لاصرخات فوق المسرح ـ أزمة إنسان العصر ـ دون كيشوت ـ الجحـــيم ـ مفكرون لكل العصور ـ قمم عربية وغربية ـ فصل فى الكونغو ـ ألوان العصر ـ ليلة القدر .

* شارك فى العديد من المهرجانات العربية والعالمية والندوات الدولية فى فرنسا، وإنجلترا، والصين، وإسبانيا، وألمانيا، والنمسا، والأردن ، والسعودية والبحرين وقطر والسودان والعراق . .

كلمة إلى القارئ

الذين فازوا "بجائزة نوبل" في الآداب. هل فازوا بها عن جدارة ؟ وهل فازوا بها لأسباب موضوعية ؟

هذه السلسلة "روايات جائزة نوبل" ..

تصدر للإجابة عن هذه التساؤلات فهي لا تكتفي بترجمة أفضل روايات هؤلاء الكتّاب وأشهرها، ترجمة كاملة وأمينة بلغة عربية رصينة وأسلوب بلاغي عصري، ولكنها تضمّن الترجمة مقدّمة تاريخية وافية عن الكاتب، وتحليلية دقيقة عن فكره وأدبه ولغته وأسلوبه ورواياته، حتى يجد القارئ والدارس والأديب الناشئ، ما يسعده ويفيده ويلبّي حاجته الثقافية ..

من هنا المنطلق لابد من إعادة الفضل إلى أصحابه والاعتراف باستجابة ناشرنا المثقف «محمد رشاد» لهذا المشروع الطموح ثقافياً رغم مغامراته المادية في عالم النشر. والله الموفق دائماً

فتحي العشري

الفنيـــون
الإشراف الفنى : محمد طنطاوى
التصفيف : بثينة جمال
التصحيح : عبد الحكيم بيومى
مونتاج : جودة عبد الصادق

عربية للطباعة والنشر
٧ ـ ١٠ شارع السلام ـ أرض اللواء ـ المهندسين
تليفون : ٣٠٣١٠٤٣ ـ ٣٠٣٦٠٩٨


تصميم ورسوم
محمد حجي